Instagram

Stories

Watch All

Your Story

Yahya El7awy

3.2k likes and المصري للنشر والتوزيع

jermanos نمبر وان يا حاوي

layla ملك السوشال ميديا في مصر يا يحيى

t.me/qurssan

المصري للنشر والتوزيع

اسم الكتـــاب: التئام
اسم الكاتـــب: أحمد مدحت
رقـــم الإيـــداع: 2019/26220
الترقيم الدولـي: 1-118-770-977-977
المراجعة اللغوية: أميرة أسامة
الإخراج الفـنـي: ضياء فريد
المديـر العـــام: يوسف ناصف

01146335098
elmasrypublishing@gmail.com
FB.com/darelmasryy
35 شارع احمد زكي المعادي -القاهرة
instagram.com/elmasrypublishing
twitter.com/darelmasryy

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار المصري للنشر والتوزيع. حسب قوانين الملكيـــة الفكرية. ولا يجوز نســـخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

كل الحقوق محفوظة

t.me/qurssan

التئام

رواية

أحمد مدحت

t.me/qurssan

t.me/qurssan

"أفتح بيبان القلب للهوا
وغصب عني يقفله الهوا
كأني طير مقصوص جناحه قصّ
قلقان ومش شبعان نظر ولا بصّ
وازاي يطير والكون بحاله قفص؟
قفص وله أبواب..
مقفولة ما بينه وبين الأحباب»

لـ عبد الرحمن الأبنودي

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الإهداء

إلى الذين اعتادوا الحياة بجروح مفتوحة.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(١) التمام

أحكمتُ السُترة حول جسدي، ووقفتُ أتأمل تفاصيل ملابسي في المرآةِ كما هي العادة، ضمن سلسلةٍ من العادات لا أُغيِّرها قبل صعودي للمسرح.. أطلقتُ زفيرًا طويلًا، وبدأتُ أراجع النقاط التي جهزتها للكلام عنها خلال حفلة اليوم.. مجموعة متتالية من الكلام فارغ المضمونَ حلو الشكل كالعادة، فهذه الخلطة لا تخيب أبدًا.

ابتسمتُ بمرارةٍ ساخرًا من نفسي في المرآة، ها هي ليلة جديدة تمرُّ على الرجلِ الوحيد الذي أصبح قدره أن يعبر صراطه كل يومٍ مُحمَّلًا بذنوبٍ يعرفها جيدًا، يخوض ذات الاختبار كل يوم ويرسب، ويسقط، يحاول التوازن في كل مرة، لكن نصل الصِّراط يعرف جيدًا ثُقل خطاياه، ألم يكتب الله تجربة السقوط على العُصاة مرة في الآخرة؟

t.me/qurssan

فلماذا أخوضها كل يوم؟!

بدأتُ في ضبط ملامح وجهي أمام المرآة.. المرآة شيء صادق بقدر كذبها؛ فهي تمدك بصورةٍ مطابقة للزيف الذي تحاول رسمه لنفسك أمام الناس، تُريك الحقيقة التي تُحاول أن تُظهرها كحقيقتك، بينما جوهر حقيقتك يقبع هناك في الداخل، في أحراش نفسك المُظلمة التي نخشى مواجهتها.. هل يمكن أن يواجه المرء وحشًا أبشع من نفسه؟

رسمتُ ابتسامة الثقة إياها، وبدأت أُحرِّك شفتيَّ كأنني أتكلم، دون أن أخرج أي صوتٍ من حنجرتي.. لو كنتُ مراقبًا وتم تسجيل فيديو لي لظنَّ من يشاهده أنني مجنون، لكنه جزءٌ من الإعداد، جزءٌ أساسيٌّ من العرض الخادع الذي أقدمه.. أبيع للناس مظهرًا جذَّابًا واثقًا لامعًا، يجب أن يروا فيَّ كل ما يعجزون عن أن يكونوه، كل أحلامهم المؤجلة، لا مهرب من أن أكون الصورة التي تقنعهم كل يوم أنهم يجب أن يكونوها؛ كي يكونوا ناجحين ومكتملين وسعداءً.. نعم، السعادة الآن لها صورة.. أنا صورتها، صورة للسعادة والنجاح.. وجوهُر تعيس..

لا أدري.

وحديث التعاسة ليس هذا وقته.. موعد صعودي يقترب، وليس هناك مجال للكلام عن تراجيديا النفس هذه.. بدأتُ أضع لنفسي مكياجًا خفيفًا جدًّا، خاماته غالية أحضرتُها بنفسي من باريس خلال زيارتي الأخيرة؛ ليداري الهالات السوداء اللعينة التي

t.me/qurssan

تحيط بعينيَّ، وهذا ليجعل لون بشرتي متناسقًا في تجانسٍ كنجوم السينما.. أفعل كل شيءٍ لنفسي بنفسي، لا أثق بأحد؛ فلا أحد يلعب دوري في الحياة يرغب في أن يخونه أحدهم ويخرج للعلن يُعلن أن النجم الصاعد الأنيق ذا الابتسامة الساحرة الذي تتهافت عليه الفتيات؛ يداري عيوب ملامحه وآثار الأرق بمساحيق التجميل.

آه.. كدتُ أنسى! هذا الجرح اللعين في رقبتي، والذي صحوتُ اليوم لأجده يطالعني في رقبتي.. دققتُ في المرآةِ صباحًا، وتساءلتُ عن مدى الغل الذي أكنه تجاه نفسي حتى أُحدث بجسدي جرحًا كهذا خلال نومي.. وضعتُ المزيد من المسحوق المتخصص في إخفاء مثل هذه الجروح، وإمعانًا في التدقيق، رفعتُ ياقة القميص قليلًا لتُغطي ما يمكن من رقبتي.. وتأملتُ نفسي للمرةِ الأخيرة؛ جسد ممشوق حرصتُ دومًا على إثقاله بممارسة الرياضة بانتظام، وملامح حادة جذابة، حتى فكي السُفلي البارز قليلًا يتناسب مع أنفي الحاد المنحوت في شموخ.. أبدو كواحدٍ من أبطال الإغريق كما أخبرتني يومًا ما.. ابتسمتُ في سخريةٍ وأنا أقول في سري: "لكنها لم تخبرني أنها تحب أن تدوس أبطال الإغريق بقدميها الرقيقتين!".

دقَّ الباب في تهذيبٍ ليخبرني أحد مُنظمي الحفل أن ميعاد خروجي يحين خلال دقيقة.. أجبته بصوتٍ عالٍ في حسم أنني جاهز وسأخرج، لكن كل شيءٍ انقلب فجأة وأنا أستدير بعيدًا عن المرآة.

t.me/qurssan

أمامها داهمني فجأة.. أراه يُحدِّق في عينيَّ بتصميم، يطالعني بنظرةٍ يمتزج فيها الحزن بالتسليم، ها هو يطالعني عبر المرآة من الجهة الأخرى، مسخٌ يشبهني في الملامح، كأنه أنا لكن الدماء تُغطي ملابسه، وجرح عميق يبرز في صدرهِ عند موضع القلب. اللعنة! ككل مرة، يبدأ لحم وجهه في التساقط، أحاول إبعاد عينيَّ عن المشهد، أغمضهما بعنفٍ لكنه يأتيني في ظلام الإغماض أيضًا، يمد يديه باللحم المتساقط تجاهي، ودموع البكاء تنساب على وجههِ المُشوَّه، أحاول الخروج من هذا الكابوس، صدري يضيق، صار التنفُّس أمرًا صعبًا ثقيلًا، دقات قلبي تتسارع بينما أسقط على ركبةٍ واحدة.

انساب بطيئًا لأذنيَّ صوت الدق على الباب، دقٌّ حاسم الرغم من تهذيبه، وصوت نفس الشاب يخبرني: "يلَّا يا نجم هنعلن عن خروجك للناس".

حاولتُ التماسك، ونهضتُ واقفًا بصعوبة.. استندتُ على الكرسي الموضوع أمامي، وأخيرًا استقامت قامتي.. عدَّلت ملابسي بخفَّة، ومسحت حبات العرق النابتة على وجهي بهدوءٍ كي لا تُفسد كل مجهودي السابق في وضع المساحيق.. بدأتُ أتنفس بانتظام وأنا أفكر أن ما يحدث لا بُدَّ له من حلٍ كي يتوقف، لم أعد أطيقُ الحياة بصحبة كوابيس الصحو اللعينة هذه؛ فلو استمر الحال هكذا ربما أنهي حياتي في لحظةِ يأس، وهذا مصيرٌ لم أتخيله لنفسي بالرغم من استهتاري الدفين بكل شيء.

t.me/qurssan

رسمتُ ابتسامة الثقة للمرةِ الأخيرة أمام المرآة، ثم قمتُ بتشغيل الكاميرا الصغيرة التي أحملها دومًا معي في كل مكانٍ أذهب إليه، وأتركها لتُسجل ما يدور في الغرفةِ في غيابي.. «غرفة لها باب بقفلٍ أُحضره معي ومفتاحه الوحيد يكون معي».. هذا هو شرطي الأساسي بعد إتمام الاتفاق المادي في أي حدثٍ أشارك فيه.. والجميع يوافق، حتى من لا يمتلك غرفة لها قفل، يقوم بإعداد التجهيزات.. تفاصيل صغيرة كهذه علَّمتني مع الوقت أهمية أن تفرض على مَن تتعامل معه نفوذ السيطرة.

تأكدتُ أن الكاميرا تكشف زوايا الغُرفة كلها، وتُسجل.

علمتني الحياة أن ثقة الإنسان في إنسان مثله هو أغبى تصرُّف يتوارثه البشر عبر الأجيال في زهو عجيب، ثم يعودون باكين عندما يُطعَنون في ظهورهم.. أثق بالأشياء المادية، الأجهزة لا تجيد الكذب، تُخْلِص لمن يملكها، أمَّا البشر فلا يُخلصون إلا لانحراف رغباتهم.

فتحتُ باب الغرفة أخيرًا، ثم سلَّمتُ بودٍ على الشباب المنظمين للحفل.. أسمع من هنا ضوضاء الحضور، وأرى في عيون الفتيات في الكواليس من حولي نظرات الإعجاب المنبهرة التي اعتدتها.. طلبتْ مني إحداهن التقاط صورة معي، فوعدتها بها بعد الحفل.. وعدٌ لن أنفذه بالطبع.

t.me/qurssan

ألقيتُ كل هذا خلف ظهري، حتى صورة المسخ الذي يشبهني طردتها من بالي بعد أن حاول أن يطالعني مرة ثانية، فالآن لدينا أمرٌ أهم.. سأرتقي درجات المسرح، وسيُفتح الستار.

عدَّلتُ ملابسي للمرةِ الأخيرة، وصعدتُ درجات الكواليس جريًا وأنا أبتسم في ثقة، لكن ألمًا كان يعتصر قلبي، وتجاهلته.

وانطلق التصفيق لي من الحضور.

الآن يبدأ العرض.

t.me/qurssan

(٢) التئام

كيف أمنح ثقتي لشخصٍ لا أعرفه، حتى لو كان طبيبًا نفسيًا؟

رفعتُ رأسي لأعلى، وشردتُ بينما أتأمل العمارة الشاهقة التي توجد بها العيادة.. أتيتُ إلى هنا مضطرًا، لن أتحمل تلك الرؤى الكابوسية طويلًا، ولا بُدَّ من حلٍ.. لكن الأمر بالتأكيد لن يتضمن أن أجلس وأحكي له عن تاريخ حياتي، وأعترفٍ كمَن يذهبون إلى الكنيسة طالبين الصفح عن خطاياهم، لن أُمكِّن أي مخلوقٍ من معرفة نقاط ضعفي حتى لو كان طبيبًا، فما يدريني كيف سيستغل ما سيعرفه عني؟

سأطلب منه عِلاجًا لتلك الرؤى، عقارًا أو شيئًا أفعله يبعد عني كوابيس الصحو المرعبة التي زادتْ حياتي بؤسًا.

t.me/qurrsan

صحيح أنني سمعتُ عنه الكثير، عن دقته في عمله، وعن التزامه التام بسرية عملائه.. يُقال أنه ذو ثقافة واسعة لا تلتزم بحدود المعرفة الطبية، إلا أن كل هذا يكتنفه الغموض، والحديث عن غرابة أطواره لا ينفصل عن الكلام الحسن عن نباهته كطبيب.

تعوَّدتُ ألا أصدق كل ما أسمع؛ فعالم المتاجرة الذي يحاوطني يكثر فيه الكذب والادعاءات والشائعات أضعاف أضعاف الحديث الصادق.

ركنتُ السيارة أمام المبنى الشاهق، ودخلت من البوابة الفخمة وأنا أتلفت خلفي؛ لأتأكد من أن أحدًا لا يتابعني أو يراني وأنا أدخل إلى هنا، ويربط بيني وبين زيارة الطبيب النفسي.. خبر كهذا كفيل بأن يهدم كل ما بنيته خلال السنين الأخيرة، كيف يذهب من يُعطي الناس الأمل في الحياة، ويحدثهم عن الاستقرار النفسي والدعم المعنوى، إلى الطبيب النفسي؟!

شيءٌ كهذا كفيل بأن يُحدِث شرخًا لا يُغتفر في الصورة التي يراني بها جمهوري الغفير.

ضغطتُ زر «الدور العاشر» في لوحة المصعد المعدنية المضيئة، وتأملتُ نفسي في المرآة بينما يصعد بي.. شُهرة دكتور «سلمان» الأساسية بين صفوة المجتمع، خصوصًا المشاهير، على تنوع مجالات شُهرتهم، حتى أن اسمه المعتمد أصبح «طبيب المشاهير».. لا يمتلك حسابًا أو صفحة عامة على أيٍّ من مواقع التواصل الاجتماعي، ولا وجود له في البرامج التليفزيونية.. حتى

t.me/qurssan

المعلومات المتاحة عنه عبر الإنترنت تكاد تكون منعدمة، مما يُضفي عليه غموضًا إضافيًا، وإن كان قد بدا شديد التهذيب عندما اتصلت به وطلبت منه حجز ميعاد لزيارته.

خرجتُ من المصعد عند وصوله للدور العاشر.. اقتربتُ من الشقة وقبل أن أدق الجرس، انفتح الباب فجأة، وظهر من خلاله شخص متوسط الطول يرتدي الأسود بالكامل، بنطال أسود وبلوفر برقبة طويلة أسود اللون أيضًا، وعلى أنفه تستقر عوينات لها لون بُني داكن تُخفي عينيه من ورائهما تمامًا.

قال مُرحبًا في تهليل: "أهلًا أهلًا! الحاوي بنفسه مشرفني.. والله دا يوم عيد!".

ومدَّ يده يصافحني بثقة.. فكرتُ أنَّ في لهجتهِ شيئًا من السخرية، خاصةً أنه استخدم اللقب الذي اشتهرتُ به على السوشيال ميديا: «يحيى الحاوي»، هكذا سيطالعك اسمي على كل الوسائط التي أروِّج لنفسي من خلالها.

سبقني إلى الداخل وهو يسألني: "صحيح إيه حكاية «الحاوي» دي؟ اللي عرفته إن اسمك الحقيقي «يحيى مصطفى»".

قلت له وأنا أستطلع المكان من حولي: "لما ابتديت شغل على الميديا حسيت إن اسم «يحيى مصطفى» دا ما ينفعش.. تحسه اسم موظف في شركة الكهربا، ما يعلقش في الدماغ".

t.me/qurssan

أخذتُ أبحث بعينيّ في أرجاء المكان عن أي أحد، سكرتير أو حتى فرَّاش.. سألته وأنا أقف في منتصف الصالة الفسيحة التي دخلناها: "هو مفيش حد هنا؟".

أجابني وهو يتقدم نحو ما يبدو أنه المطبخ: لا مفيش غيري.. أنا ما عنديش سكرتير، ودي أساسًا مش عيادة.. أنا عايش هنا، والمكتب اللي جُوَّه بشتغل فيه كإنه عيادتي.. أنا عندي نوعية زباين ما ينفعش يروحوا عيادة عليها يافطة دكتور نفسي وسكرتيرة.. وبيتهيأ لي إنت واحد منهم".

ونظر لي وهو يبتسم ابتسامةً ذات معاني كثيرة.. لكن عينيه ظلتا مختفيتين خلف العدسات الغامقة.

أخذتُ أتأمل الصالة الفسيحة من حولي، أثاثها أنيق بالرغم من بساطتهِ وقلته في الواقع، حيث هناك مساحات كبيرة من الفراغ غير مشغولة.. لفتت نظري التماثيل الإفريقية غريبة الشكل المنتشرة في كل الأرجاء، وصوت أناشيد صوفية منخفضة تأتي من السقف، كأن الجدران تهمس بها.. بالتأكيد هذا نظام توزيع صوتي كالموجود في القاعات الكبرى.. كما يبدو لم يكذب مَن وصفوه بغرابة الأطوار!

سألني كيف أُفضل سكر القهوة وهو يملأ الكنكة الصغيرة بالماء، ثم طلب مني طلبًا لم أتوقعه: "لو سمحت اقفل موبايلك وحُطه في الباسكت الصغير اللي هناك جنب باب الشقة.. تقدر تاخده وانت طالع، بس أثناء وجودك ممنوع.. وهتلاقي في نفس

t.me/qurssan

الباسكت موبايلي الشخصي أنا كمان".

ثم أكمل حديثه وهو يقلِّب القهوة على نار الموقد: "ولو عاوز تفتش في الشقة تِدوَّر على كاميرات أو ميكروفونات مستخبية مش همنعك ولا هستغرب.. عادي فيه غيرك عملوا كدا أول مرة جُم هنا، قبل ما يعرفوني كويس".

ثم نظر في عينيَّ مباشرةً، حتى كدتُ أقسم أن نظرته اخترقت ملابسي: "بلاش القلق اللي أنا شايفه في عينيك دا يا يحيى، أنا مش هسجل لك.. أنا هحاول أساعدك بكل طاقتي، على الأقل عشان أحلل الفلوس الكتير اللي حولتها لي امبارح على حسابي دي".

ثم أطلق ضحكة عالية مفاجئة وهو يناولني قدح القهوة، ويمد لي يده.. حدَّقتُ للحظاتٍ في كف يده الفارغ الممدود إليّ قبل أن أستوعب ما يريد.. أغلقتُ هاتفي وناولته إياه بتسليم.. ذهب ووضعه في سلة صغيرة موجودة على منضدةٍ جوار الباب، لم ألحظها عند دخولي.. ثم عاد وهو يتقدمني ويشير بيدهِ إلى بابٍ مغلق، أظنه باب المكتب الذي حدثني عنه.

فتح الباب، وأضاء ضوءًا خافتًا في جانب الغرفة، مما يخلق في أجوائها الكثير من مساحات الظل.. وضع قدح القهوة الخاص به أمامه، ثم أشار لي أن أجلس على الكرسي المقابل له.. ثم قال بلهجةٍ مسرحية بدت ساخرة: "احكي يا حاوي!".

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(٣) التئام

للأماكن حضور كحضور البشر، يحس به أهلها ومن اعتادوا ارتيادها، هناك في مكانك الذي تعرفه وتعتاده تشعر بالألفةِ التي تفتقدها في مقاصدك الأخرى مهما بلغت فخامتها ورُقيها.. في مدينتك تشعر بالأمان، أنك لن تضيع أو تضل طريقك يومًا في طُرقها مهما بلغ تعقيدها.. للأماكن طاقة بعضها يشبهنا، والآخر بعيد عنّا منفِّر مهما حاولنا أن نعتاد عليه.

هنا في الإسكندرية أجد بعضًا من نفسي، بعضًا من السكينة، والإحساس بالرسوخ في الأرض.. طريق الكورنيش على اتساعه في بعض مواضعه، وضيقه في مواضع أُخرى، على التغييرات التي تميل للقبح التي يُحدثونها فيه يومًا بعد يوم، أعرفه ويعرفني، أكاد أواسيه كلما وطأت قدماي أرضه.. أخاطبه في سري قائلًا: "هوِّن عليك يا صديقي، شوهوك كثيرًا أعرف! أنا أيضًا شُوِّهت روحي، لا تغرُّك الملابس الفاخرة التي تغطي جسدي، أو العطر ذو الماركة

t.me/qurssan

العالمية الذي يحيط بي كهالة تحميني، هذه الهالة تُقيِّدني لا تحميني، هذه أغلالي أحملها معي أينما ذهبتُ».

وصلتُ إلى الكورنيش قُبيل بزوغ شمس الفجر بدقائق.. صففتُ سيارتي بجوار الرصيف، ونزلتُ، هنا أسير بخُطى واثقة تعرف مقصدها، وفي «القاهرة»، رغم السنوات الأربعة التي أقمتها فيها منذ نزحت إليها حتى الآن، لا تزال قدماي تتصرفان بأخلاق الغريب الخائف الذي يشك في مقصدهِ.. تجاوزت سور الكورنيش بقفزةٍ بسيطة، ومشيت قاصدًا الصخور المُطلة مباشرةً على البحر.. جلستُ واستندتُ على يديَّ، وأخذتُ أحملق في تدافع الأمواج أمامي، تختلط هواجسي بسطح الماء الذي اكتسى بلون شمس البزوغ الدموية.

يقل لون الشمس الأحمر حدَّة مع صعودها أمامي في الأفق، حتى يكاد يصل للون الأصفر المُعتاد.. أخذتُ أعب من الهواء في صدري كأنني أخشى أن ينفد، أن ينتهي كما تنتهي الأشياء التي اعتدتها.

نظرتُ بجواري، على بُعدٍ متوسط، صيّاد يُجهِّز أدواته، ويعيد ضبط شيءٍ ما في السنارة الخاصة به، رجل عجوز له كفَّان كبيران ووجه طيب، يرفع سنارته، يرميها إلى البحر وهو يُبسمل كما خمنتُ من حركةِ شفتيه، اصطدم «الهلب» الصغير بالماء، وغاص مُحدثًا تمويجة بسيطة من حوله، ومع اصطدامه بالماء عادتْ لي ذكرى الليلة الماضية التي أحاول تجاهلها، ذكرى زيارة عيادة الدكتور

t.me/qurssan

«سلمان»، الذكرى أحيانًا تخرج لك كالوحش، حتى لو غيَّرت مكانك وكل خططك هروبًا منها، فتخرج لكَ تُطالعك وتُحدق في وجهك.

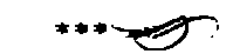

نظرتُ له وحاولتُ كتم انفعالاتي بأقصى ما استطعت، ثم قلتُ بنبرةٍ هادئة ضغطتُ فيها على حروفي: "دكتور سلمان، من فضلك، أنا من ساعة ما دخلت وأنا حاسس في كلامك بلهجة تريقة مش فاهم سببها، ومش مهتم أفهمه، أنا جاي هنا عشان عندي مشكلة محددة يمكن ألاقي حلها عندك، مش جاي أحكي وانت تقعد تسمع حواديتي!".

نظرتُ له فوجدته لم يغير من وضع جلسته، وإن كان قد وضع يديه أمامه على المكتب مبسوطتين.. رد عليَّ بلهجةٍ خَلَت من السخريةِ تمامًا:

"أنا معرفش يا أستاذ يحيى إذا كنت زُرت دكتور نفسي قبل كدا ولا لأ، بس أحب أوضح لك نقطة غالبًا غايبة عنك من كلامك.. أنا مش دكتور باطنة جاي تشتكي له من إمساك مزمن، ولا دكتور أسنان عاوزُه يشتغل لك في ضرس مُعيَّن ما بتعرفش تنام بسبب الوجع فيه؛ فأقوم أنا أنضفه وأحشيه أو أخلعه.. أنا دكتور نفسي، وشغلنا ما ينفعش معاه طريقة إنك جاي لي عاوز حل لمشكلة معينة عندك.. إنت لازم تحكي.. تفتح قلبك وتحكي..

t.me/qurssan

إنت ما شربتش قهوتك ليه؟".

انتبهتُ حينها لفنجان القهوة الموضوع أمامي دون أن يُمَس.. تناولت الفنجان، ورشفت منه، وفوجئت بجودتها! مذاق ممتاز أصيل لم أتذوقه منذ زمن.

يبدو أنه لاحظ أمارات الإعجاب على وجهي، فقال مبتسمًا: "ما تستغربش.. دا بُن يمني بيجيبهولي واحد حبيبي من اليمن مباشرة لغاية عندي.. المهم.. بلاش حكاية «احكي» دي طالما ضايقتك.. إيه اللي خلاك تفكر تروح لدكتور نفسي يا يحيى؟".

بذكائه استطاع امتصاص الغضب الذي كان يعتمل في ذهني بسبب طريقته معي في البداية.. بدأتُ ألاحظ أنني أمام إنسانٍ يعرف جيدًا ما يفعله.

بدأت أحكي له عن سبب قدومي له، عن الكوابيس المُرعبة التي تزورني خلال يومي، وأيضًا وأنا مستيقظ، فتأخذني من كل ما يحيط بي للحظات، تطول بالنسبةِ لي حتى أكاد أحسها دهرًا ثقيلًا يجثم على صدري.. استمع لي دون أي تعليق حتى انتهيت، ثم قام وأخذ يتمشى في الغرفة، ثم بادرني بسؤالٍ: "إنت بتشرب كحوليات؟ بتتعاطى أي مخدر حتى لو حشيش؟".

أجبته في ثباتٍ بالنفي.. بالفعل لا أتعاطى أي شيء.

فأكمل: "ولا كنت بتشرب قبل كدا في أي وقت؟"

أجبته هذه المرة وأنا أبتسمُ رُغمًا عني في سخريةٍ: "إنت مش أبويا عشان أكذب عليك يا دكتور! لأ، عمري ما شربت أي حاجة،

t.me/qurssan

حتى السجاير ما بدخنش".

عاد ليجلس على الكرسي المقابل لي أمام المكتب لا خلفه كما كان يجلس في البداية، ثم سألني: "طيب إنت مرتاح في حياتك؟ إيه الحاجة اللي شاغلة تفكيرك في الفترة الأخيرة؟"

أجبته باقتضابٍ أنني نعم مرتاح، والحمد لله أمور عملي تسير في صعود، كل أرقامي صاعدة، أرقام المشاهدات والمتابعين على المنصات المختلفة في تزايد مستمر، ويبدو أنني في طريقي للقِمّة في مصر بلا منازعٍ في هذه الساحة.

بدا عليه عدم الاهتمام بما قلت، وعاد يقول: "أنا مش عاوز منك الإجابات دي، الكلام دا ينفع تطلع تقوله للي بيتابعوك على السوشيال ميديا.. أنا مش قاعد مع «يحيى الحاوي»، أنا بكلم «يحيى مصطفى» وبسأله: إنت مبسوط باللي بتعمله؟ إيه اللي شاغل بالك الفترة الأخيرة؟".

أجبته بطريقة محتدة لم أقصدها: "أنا مش فاهم إنت ليه مُتعمد تحسسني إني بكذب؟! إنت سألتني عن شغلي وقلت لك إنه تمام والدنيا بتتقدم للأحسن.. هو أنا بيتحقق معايا ولا مفروض بتساعدني؟".

لم تتغير حركة قسمات وجهه وأنا أتحدث، لكنه قام سائرًا بهدوء، وجلس خلف المكتب من جديد، وارتشف من فنجان قهوته قبل أن يقول: "يا أستاذ يحيى إنت مصمم تصعَّبها عليك وعليا.. أنا ما قلتلكش احكي لي عن تقدمك المهني، أنا سألتك

t.me/qurssan

إنت مرتاح؟! ما جاوبتش.. وما جاوبتش بردو على سؤالي التاني".

سكت هُنيهة قبل أن يكمل: "واضح إنك ما كُنتش مستعد لفكرة زيارة طبيب نفسي.. عشان أقدر أساعدك لازم تحكي لي اللي مبتحكيهوش في العادي لأي حد.. وإلا يبقى كل اللي بنعمله دا تضييع وقت.. أنا هستنى زيارة منك خلال أسبوع من دلوقتي.. لو جيت لي هعرف إنك فكرت وقررت إنك تحكي لي وتفتح لي قلبك، ولو ما جيتش خلال الأسبوع ده، مبلغ الأتعاب اللي حولتهم لي على البنك هيرجع لحسابك بالكامل".

ثم قام فجأة، وسار نحو باب غرفة المكتب التي جلسنا فيها، وفتح الباب خارجًا.. وجدتُ نفسي أجلس كالأبله غير مستوعبٍ لما يدور قبل أن أدرك الأمر وأقوم فجأة.. خرجتُ بخطواتٍ مرتبكة إلى الصالة الفسيحة قليلة الأثاث، لأجده واقفًا بجوار باب الخروج وهو يمسك مقبضه بيده اليُمنى، وعند اقترابي منه، ناولني هاتفي الذي تركته بجوار الباب عند دخولي، وأدار المقبض ليفتحه، ثم صافحني بقبضةٍ قوية وهو يقول: "لمَّا تبقى قادر تحكي هتشرف بزيارتك في أي وقت.. يا ريت تبعت لي قبلها بـ ١٢ ساعة على الإيميل بس".

لأجد نفسي خارجًا أجرُّ إحساسًا خفيًا بالإهانة، قبل أن يُغلَق الباب بقوة من خلفي.

على مدار السنين الأخيرة لم أعتد من أي أحدٍ ممن أقابلهم أن يعاملني بمثل هذه النِديّة، وهذه الصلابة.. اعتدتُ دومًا أن

t.me/qurssan

أكون الطرف ذو السلطة، الشخص الذي يتمنى الطرف الآخر أن يحوز رضاه ويتجنب غضبه، اعتدتُ التملُّق، وأصبحت أجد لذةً في سماع كلمات الإطراء، حتى لو كانت كاذبة، حتى عندما تُقال نفاقًا لنيل مصلحة مني يتمناها المنافق الذي يمتدحني، حتى لو كنتُ أعرف أنني لا أستحقها وإن خرجتْ من قائلها صادقة.. فيها أجد الإحساس بالأمان الآتي من إحساسي بالسيطرة، أنني أنا من يقود، أتحكم.

نزلتُ في المصعد ومرارة الإهانة تعتمل في نفسي.. قدتُ سيارتي في شوارع القاهرة الخالية من ناسها في الليل، ما زال الشعور العميق بالاختناق يحاصرني؛ هذه الشوارع المقيتة لا تستوعبني، لا تحتوي غضبي.. وكأن السيارة على اتصال لا منطقي بعقلي، وجدتُ نفسي دون وعي أقود إلى الطريق الصحراوي، ذاهبًا إلى موضع أماني الأول، والوحيد تقريبًا.. الإسكندرية.

***

صحيح أنها منشأي الذي تعرفه قدماي وتسيران فيه بتلقائية، دون أن تنتظران توجيهًا من عقلي، إلا أن مدينتي العجوز تغيرت كثيرًا، غطى التراب ملامحها حتى كادت أن تنمحي.

قطعتُ الكورنيش بسرعةٍ في هذا الوقت المبكر، حيث لا يزال معظم الناس في بيوتهم.. في أحد الشوارع الداخلية في «محطة الرمل» صففت السيارة بجوار الرصيف، ونزلت، وبدأت

t.me/qurssan

في التجوُّل سائرًا.. أعرف الشوارع هنا جيدًا، أعرف حتى الحارات الصغيرة، لي ذكرى تقريبًا في كل ركن، بعضها حلو ومعظمها أصبح مُرًا، كما أصبحتْ معظم ذكرياتنا الحُلوى علقمًا بفعل مرور الأيام، وانكشاف الحقائق والخدع واحدة تلو الأخرى.. هنا موضع أيام البراءة الأولى، في هذا المقهى، في الشارع الذي يقع قرب سينما «فيريال»، جلستُ أستمع لعازف عودٍ ماهر أتى من الأرياف، قيل أنه استقال من وظيفتهِ الحكومية وترك كل شيء، ونزح إلى القاهرة، وأصبحت حياته بين القاهرة والإسكندرية؛ محاولًا إيجاد فرصة لنفسه في عالم الموسيقى، قبل أن يختفي وتذوي سيرته، ذاب في زحام ملايين الأحلام الضائعة، لا أعلم لماذا أتذكره الآن بالتحديد؟ ربما بسبب ضحكته التي تذكرتها منذ عدة أيام فجأة، كانت له ضحكة تُذكرك بقهقهة الأطفال، لكن ملامح وَجهه تتقلص أثنائها كأنه على وشك البُكاء، مزيج غريب طالما لفت نظري في المرات التي التقيته خلالها، تُرى ماذا كانت تخفي حكايته؟ وأين هو الآن؟

وصلتُ إلى ميدان ترام محطة الرمل، ووقفتُ أتأمل باعة الصحف والكتب وهم يرصون بضاعتهم، يستعدون ليوم جديد، تفتَّح وعيي وهم هُنا، صحيح أن وجوه بعضهم تغيرت، لَقد مات معظم المُلَّاك القدامى وورث الأكشاك أبناؤهم، ونوعية بضاعتهم أيضًا تغيرت.. انسحبتْ مساحات كتب الأدب الجاد، وكتب التاريخ والتحليل السياسي وتاريخ المسرح والسينما، لصالح

t.me/qurssan

الكتب الخفيفة الرائجة تجاريًا، ابتسمتُ وقلتُ بصوتٍ هامس: "كله بياكل عيش".

كنتُ أعرف أين ستأخذاني قدميَّ، «النبي دانيال» طبعًا! هل وصل «سامي» إلى كشك الكتب الخاص به؟

صحيح أن الوقت ما زال مُبكرًا للغاية، لكنه من عُشَّاق الاستيقاظ مُبكرًا، عادة غريبة لم أفهمها كشخصٍ عاشق لليل.. لكن يبدو أن اختلاف طباعنا هو سر صداقتنا المتينة منذ الثانوية حتى الآن.. يبدو أن الصداقة لا تعني أن تصادق من يشبهك، أحيانًا تختلف الطباع وتتآلف الأرواح في سرٍ خفيّ لا يعلم مكنونه إلا الله.

اسمه «محمد سامي»، لكن منذ القتينا خلال اليوم الأول في الصف الأول الثانوي وأنا أناديه «سامي».. منذ البداية نشكل ثنائيًا غريبًا متنافرًا في الظاهر؛ هو مرح ودود اجتماعي لدرجة تُفزعني في بعض الأحيان، متفائل يأخذ كل شيء، حتى أكثر المصائب قسوة على سبيل المهزلة التي ينتظر أن يُحوِّلها لنَكتة في المستقبل.. وأنا قليل الكلام مائل للتأمل، لا أحب التعرُّف على شخصٍ جديد إلا في أضيق الحدود.. أذكر أننا تعارفنا بسبب حديثٍ انطلق فيه طلبة الفصل يومها عن فيلم قديم لواحدة من نجوم الإغراء، بالطبع كان الحديث عن أشياءٍ بعيدة تمامًا عن سيناريو أو إخراج الفيلم، فالمراهقون اهتماماتهم تنصب على ما بان وانكشف من جسد الفنانة الفُلانية في المشهد الفُلاني، إلا أن طريقة «سامي» في حكي

t.me/qurssan

أحداث الفيلم جذبتني بشدة.. كانت حصة خلت من مُدرِّسها الذي غاب تقريبًا ولم يكن مدير المدرسة قد وجد له بديلًا في خضم أول يوم دراسي.. كان يحكي تفاصيل كل مشهدٍ كأنه يراه أمامه في شاشةٍ وَهمية لا يصل بثها لسواه، استفزتني قدرته المدهشة على الحكي، فقاطعته عندما كان يحاول تقليد أداء «رشدي أباظة» في أحد المشاهد، قلت له: "لأ.. ما قالهاش كده".

وقمت من مكاني، سرتُ بين صفيّ التلاميذ في الفصل، وساد الهدوء كأنهم يترقبون ماذا سأقول أو أفعل.. بدأتُ في أداء المشهد بنفس الحوار الذي كنتُ أحفظه، فلقد كان واحدًا من الأفلام التي تُذاع بكثرة في الفضائيات.. يبدو أن أدائي كان صادقًا للدرجة التي استدعتْ انتباه الجميع وصمتهم، وإعجابهم بعد أن انتهيت، حتى الذين سخروا كانت عيونهم تلمع بالإعجاب.. العيون مرآة للقلب لا تكذب، حتى إن أراد صاحبها إخفاء ما بوجدانه.

منذ هذا اليوم توطدت صداقتنا، نفس المدرسة، نفس الدروس الخصوصية، جمعنا حب الكتب والسينما، ذوقنا واحد في كل شيءٍ تقريبًا بالرغم من اختلاف شخصياتنا البالغ عن بعضنا البعض.. وجمعنا نفس القسم في ذات الكلية فيما بعد: كلية الآداب- قسم المسرح.

سرتُ متمهلًا في «النبي دانيال»، الذي بدا شبه خالٍ من البشر في هذا الوقت المبكر.. مبانيه لا تزال معظمها كما هي، على الأقل هذه البيوت ذات الطابع المعماري الأوروبي المريح

t.me/qurssan

للعين.. لكن نشاطات المحلات فيه اختلفت كثيرًا على مدار السنين الأخيرة، هذا المحل مثلًا، نعم الذي كان يقع في منتصف الشارع على اليمين، والذي كان يمتد إلى الداخل كمكتبةٍ طالما زُرتها بصحبة أبي في طفولتي، مات صاحبه وحوَّله الورثة إلى محلٍ لبيع الأحذية.. دخلته منذ عام، اشتريت حذاءً لم أكن أحتاجه في الواقع، فقط كنت أود أن أسأل الرجل الثلاثيني مكفهر الوجه الذي جلس وراء مكتب المدير قبل أن أخرج: "هو مش المكان دا كان زمان مكتبة؟".

فأجابني بالإيجاب بهزةٍ مقتضبة من رأسه، وهو ينظر لي مستفهمًا عن سبب السؤال.. فأكملتُ بابتسامةٍ جاهدت كي تكون بشوشة: "طيب وليه غيرتوا النشاط؟".

فأجابني دون أن ينظر لي، وهو يعدِّل من وضع ملابسه العلوية في عدم اكتراثٍ: "الوالد اتوفى، وزباين الكتب قلّوا.. قلت أشتغل في حاجة أضمن، أصل الناس أكيد مش هيمشوا حافيين يعني".

وصوَّب نحوي ابتسامة سمجة.. فبادلته بابتسامةٍ أكثر سماجة وأنا أتجه صوب الباب: "عندك حق.. بس يقدروا يعيشوا من غير ما يقروا.. الجِزم أهم!".

لكن «سامي» لم يُغيِّر شيئًا في كشك الكتب الذي ورثه عن والده، فحبه وعشقه للكتب ـ خصوصًا الأدبية منها ـ يفوق حبه للمال والنساء وكل شيء، ولا يمكنني أن أنسى فضلِ هذا الكشك على تنمية ثقافتي خلال سنين المرحلة الثانوية والكلية، فاستعارة

t.me/qurssan

الكتب مجانًا من كشك والده رحمة الله عليه كانت شيئًا مسموحًا لي بصفتي صديق ابنه المُقرَّب، خصوصًا أنني كنتُ أحافظ على ما أستعيره.

وصلتُ إلى الإشارة التي تقطع «النبي دانيال»، حيث التقاطع مع شارع «فؤاد» الممتد.. عبرتُ التقاطع الخالي من السيارات، وصارتْ أكشاك الكتب متراصة على يساري.. من بعيدٍ لمحته، متوسط الطول بدين، لكن بدانته غير منفرة، بدين بشكلٍ مُحبب للعين، خاصة بلون بشرته المائل للون الأسمر، وجبهته البارزة، وابتسامته العريضة التي تميز ملامح وجهه الطفولية البشوشة في معظم الأوقات.. كان منحنيًا أمام صفٍ طويل من كتبٍ أخذ يرصها واحدًا فوق الآخر في نظام.. وقفتُ قُربًا منه على يساره، رفع رأسه نحوي، ثم غطت الضحكة العريضة وجهه وهو يهتف: "أبو يحيى! حبيب قلبي يا عم!".

ثم اعتدل واقفًا، واحتضنني بشدةٍ كعادته كلما التقينا بعد غياب.. لم أعد أرتاح للتلامس الزائد عن اللزوم في الفترةِ الأخيرة مع أي شخص، لكنه «سامي»، هكذا هو، وبالطبع لا أستطيع إبعاده أو عدم مبادلته العناق.

سحب لي كُرسيًا خشبيًا من بين صفوف الكتب المتراصة.. جلستُ أمامه بينما جلس هو على قطعة قماشية فرشها على أرضية الكُشك المرتب بعناية رغم ازدحامه بالكتب.

t.me/qurssan

جلستُ أمامه صامتًا هنيهة أتأمله مبتسمًا، ما زال كما هو، تغطي ابتسامة الرضا شفتيه كأنه حقق كل ما يستحق في الدنيا، مع أنني اكثر مَن يعلم كم قاسى في الحياة، وكم ظلمته وحرمته مما يستحق، لكن يبدو أن بداخله بذرة الرضا لا تكف أبدًا عن غرس فروعها بداخله، بالرغم من تقلبات الحياة ضده.

بادرني بالسؤال عن حالي.. أخبرته أنني بخير، لكن يبدو أن عينيَّ فضحتا ما حاول لساني أن يكذب بخصوصه، أو ربما هو الشخص الوحيد الذي أفشل حتى الآن في الاصطناع أمامه.

حدَّق في عينيَّ بعمقٍ وقال مُبتسمًا: "يحيى أنا عارف إنك مش كويس.. مش عشان ببعت لك وبكلمك بقالي ٣ شهور وفين وفين لما ترد عليا أو تبعت لي.. أنا لو معرفكش كنت قُلت إن الشهرة والفلوس غيَروك من ناحيتي، بس أنا عارف وحاسس إنك تعبان ومش كويس.. لو مش عاوز تحكي ما تكذبش عليا؛ إنت عارف إني ما بحبش حد يستغباني".

قررتُ تغيير مجرى الحديث وسألته وأنا أمسك بأحد الكتب: "إنت لسه شغَّال في الكتب دي؟ ما بتجيبش من الكتب الشبابية اللي بتبيع اللي طالعة جديد ليه يا ابني؟".

فأجابني ضاحكًا بغيظٍ: "بطَّل لعبة تغيير الموضوع دي! ما تعملهاش معايا أنا بالذات، يا ابني أنا فاهمك عيب عليك.. عمومًا إنت عارف إن دي مسألة مبدأ بالنسبة لي، أنا هفضل شغَّال في اللي مقتنع إن له فايدة، الحمد لله مستورة ومش محتاج أكتر من اللي بكسبه".

t.me/qurssan

سيظل «سامي» شيئًا مُدهِشًا لا أفهمه بالرغم من كونهِ صديقي الوحيد تقريبًا.. أعرف عنه كل شيء، لكني لا أفهمه، وأمام عدم الفهم هذا أقف عاجزًا، كيف يتمتع إنسان بهذا الرضا في عصرٍ لا يعترف إلا بالتنافس والرغبة في جني المزيد مِن كل شيء، حتى لو لم تكن تحتاجه؟

استأذنني لدقائق وتمشَّى لمكانٍ ما، ثم عاد يمسك بكوبين من الكرتون يتصاعد الدخان ورائحة الشاي بالنعناع منهما.. أعطاني واحدًا، وجلس بالقرب مني يحتسي ما في كوبه بتلذذ.

سألته وأنا أنظر للمارةِ الذين بدأوا يزدادون تدريجيًا في الشارع مع تقدُّم ساعات الصباح: "إنت مبسوط يا سامي؟ يعني راضي باللي بتعمله وبتحققه؟".

أجابني بسرعةٍ: "الحمد لله راضي ومبسوط وحاسس إني بعمل اللي أنا مرتاح له.. بشتغل في الكتب، أكتر حاجة بحبها في الدنيا، وبقرأ، وبكتب.. وبحلم أكتب روايتي الأولى في يوم قريب.. لا وكمان بقى عندي جمهور على فيسبوك".

يبدو أنه لمح شبح ابتسامة سخريةٍ يرتسم على وجهي.. أطلق سُبَّة مازحة وأكمل حديثه:

"لا اوعى تسخر من جمهوري العريض ياض انت! صحيح هما ٥٠ لايك بس رضا.. بس طبعًا بالنسبةِ لك حاجة تضحك يا نجم".

t.me/qurssan

هززتُ رأسي وواصلت احتساء الشاي، قبل أن يبادرني بالحديث: "بُص يا يحيى أنا مش عاوزك تزعل مني، وانت عارف إنك أغلى عندي من أي حاجة، وأنا من ساعة ما انت بدأت في اللي بتعمله وأنا ما بعلقش، ولا بقول رأيي وفاصل صداقتي بيك عن شغلك اللي بتعمله على السوشيال ميديا، بس مش كفاية بقى؟ ما حنيتش للتمثيل طيب؟ مش هتحاول تمثل بجد؟

يا يحيى إنت موهبة حرام تتهدر في اللي بتعمله ده!".

قلتُ له بصيغةٍ هجومية لم أقصدها، لكنها خرجتْ مني لسببٍ لا أعلمه: "وانت يا سامي، موهبتك مش مهدورة كده؟ راجل كاتب موهوب زيك، ومثقف مش موجود منه في سننا، بتعمل إيه؟ قاعد في كشك أبوك الله يرحمه بتبيع كتب، بتكتب قصص قصيرة يقراها ٤٠ ولا ٥٠ واحد على النت!".

لمحتُ علامات الحزن تعتري وجهه، فحاولت تبرير ما قلته وواصلت بنبرة صوتٍ حاولت جعلها هادئة: "أنا مش قصدي أقلل منك.. إنت عارف إني بعزك، بس كلنا في الهوا سوا، كلنا اتظلمنا واتداس عليا بس بطرق مختلفة".

صمتنا لبُرهةٍ.. ثم قطع الصمت بسؤاله: "مش هتروح تسلِّم على أبوك؟".

أجبته بالنفي، وتعللتُ بأنني يجب أن أعود للقاهرة خلال ساعاتٍ لارتباطي بمقابلة عملٍ مع شخصٍ ما.. كنتُ أكذب عليه، فأنا غير مرتبطٍ بشيء، فقط لا أريد المزيد من الضغط النفسي

t.me/qurssan

الذي سينتج حتمًا عن مقابلتي له.

قمتُ وسلَّمت على «سامي»، ودعته على وعدٍ بلقاءٍ لا أعرف له موعدًا.. لمحتُ فتاتين في سن المراهقة يقفان في القرب، يتكلمان في همسٍ وتشير إحداهما نحوي برأسها.. خمَّنتُ بالطبع أنهما تعرفانني، فغادرتُ المكان مُسرعًا.. لا تتحمل روحي الآن المزيد من هذا الانبهار الزائف.

t.me/qurssan

(٤) التمام

أمسكتُ هاتفي، وبدأتُ في تصفُّح التعليقات على صفحتي التي تجاوز عدد متابعيها المليون عبر «انستجرام»، وبدأتُ في الرد على عددٍ قليل من التعليقات التي تجاوز عددها الخمس آلاف بقليل.. أختار دومًا التعليقات التي سيكون ردي عليها جذابًا، تُظهِر في شخصي تواضعًا أو خفة ظل، حتى لو كانت سمجة في واقعها.. اكتشفتُ مع الوقت وذيوع شهرتي أن معظم البشر يمتلكون ضعفًا خاصًا تجاه مَن يتعامل معهم بتلك اللمسة الفوقية المخفية تحت غطاء التواضع وخفة الظل، هذا التباسط المصطنع المبالغ فيه، والذي غالبًا ما يُضمر تعاليًا من صاحبه واحتقارًا لمَن يخاطبه.. والحق أنني أحتقر كل شيء؛ أحتقر ما أقدمه، والسياق الذي أقدمه من خلاله، أحتقر مُتلقينه، ومن قبلهم جميعًا ـ بالطبع ـ أحتقر نفسي.. ولا أظن أن هناك أسوأ من تعايش المرء مع ما يكره لمجرد أنه يرى أنه لا يمتلك اختيارًا أفضل، عندها يصبح التكيُّف

t.me/qurssan

انكسارًا للنفس، لذاتك الحقيقية التي تعلم أنك تمتلكها داخلك، ولا تستطيع أن تمنحها حيزًا في الواقع من حولك.

هل يتخيل أحد أنني الشاب الناجح المُحاط بملايين المتابعين والمعجبين، والمعجبات، أحيا حياة الوحدة التي أعيشها؟

وقفتُ أمام الموقد، أتأمل ذوبان البُن وفورانه البطيء المتصاعد في الكنكة الصغيرة.. واسعة هذه الشقة التي استأجرتها منذ عام، واسعة ذات أثاثٍ أنيق، ربما يطمح ملايين من الشباب الذين في مثل سني بشقةٍ مثلها، لكن هل يحلمون بحياة الوحدة التي أحياها فيها؟

حكمتُ على نفسي بمصير الوحدة هذا، لكن دون رضا، أصدرتُ الحكم باقتناع أنه أفضل الخيارات المُتاحة، أفضل طرق الشقاء المتاحة لو أردتُ الدقة.

صببتُ القهوة ونظرتُ للهاتف الذي يرن للمرةِ الثالثة على التوالي، صحيح أنني دائمًا ما أضبطه على الوضع «صامت» تجنبًا للإزعاج المتتالي، إلا أنني أتابعه بعينيّ دائمًا.. يبدو أن «عادل» قد ذاب وحان وقت اللعب معه!

ضغطت زر «الرد»، وتحدثتُ معه بلهجةٍ تعمدتُ أن تظهر اللا مبالاة فيها.. طلب مني لقاءً على وجه السرعة لأمرٍ يخص العمل في المكان الذي أحدده.. تمنَّعت قليلًا في البداية؛ لأتلذذ بتوسلاته.. حددتُ له موعدًا خلال ساعتين في أحد الكافيهات القريبة من مكان سكني. أغلقتُ المكالمة وشبح ابتسامة يتلاعب

t.me/qurssan

على شفتيّ.. لا أستطيع أن أنكر أنني أستمتع بمعاملة "عادل" بهذا القرف المتعالي كلما سمحت لي الفرصة.

أعرف سبب اتصالاته المتتالية، في الحقيقة كنتُ أنتظره في صبر الصيّاد الماهر الذي يستمتع بفعل الصيد نفسه أكثر من استمتاعه بجني غنائمه.

دخلتُ إلى الحمام بعد أن خلعت ملابسي خارجه، ابتسمتُ في سري لأنني تذكرت أن هذه التفصيلة التافهة هي إحدى المميزات الحقيقية التي نلتها من حياتي وحدي، حرية خلع الملابس في أي وقتٍ وفي أي مكان داخل الشقة.. وبينما الماء الساخن ينساب على جسدي أسفل الدُش، فجأة، داهمتني الرؤية إياها من جديد.

ذات الإحساس بالاختناق، نفس الألم يعصف بجسدي كله، كل عضلة في جسدي تتمزع كأنني في براثن الجحيم يتقاذفني في كل اتجاه.. والمسخ المُشوَّه الذي يشبهني يمد لي يدين تحملان قطعًا متساقطة من لحم وجهي، أغمض عينيَّ هروبًا منه، فيأتيني رغمًا عني متجسدًا في ذهني، كأن المشهد يُعرَض داخل دماغي.

انتهتْ النوبة وتركتني مُلقى على أرضية الحمّام، أجلس وقد وضعت يديَّ على عينيَّ أخفيهما.. وقفتُ بصعوبة، حاولت التماسك وأغلقت صنبور المياه.. جففت جسدي وارتديت ملابسي والإجهاد لا زال يلازمني.. منذ أسبوع لم تهاجمني كوابيس الصحو هذه، مرَّ أسبوع منذ عودتي من الإسكندرية، ومن قبلها زيارتي للدكتور «سلمان»، ولم يحدث شيء خلال الأيام السبعة الماضية

t.me/qurssan

حتى ظننت أنني شُفيت بشكلٍ أو بآخر.. كم تمنيت لو كنت شُفيت من هذه الحالة التي تؤرق عليَّ صحوي ونومي وحياتي كلها.

ارتديتُ ملابسي وأنا أؤكد لنفسي أن هذا الهزل لا بُدَّ له من حدٍ وحلٍ نهائي.. شبح الانتحار يلوح لي في الأفق، لكنها نهاية لا أعتقد أنها تناسبني، على الأقل لا زلت أعتقد هذا حتى الآن، لكن لو استمر الوضع على حالهِ مَن يدري، ربما أقذف بنفسي ذات مرة في لحظة يأسٍ من الدور السادس عشر، حيث أسكن في هذه البناية الأنيقة، سيكون حادثًا في منتهى الإزعاج والسُخف بالنسبةِ لجيراني ممن ينتمون للشريحةِ الأكثر ثراءً في الطبقة المتوسطة، بل إن بعضهم يمكن احتسابه على طبقة الأثرياء، فقط لو ازداد معدل سرقته قليلًا سيصل حتمًا للأعلى! وأنا شخص مسالم لا يحب إزعاج جيرانه، حتى وإن كان يحتقرهم.

لم أكن في حاجةٍ للمزيد من أسباب تعكُّر المزاج وأنا ذاهب للقاء «عادل»؛ فهو من نوعية البشر الذين لا تحتاج أن تبذل مجهودًا في علاقتك بهم كي تكرههم.. الكراهية فعل ثقيل له تكلفة على نفس صاحبها، لكنها معه تصبح تلقائية كأنها ناموس الكون الاعتيادي.. هناك الكثير من البشر الوصوليين معدومي القيم الأخلاقية، بل إنني لا أقابل غيرهم تقريبًا في السنين الأخيرة، وقد أصبحتُ منهم بدرجةٍ ما، لكن «عادل» يجمع بين الشخصية النفعية التي لا يهمها إلا مصلحتها، مع لمسةِ تَدَيُّن زائف يبدو أنه ـ بشكلٍ ما ـ يصدقه أحيانًا في نفسه! يرتكب كل الموبقات، كل

t.me/qurssan

الكذب الممكن، يقترف التدليس بأشكالهِ المتنوعة، ولا يتورع عن إيذاء أي شخصٍ ليصل لمبتغاه، لكنه لا ينسى أن يغلِّف كل هذا بإطارٍ ديني يجد لنفسه من خلاله مخرجًا في النهاية.. أصوله الريفية خلقتْ لديه حِسًا غريزيًا بالخوف تجاه أبناء المدن، ترى في نظراته ولمحاته العابرة أنه مضطرب يتوقع أن من يتعامل معه يستخف به بشكلٍ خفي، ويحاول خداعه، وتكون ردة فعله أنه يتعامل مع الجميع ليحقق منهم أكبر استفادة ممكنة، ويقدم لهم الفُتات في المقابل.. ذكي هو، لا يمكن إنكار هذا وإلا أصبحتُ أنا الغبي، لكن يمكن القول أنني أفهمه، لهذا تولّد مع الوقت بيننا إحساس متبادل بالكراهية المريحة، كراهية صافية هادئة لا يسعى طرفاها لفعل شيءٍ حيالها.

بانسيابية الثعابين التي يمتلكها، تدرَّج في المناصب حتى أصبح نائب مدير شركة الدعاية والإعلان الضخمة التي يعمل بها.. في العادة مثل هذه الشركات الكُبرى لا تتعامل مع مَن هم مثلي، إلا أنهم يلجأون لنا في أوقات الأزمات.. وهم في أزمة، عرفتُ تفاصيلها بطريقتي الخاصة، الخاصة جدًا.

مسافة قصيرة تفصل بين الكافيه الذي اخترته لإجراء المقابلة ومحل سكني، قُدت خلالها السيارة وأنا أفكر فيما يحدث لي، أعرف جيدًا ما يهاجمني في الفترة الأخيرة.. نوبات فزع.

t.me/qurssan

لستُ جاهلًا حتى لا أدرك كينونة ما يهاجمني، إلا أنني أجهل سببها، صحيح أنني لا أعتبر نفسي سعيدًا بمقاييس السعادة التي أعرفها، إلا أن العالم مليء بالتُعساء الذين يعيشون دون نوبات فزع تؤرِّق عليهم صحوهم وتحرمهم لذة النوم.. قلة النوم هذه بدأتْ تأكل في أعصابي وقدرتي على التركيز، بالإضافة إلى أنني أصبحتُ عصبيًا سهل الاستثارة، وأنا الذي كنتُ معروفًا بهدوء الأعصاب الذي يصل للبرود.

حل، لا بُدَّ من حل.

لكن الآن لديَّ معركة مهمة لا بُد من التركيز عليها.. دخلتُ الكافيه وأنا أسير بثقةٍ، مفرود الظهر كعادتي، أركز بصري أمامي، لا ألتفت لنظرات الجالسين. تعرَّف بعضهم عليَّ بالطبع، لكن في مثل هذه الأماكن باهظة الأسعار عادةً ما يقل إزعاج المُعجبين والمتابعين.

رأيته جالسًا عند المنضدةِ التي تجاور الواجهة الزجاجية للكافيه من الخارج، بعيدًا عن الزحام.. بالطبع حجزها قبل أن يصل.

تقدَّمتُ إليه وصافحته بابتسامةٍ تعمدتُ أن تبدو مصطنعة، أمقت حضوره بالفعل، لا يحتاج الأمر مجهودًا لأبدي تقززه منه.

بدأ في حديثٍ طويل سخيف، معظمه نميمة عن أهل الوسط، حكايات أعرف أن معظمها كذب، إذا لم يكذب «عادل» فمن سيكذب إذًا؟

t.me/qurssan

أخرجتُ هاتفي وبدأت في تقليب عشوائي، أريده أن يدخل في الموضوع مباشرة، أعرف ما يريد لكني لن أكشف ورقي مُبكرًا.. هيًا يا ثعباني السخيف، أفصح!

أصابع يديه تتحركان بعصبيةٍ على طرف الطاولة، يبدو أن التوتُّر بدأ يتسرب إليه بفعل لا مبالاتي تجاه حديثه، بالإضافة إلى أنه مضطر أن يتعامل معي بتوددٍ لأنه يحتاجني.

وضع كفيه مفرودتين على الطاولةِ أمامه مسترخيًا أخيرًا، يبدو أنه سيبدأ الحديث الأصلي الذي أتى من أجله.

قال بصوته الذي لا أحب نبرته:

"عشان ما اعطلكش يا صديقي أكتر من كده، أنا مقدَّر طبعًا إنك أكيد مشغول ومش فاضي لي لوحدي يعني، أنا جاي أعرض عليك شغل.. الشركة بتاعتي تعاقدتْ مع شركة مستوردة لشوية سماعات وباور بانك وإكسسوارات موبايل من الصين، أول مرة تنزل مصر، وطبعًا عايزينا إحنا اللي نسوق لها على السوشيال ميديا.. وطلبوا مننا بالاسم التعاقد معاك؛ عشان تبقى جزء من ضمن خطتنا الكبيرة.. إيه طلباتك يا نجم؟".

وضعتُ الموبايل على المنضدة، وابتسمت بجانب فمي، كعادتي عندما أجبر نفسي على الابتسام، وقلت له بثباتٍ: "متأكد إنهم طلبوني بالاسم؟".

t.me/qurssan

فقال بثباتٍ كذوب: "آه طبعًا، هكذب عليك ليه؟ وبعدين أنا جاي أعرض عليك شغل بفلوس يا يحيى، مش جاي أطلّع منك مصلحة ولا بقول لك اديني عمولة".

نظرتُ حولي وقلتُ له بهدوءٍ وأنا أضغط على حروفي: مشكلتك معايا يا عادل إنك من الأذكيا اللي بيشوفوا غيرهم أغبيا وسهل يتلعب بيهم، مع إنك اتعرضت معايا لكذا موقف قبل كدا المفروض علموك إني مش من النوع اللي يتلعب به بسهولة.. السوق دا صغير يا عادل، على قد ما يبان كبير، على قد ما هو صغير أوي في حقيقته.. حدوتة الشركة بتاعتك دي أنا عارفها كويس أوي، وعارف هما ليه بيشخشخوا جيبهم كدا وعايزين يعملوا حملة دعاية ضخمة.. طبعًا، البضاعة لازم تتصرَّف بسرعة قبل ما الحقيقة تتكشف بالوقت".

ثم ركزتُ بصري على وجهه، مستمتعًا بامتقاع ملامحه، بدا هشًا وهو يجلس قلقًا والعرق يغطي جبهته هكذا.. أكملتُ حديثي بنفس الهدوء:

"البضاعة أصلها طلعت بايظة وملیانة عيوب، الشاحن بيضرب بعد كام أسبوع، والباور بانك ممكن يعمل قفلة مع الموبايل وهو بيشحنه ويحرق البوردة بتاعته كلها! والصفقة تمت، وخلاص لبسوها ولازم تتصرَّف بسرعة.. بُص يا عادل، عشان مضيعش وقتك، أنا عندي حل للمشكلة دي.. وحلّك معايا أنا بس.. إنت هتكلم البهوات بتوع الشركة دول وتقول لهم إني عاوز ١٥٠ ألف

t.me/qurssan

جنيه، وهخلص لهم بضاعتهم دي في أسبوع.. آه التمن كبير بس هما في مصيبة ولازم يدفعوا التمن كويس، أنا كمان هخاطر، بس المخاطرة هتبقى محسوبة.. لو وافقوا على الفلوس اللي طلبتها، قول لهم إنهم لازم يشتروا كمية من كل حاجة هعرضها لهم عندي للناس، كمية من بضاعة كويسة وتستاهل تمنها مش من اللي بتفرقع وهي محطوطة على الكهربا دي يا عادل ها! البضاعة دي هتتباع للناس اللي هيشتروا في أول يومين، عشان ما حدش يعمل لنا صُداع واحنا شغالين ع الحملة، كمان يمكن يجيلنا كام رسالة من اللي هيشتروا البضاعة الكويسة بتاعة أول يومين، بيشكروا في اللي اشتروه.. هنا بقى هتبدأ البضاعة إياها تطلع لصحاب النصيب، الله يكون في عونهم".

أحب نظرة الاستسلام في عيون أعدائي، أشعر بقلبي يرقص في تجويف صدري وأنا أطالع هذه النظرة المنكسرة في عينيه الآن.

نظر لي وقد زال تعبير الطيبة والتسامح الكاذب الذي يغطي به ملامحه دومًا، وقال بصوتٍ أجش بسبب جفاف حلقه: "طبعًا لو قلت لك عرفت اللي عرفته دا ازاي مش هتقول لي.. بس دا مش موضوعنا، إنت إزاي مقتنع إنهم هيوافقوا بالمبلغ اللي انت عايزه ده؟ دا غير إن الشركة بتاعتي كمان ممكن ترفض، اللي انت طالبه دا هيخلي هامش العمولة بتاعنا يقل جدًّا، حتى بالنسبة للشغل اللي هنعمله للحملة بعيد عنك، الشركة المستورِدة مش هترضى تدفع لنا إلا فتافيت".

t.me/qurssan

فتحتُ زجاجة المياه الموضوعة أمامي، وتناولت القليل منها قبل أن أرد عليه وأنا أمسك هاتفي من جديد: "عشان أنا رقم واحد دلوقتي في مصر، وهعمل لكم اللي ما حدش يقدر يعمله غيري، وكل حاجة ليها تمن، دا أولًا، ثانيا أنا زي ما عرفت اللي عرفته، أقدر أحكيه لناس كتير من الوسط الجميل بتاعنا، وانت عارف طبعًا وسطنا.. كلنا كدا عاملين زي شجرة العصافير، شجرة ما بتخلاش من الزقزقة ونقل الحواديت.. والحدوتة تفضل تكبر تكبر، ويمكن ماتلاقيش واحد يوافق يعمل للإكسسوارات الخُردة دي إعلان واحد عنده".

وضعتُ هاتفي في جيبي، وقمت فجأة وأنا أنظر بتركيزٍ في ساعتي، ومددتُ يدي لـ «عادل» وأنا أقول: "هستأذنك عشان عندي ميعاد.. هستنى ردكم بُكرة».

وضغطتُ على يده بقوة، ومشيتُ خارجًا من الكافيه الأنيق، مبتسمًا في انتصار، وأنا أتخيل ملامح وجه «عادل» وقد كستها الحسرة حتمًا.. وللحق شعرت حينها أنها المرة الأولى ـ منذ فترةٍ طالتْ ـ التي أشعر فيها بمثل هذه النشوى.

t.me/qurssan

(٥) التمام

في حياتي الجديدة، لم أعد أعرف طعم المُتعة الحقيقي إلا من خلال موقف يُمثِل لي انتصارًا على شخصٍ أمقته مثل «عادل».. وهذا يعطي انطباعًا صادقًا عن تلك الحياة التي اخترتها وأصبحتُ ـ بالتدريج ـ جزءًا منها وأحد أهم أبطالها وأكثرهم شُهرة، حياة تتضاءل فيها احتمالية إحساس المرء بالسعادة الشخصية إلا من خلال خوض مثل هذه المعارك المستترة الرخيصة، معارك تكتسب رُخصها من سببها وسياقها ذاته، ومن خصومها أيضًا.

لا أحاول التفكير في مثل هذه الأمور كثيرًا؛ حتى لا أنسحب لدوَّامة الاكتئاب التي أشعر بها تشدني نحوها بشغفٍ وتصميم.

أحاول شغل نفسي دومًا، وهل هناك تسليَّة أعظم من الصيد؟

رياضة الصبر وإخضاع التوتُّر، والتعامل مع الواقع بعوامله الحقيقية، ومحاولة إخضاعها لرغبة الصيّاد.

t.me/qurssan

جلستُ في السيارة بعد خروجي منتصرًا من مقابلتي مع «عادل»، وأخرجتُ الموبايل، ورددت على رسالة الهدف الجديد، صيدي الثمين الذي أُعدُّه على نار هادئة بتأن.. صيد مغرٍ هي بالنسبة لي، فهي تنتمي بالضبط لنوعي المفضل من الفتيات اللاتي أهوى ملاعبتهن، تنتمي لطبقة الأثرياء بالطبع، عقلية شبه طفولية لكنها تظن في نفسها نُضجًا وجاذبية لا حدود لهما، جميلة شكلًا هي بالفعل، لكن روحها خربة، لم يُكلِفني الأمر أكثر من محادثة تليفونية لم تتجاوز النصف ساعة حتى تأكدتُ من هذا.. تتقرب لي وتتودد بما تظنه ذكاء، فتحاول إبهاري بكل الأشكال الممكنة، مرة بمالها، من خلال إغراقي بصور الأماكن باهظة التكلفة التي ترتادها يوميًا، وتارة أخرى بجمالها ومفاتنها، من خلال صور تبدو عفوية، لكن وضعيات التقاطها لا تحمل من البراءة شيئًا.. وعندما تيأس تبدأ في إظهار ما تظنه مُعبرًا عن ثقافتها الواسعة، وهو في الحقيقة ما هو إلا مُجرد قشور تُشعِرها بأنها الفتاة التي جمعتْ بين كل شيء؛ فأصبحت تستحق أن تكون حُلم كل رجل.

وغالبًا تطمح ـ كغيرها من نفس العيِّنة ـ أن تكون حُلمي أنا، فتاتي، الفتاة التي ستحوز «نجم السوشيال ميديا» الأعزب ذو الطلّة الفاتنة، والشخصية الغامضة الجذّابة؛ لتُثبت لنفسها، وللفتيات الأخريات من قبل نفسها، أنها الأجمل، الأجدر بأكثر الشباب نجاحًا ووسامة في نظرهن، فالأمر في حقيقته غالبًا ما يكون تنافسًا بين النساء، والرجل مجرد جائزة تحوزها من تُثبت

t.me/qurssan

للباقيات أنها الأفضل.

عادةً ما يبدأ الأمر برسالةٍ ضمن مئات الرسائل، وأحيانًا الآلاف التي أتلقاها يوميًا عبر المنصات المختلفة.. أصبح الأمر بتكراره محفوظًا ومتكررًا حتى في معظم تفاصيله.. تحرص صاحبة الرسالة أن تخاطبني ببساطة، تتعمد أن تُظهِر عدم انبهارها بشخصية النجم التي أُصدِّرها للجميع، تحاول إشعاري أنها فقط تخاطب الإنسان اللطيف بداخلي، أحيانًا تحمل الرسالة استفسارًا ما حول شيءٍ تافه، أحيانًا ترغب في الفضفضة عن أزمةٍ وهمية تمر بها، وتخبرني كيف أنها تظن في شخصي رجلًا تثق به وترغب في أن تستشيره، والحقيقة أنها ترغب في صيده.. لا أرى الأمر إلا كلعبة بين شخصين آثمين، يظن كل منهما أنه في موقع الصيَّاد.

عندما ألتقط الخيط، وأعرف أنني وجدت فتاتي الجديدة، أبدأ في تمثيل دور الضحية الغافلة، أتظاهر بالتقاط الطُعم، وأبدأ في إشعارها أنها نجحتْ نسبيًا في تحقيق هدفها، ثم أبدأ في منحها مساحة تدريجية من يومي.. ومن ثَمَّ نبدأ اللعب الحقيقي.. أهجرها، لا أرد على اتصالاتها ورسائلها لأيام، وأتركها لوحش الحيرة ينهش خلايا عقلها، لتلعب بها الاحتمالات، ثم أظهر لأرد بعصبية، أوبِّخها، وأتعمد أن أظهر على عكس الصورة التي أظهرتها لها في البداية، وربما أغلق الهاتف في وجهها.. ثم أعود للظهور، وأبرر ما فعلت، دون انكسار لكن بحزنٍ وغموض؛ لأحافظ على انبهارها بتركيبتي الغامضة «الفاتنة»، الصيَّاد لا يمكن أن يبدو

t.me/qurssan

ضعيفًا أمام صيده مهما حدث، حتى وهو يعتذر، وبعدها نبدأ مراحل الاستنزاف النفسي تدريجيًا للصيد الغافل.

كنتُ في تلك اللحظة وأنا في السيارة عند درجة متقدمة من مراحل التلاعب والاستنزاف النفسي اللذين أصبحتُ مُتقِنهما من فرط ما مارستهما.. بالتحديد عند المرحلة التي أبدأ التحكم في تصرفاتها تدريجيًا، أجبرها، دون أن أُبدي الإجبار في حديثي أبدًا، أن تتصرف في كل شيء في حياتها التعيسة الخاوية كما أهوى.. حتى ملابسها؛ أبدأ في التحكم في ما ترتدي وما لا ترتدي، وهي تنصاع بانصياعٍ رغبةً في كسب ودي وولائي الكامل، كما تظن.. تطلب مقابلتيَ، فأتمنع، فمقابلة «الحاوي» ليستْ سهلة.. هي مقابلة واحدة لا تُنسى أبدًا.

أغلقتُ الموبايل بعد أن بعثتُ لها برسالة أوبِّخها لعدم طاعتها لي في تفصيلة تافهة، كنت قد أخبرتها ألا تفعلها، كأنني أهتم لحياتها الرديئة.. هذه اللعبة لا تخيب أبدًا؛ فهذا التحكم وإن بدا بغيضًا؛ فإنه يُشعِر هذا النوع من الفتيات كم صارتْ مهمة بالنسبةِ لي، فتبدأ رغبتها في الفوز بي تشتعل داخلها أكثر فأكثر.

ابتسمتُ وأنا أقود سيارتي مُتخيلًا حالها الآن، سأفتح الهاتف غالبًا لأجد عشرات الرسائل النصية تخبرني عن محاولاتها للاتصال بي، بالإضافة لما سترسله هي نفسها من عبارات التودد والاعتذار، وتظل ممسكة بهاتفها في ترقُّب وحزن، تنتظر أن أظهر لتستجدي رضائي عنها، فأقرِّبها أكثر.

t.me/qurssan

كانتْ هذه هي الأفكار التي تشغل ذهني حينها، فلماذا هاجمتني النوبة من جديد؟

كانتْ المرة الأولى التي تهاجمني في السيارة، بل أثناء القيادة وفي شارع مزدحم.. نفس التفاصيل تقريبًا، نفس الإحساس بالاختناق، وكل عضلة في جسدي يعصف بها الألم، هناك شيء ثقيل يجثم تدريجيًا على تكويني كله، والوجه، ذات الوجه المُشوَّه ذو اللحم المتساقط، ها هو يطالعني بعينيه الحزينتين عبر زجاج السيارة الأمامي، أعرف ملامحه جيدًا، أراها في المرآة دومًا، يحمل ملامحي بأبشع أشكال التشوُّه، والحُزن.

أوقفتُ السيارة بصعوبةٍ على جانب الطريق، لم أكن أعرف كيف قُدتها أثناء كابوس الصحو، بدا أنني نجوت من الموت بأعجوبةٍ ما.. انصرفتْ النوبة، ومعها انصرف وجهي المُشوَّه الذي صار يطاردني في كل مكان، وتركتني ملقى على مقعد السيارة، وجسدي ينز عرقًا كأنني كنت أجري تحت شمس أغسطس.

بدا الموت حينها أقرب لي من أيةِ لحظة مررتُ بها في حياتي.. بأيةِ طريقة لا تفرق، أموت أثناء مهاجمة النوبة لي في ظروف غير ملائمة كقيادة سيارة، أو أذهب للموت برغبتي لأتخلص من حياة العذاب هذه.

استجمعتُ شتات نفسي، وأمسكت الموبايل، وفتحت تطبيق «الإيميل» وراسلت دكتور «سلمان»، أستأذنه أن أزوره في الوقت الذي يحدده هو.

t.me/qurssan

ماذا سأخسر؟ ما الحد الأقصى للخسارة التي يمكن أن تصيبني؟

الخسارة الواردة سيكون هدفها الرئيسي أن يكون دكتور «سلمان» مُجرد معدوم ضميرٍ يبيع أسرار عملائه لمَن يدفع أكثر.. هو يريدني أن أتعرى أمامه من الأكاذيب، وبالتأكيد سيكون مطلوبًا مني أن أقص عليه بعضًا من تاريخي الشخصي، والكثير مما أعاصره في عملي حاليًا.

هل هذا يُعد مدعاة للخوف؟

بالطبع يدعو للكثير من الخوف؛ الخوف من سلسلةٍ من الفضائح قادرة على أن تُنهي وجودي في هذا العالم الوهمي خلال ساعات، وربما أيام على الأكثر.. لكن ما يطمئنني في الأمر أنني أُعد أبسط زبائنه أمرًا وأهونهم شأنًا.. للرجل زبائن من صفوة المجتمع، الكبار الذين يمتلكون تاريخًا وحاضرًا كبيرًا من الفضائح والآثام، وبالتأكيد تفوق أضعاف ما اقترفته أنا.. مَن دلّني عليه رفض أن يُفصِح لي ولو عن اسم واحد من زبائنه، كان يرتعد وهو يردد بعد إلحاحي وضغطي عليهِ: "دي أمور ما فيهاش هزار، اسم واحد من دول لو عرف إن أنا اللي قلت لحد إنه بيتعالج عند دكتور نفسي، يقدر يبعتني أنا وكل اللي يعزّ عليا مشوار ما نرجعش منه، مشوار لجهنم بتاعة الدنيا".

t.me/qurssan

المعطيات تدعوني لعدم الخوف، لكن منذ متى وأنا أحس بالأمان تجاه أي شخص؟ لم أعرف طعم هذا الإحساس الخالص منذ سنين، بل أحيا بإحساسٍ عارم بالترقُّب والحذر كامنين تحت جلدي، يحلل ويفند مواقف وحديث كل مَن أتعامل معاه، أتوقع الغدر من أي شخص، ولا ألوم نفسي على إحساسي هذا، فمَن مَرَّ بما مررتُ به يصير أبسط حقوقه أن يخاف.

بينما أنا واقف أشرب من زجاجة مياه كبيرة اشتريتها من أحد الأكشاك الصغيرة على جانب الطريق، جاءني ردُّه سريعًا عبر الإيميل، بعد ١٠ دقائق تقريبًا من رسالتي له. "تعالى دلوقتي لو تحب.. منتظرك".

يبدو أنها ستكون ليلة طويلة.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(٦) التمام

ضغط على يدي بقوةٍ أثناء سلامه عليَّ وهو يفتح باب الشقةِ إلى آخره، ثم يتنحى جانبًا مُفسحًا الطريق.. دون أن أنطق بأي شيء، أخرجت الموبايل من جيب بنطالي، وأغلقته، ووضعته في الباسكت الموضوع على المنضدة جوار الباب.. اتسعت ابتسامته وهو يشاهدني أفعل هذا، كأنه قرأ من خلاله أنني جئتُ إليه اليوم بقناعة تختلف، لقد وافقت أن ألعب بقواعده دون نقاش، دون مخاوف، أو على الأقل سأحاول أن يكون بلا مخاوف.

كان يرتدي بنطلونًا من الجينز الأسود، وبلوفر كُحلي، وعلى عينيه نفس العوينات الغامقة التي تغطي نظراته تمامًا.. تأملته لثوانٍ، يبدو في منتصف الثلاثينات ربما، فهناك شعيرات بيضاء خفيفة نابتة في ذقنه.. من اعتنائه الدائم بمظهره، وترتيب الأثاث الصارم في الشقة، يبدو شخصًا منظمًا، من النوع الرتيب الذي لا يُغيِّر من نفسه أو من حوله، ولا يقبل بالفوضى.. كل شيءٍ موضوع

t.me/qurssan

في مكانه، ومتناسق شكلًا ولونًا وحجمًا مع ما يجاوره.

تقدمني للمطبخ، ودعاني أن ألحق به بإشارةٍ ودودة من يده اليُمنى.. ثم التفت ليسألني: "الوقت متأخر، هتشرب قهوة بردو ولا أعمل لك حاجة تانية؟".

فأخبرته شاكرًا أنني أريد قهوة بالفعل، وأنني تقريبًا لا أشرب غيرها منذ عدة سنوات.. وبينما يقلب القهوة في الكنكة الصغيرة على الموقد، سألني دون أن ينظر لي: "دي قهوتك الكام النهاردة؟".

فأخبرته وأنا أتأمل ترتيب الأشياء الدقيق في المطبخ: "السابعة".

ليرد فورًا بلهجةٍ مستنكرة، في اللحظة التي رفع فيها الكنكة من فوق النار قبل أن تنسكب القهوة خارجها: "لأ كتير أوي!".

ناولني الفنجان مبتسمًا وهو ينظر لعينيَّ، أشعر بنظراته وإن اختفت عيناه خلف العدسات الغامقة، أشعر بها تخترق ما تحت جلدي.. همستُ ساخرًا: "كلامك دا بيفكرني بأبويا.. أنا عِشت سنين في خناقة شرب القهوة الكتير دي!".

دخلنا حجرة المكتب، وجلسنا متقابلين أمام المكتب، وظلَّ صامتًا قرابة دقيقة بينما أتناول رشفات القهوة الأولى.. أشهد له بإتقان صنعها بعيدًا عن أي شيء.

t.me/qurssan

عقد يديه أمامه وانحنى مُقتربًا مني ليقول: "كويس إنك قررت تيجي قبل الأسبوع اللي قلت لك عليه ما يخلص.. أنا حابب أسمعك، وطالما جيت يبقى أكيد قررت إنك تفتح لي قلبك وتحكي".

ثم أكمل حديثه، وقاد مال بجزعهِ للوراء وهو ينظر لي بتمعُّنٍ: "بالمناسبة دي تاني مرة تذكر سيرة والدك في كلامك معايا.. ما تيجي نبدأ بيه.. احكي لي عنه".

فسألته والترقَب قد بدأ يسيطر عليَّ رُغمًا عني: أحكي لك عنه من أنهي زاوية بالظبط؟ يعني عشان أعرف أحدد إنت محتاج تسمع مني إيه".

ليرد بوجه انبسطت ملامحه: "احكي اللي إنت عاوز تحكيه، براحتك تمامًا، احكي عن شخصيته أو علاقتك بيه، براحتك خالص".

الخوف يجتاحني، أشعر به يسيطر على كياني كله، الخوف من البوح، هل أنا قادر بالفعل على فتح قلبي لشخصٍ لا أعرفه حتى ولو جمعتنا علاقة مهنية؟ أخذت ساقي اليُمنى تهتز بعنفٍ رُغمًا عني؛ فأمسكتها بقبضة يدي بعنفٍ لتتوقف.

أخذتُ نفسًا عميقًا، ووضعت الفنجان أمامي على الطاولة، وبدأت أحكي.

t.me/qurssan

لماذا ينظر لي أبي بكل هذا الحزن؟

لن تكون المرة الأخيرة التي سأسأل فيها نفسي هذا السؤال الذي سيطاردني لسنوات، لكنها كانت المرة الأولى وقتها.. كنتُ طفلًا صغيرًا، عمري سبع أو ثمان سنوات، لا أذكر بدقة الآن، لكنني أتذكرني واقفًا في منتصف صالون شقتنا، أمي تجلس أمامي على الكرسي العريض، وأبي إلى يسارها مستقر على كرسيه الأثير، وعلى الكنبة يجلس ثلاث نساء من أقارب أمي، وأنا مندمج في تقليد شخصياتٍ من أقاربنا الذين كانوا يزوروننا بين حينٍ وآخر، والجميع منطلقون في الضحك، ووجه أمي المستدير الجميل ذو الحسنة المميزة فوق خدها الأيمن احمرَّ من شدة الضحك، ووجوه النساء قريباتها مبتهجة بالضحك والقهقهة العالية.. كنتُ بارعًا في تقليد أي شخص، يكفيني فقط أن أراقبه بضع دقائق حتى أتقن طريقة مشيته، وكيف يجلس ويتكلم، كيف يبدو صوته في العُلو، بصوتي الطفولي كنتُ أقترب من نبرات أصوات الكبار الذين أقلدهم.. كنتُ بارعًا بالنسبةِ لطفلٍ في سني حينها، خصوصًا في التقاط التفاصيل التي تُميِّز كل شخصية أقلدها، مثل الطريقة التي يأكل بها عمو «فُلان» المحشي الذي تُعدِه أمي له عندما يأتي لزيارتنا، والطريقة التي تسير بها طنط «فُلانة» المعروفة بالاعتزاز الشديد بالنفس، وكيف تسير وهي ترفع أنفها وذقنها للأعلى في تعالٍ كوميدي؛ حتى تكاد لا ترى ما أمام قدميها على الأرض.

الكل يضحك ويقهقه، وحده أبي كان يتابعني بحزنٍ وحذر.

t.me/qurssan

أحيانًا كان يضحك مع الضيوف على سبيل المجاملة، وسُرعان ما كان الحزن والقلق يغطيان ملامحه من جديد.. حتى وصل به الأمر مرة أن قام ليوبخني بعنف، بلا أي سببٍ تقريبًا، فجأة ثار وصرخ في بأنه يكفيني ما أفعل، وأنني بهذه الشقاوة أزعج ضيوفنا.. حاولتْ أمي امتصاص التوتُّر الذي سيطر على الموقف، قامت واحتضنتني بشدةٍ وأخرجتني من الصالون بهدوء، بين نظرات الدهشة في عيون ضيوفنا، الذين أخذوا يؤكدون لأبي أنهم لم ينزعجوا أبدًا مما كنت أفعل، على العكس وجدوا فيما كنتُ أقدم كوميديا حقيقية انتزعت الضحكات من قلوبهم المُثقلة بهموم الحياة.

ما تزال الذكرى محفورة في ذهني وأنا أطالع نظرات أبي الغاضبة تجاهي وأمي تحتضني وتسير بي خارج حجرة الصالون، كان في عيني دمعة محبوسة، وفي حلقي غُصَة وإحساس بالظلم.. لم أرتكب شيئًا يستحق كل هذه الثورة.

نشأتُ طفلًا وحيدًا في بيتٍ مستقر هادئ، أسرة مثالية عندما تطالعها من الخارج، ولا يمكنني أبدًا أن أقول أنني نشأت في ظروفٍ قاسية أو غير طبيعية، بالعكس، كان أبواي مثالًا يُحتذى بهما في معظم تصرفاتهما معي خلال سنين تربيتي.. كنتُ ميالًا للهدوء، وتأمُّل الأشياء من حولي.. وساهم في هذا نشأتي وحيدًا دون إخوة، واللهو في الشارع ممنوع طبعًا، ولقد كان هذا واحدًا من أسباب قليلة للصدام مع أبي في سنين طفولتي الأولى.. كنتُ

t.me/qurssan

أراقب الأطفال من الشباك المُطِل على الشارع، أتابع لعبهم بالكرة، وسباقات الجري الساذجة التي يخوضونها سويًا، حتى عراكهم الذي كان ينشب بينهم كنت أراقبه، وعمَّقت طقوس المراقبة هذه من إحساسي بالوحدة.. إحساس أصيل سيلازمني لسنين طويلة فيما بعد.

متفوقًا كنتُ في سنين الدراسة المُبكرة.. لم أجد صعوبة في تحصيل المواد أبدًا، وساهم في هذا فراغ حياتي من أي شيءٍ قد يشغل تفكيري أو يشتت عقلي.. لكن أزمتي في طفولتي هي انعدام قدرتي تقريبًا على تكوين أصدقاء بمعنى الصداقة الحقيقي الذي يعيشه أبناء هذه المرحلة العُمرية.. كنتُ أدرس في مدرسة حكومية، لكن ملابسي كانت دومًا نظيفة أكثر من اللازم، مُهندمة ومكوية دومًا حتى في أيام المطر العنيف، كنتُ أرى الاستغراب في عيون زملائي في الفصل، وأحيانًا في عيون المُعلمين؛ فقد بدا اهتمام أبواي الزائد بي واضحًا دون احتياج الأمر للتدقيق.

لكني كنتُ أحب أبي بصدق.. لم أكن بارعًا في التعبير عن هذا الحب، لطباعي التي تميل للخجل بشكلٍ عام، إلا أنني كنتُ أجده أبًا لا يحرمني من أي شيءٍ في استطاعتهِ أن يُحضِره لي، كان دومًا موجودًا بشكلٍ ما، حضوره كثيف وطاغ في كل تفاصيل حياتنا، متحمل لكل المسئوليات حتى ما لا يخصه مثل تنظيف السجاجيد أو إصلاح صنبور مياه مكسور، حتى جلساته مع أصدقائه في المقهى القريب من منزلنا كانت بمواعيد ثابتة لا تتغير إلا نادرًا،

t.me/qurssan

ولا تتجاوز في أقصاها يومين في كل أسبوع.

المهندس «مصطفى سالم» الموظف بهيئة المساحة.. هكذا سَمعته يُعرِّف نفسه يومًا ما لأحد الغُرباء الذين قابلناهم في مكانٍ ما لا أذكره، لكني أتذكر نبرة صوته القوية، التي تحمل من اللباقة ما يعادلها من الرجولة، نبرة واثقة ذات مخارج حروف قوية لرجلٍ يبدو أنه يعرف ما يريد.

لكن هل كان أبي بالفعل يعرف ما يريد في حياته، وحياتنا أنا وأمي التي خططها لنا؟

ولماذا كان ينظر لي بكل هذا الحزن؟

بعد حادثة تعنيفه لي بحِدَّة أمام الضيوف، بدأتُ أنشغل بمراقبتهِ دون أن يحس.. أراقبه في اللحظات التي ينفرد فيها بنفسهِ ويظنني مشغولًا عنه بالمذاكرة أو بمشاهدة برامج التليفزيون.. لأبي شخصية آسرة متحدثة، مغناطيس جاذب لكل مَن يعرفه أو يحادثه حتى بالصدفة.. كنتُ أعرف عنه هذا كغيري، لكن بتأمله، وحتى بالنسبةِ لحدود إدراكي في سني المبكرة تلك، بدأتُ ألاحظ أن وجهه يصير ميالًا للحزنِ بشدة بمجرد أن يختلي بنفسه.. يجلس ليدخن على المنضدة الموضوعة قرب باب الشُرفة، فأراقب وجهه، لأجده غارقًا في بحر أفكارٍ يبدو أن البهجة فيه شحيحة للغاية.

تزداد حيرتي بخصوصه.

t.me/qurssan

أبي رسَّام ماهر.. كنتُ أعرف هذا من اللوحةِ التي رسمها لأمي، الموضوعة في غرفة نومهما، لوحة مُتقنة لن تخرج بتفاصيل وجه أمي كأنه ينبض إلا إذا كانت صنيعة رجلٍ يعرف ما يفعله جيدًا.. فلماذا لا يرسم أبي أمامي أبدًا؟

خلال بعض الأمسيات، كنتُ أرى أبي وهو يدخل غرفة مكتبه، ويغلقها خلفه بالمفتاح في هدوء.. الغرفة المغلقة دومًا والمفتاح لا يفارق جيب بيجامته وهو في المنزل.. الغرفة شبه المُحرَّمة عليَّ.. لا أراها إلا من خلال فُرجة الباب خلال دخوله وخروجه منها، أرى المكتب الأنيق الموضوع في مواجهة الباب، وعلى يساره رفوف مكتبة ضخمة مليئة بالكتب حتى تكاد تصل لسقف الغرفة.. في إحدى المرَّات تعمدت أن أدق عليه الباب وهو بداخل غرفة المكتب المحرمة، اختلقتُ سببًا وهميًا لا أذكره، لأطالع باقي تفاصيل الغرفة من وراء جسده.. كان هناك مسند خشبي، تستند عليه لوحة ورقية، وبعض ضربات الألوان ترتسم فوق اللوحة، أبي يرسم! هذا ما اكتشفته يومها، لكن أين تذهب لوحاته؟ ولماذا يرسم في السر ويتعمد ألا أشاهده كأنه يرتكب جريمة؟

كنتُ مُتعلقًا بأمي بشدة، فكان ذهابي لها وطرح ما يتبادر لذهني من أسئلة هو أكثر الأفعال منطقية بالنسبة لي وقتها.. جذبتها من جلبابها حيث وقفت في مطبخ شقتنا الضيق نسبيًا، فمسحتْ العرق النابت على مقدمة جبهتها، ونظرت لي بعينيها العسليتين

t.me/qurssan

الأخاذتين اللتين سأظل أبحث عنهما في كل الفتيات فيما بعد، أسألها، أطرح أمامها تساؤلات تؤرقني حول أبي وتصرفاته وغرفة المكتب المغلقة دومًا، فتقول لي باقتضاب: "هو كدا مستريح أكتر.. هو بيحب يبقى لوحده وهو في المكتب يا حبيبي.. متضايقش بابا وسيبه على راحته، دا هي ساعة ولا ساعة ونص بالكتير بيقعدهم جوه، ويرجع يقعد معانا تاني.. سيبه على راحته يا يحيى".

لكن منذ متى يخضع الأطفال لمثل هذه التفسيرات المقتضبة؟

عدة أيام قضيتها بين أروقة الحيرة كانت كافية كي أحسم قراري.. سوف أقتحم غرفة المكتب المُحرَّمة خلال الساعة التي ينامها أبي بعد تناول طعام الغداء.

كان جسدي الصغير يرتعد وأنا أتسلل بخفةٍ إلى غرفة أبي وهو نائم وأمي بجواره، وقد علا صوت تنفسهما المنتظم.. مددتُ أصابعي بخفة لجيب البيجامة المُعلَّقة على الشمَّاعة، ها هو المفتاح، أحكمتُ قبضتي عليه وخرجت.

ذهبت إلى باب المكتب، أدخلت المفتاح، وأدرته، انفتح الباب مُحدثًا صريرًا مثل جميع الأبواب الموجودة في شقتنا.

دخلت إلى غرفة المكتب الواسعة كمعظم غرف شقتنا، ولم أشغل الضوء الكهربائي؛ خوفًا من استيقاظٍ مفاجئ لأبي.. أخذتُ أتأمل الموجودات على ضوء المصباح الآتي من الطُرقة القريبة..

t.me/qurssan

على الحامل الخشبي لوحة قاربتْ على الاكتمال لرجلٍ يسير وحيدًا في شارع مزدحم، يحيطه بشر بلا ملامح، وجوههم تبدو مجرد غلوشةٍ كأنها بث تليفزيوني مُشوَّش، وجهه وحده واضح، لكن رأسه مُنكَّسة في انهزام، وعلى وجهه ملامح حُزن مكتمل.

استدرتُ أتأمل المكتبة التي لم يُسمَح لي بالاقتراب منها أبدًا إلى هذا الحد وتأملها، أخذتُ أتأمل عناوين الكتب، معظمها صعب لا أستوعبه، ألمح كتاب وُضع في موضع قريب من ارتفاع رأسي، مكتوب على كعبه ذي الحجم المتوسِّط: «الحرافيش- نجيب محفوظ»، وهناك مجموعةٍ من المجلدات الضخمة، التي رُصَّت جنب بعضها البعض، لتشكِّل بإطارها الجانبي العريض كلمة مكتوبة بخط قرأته بصعوبة بالغة: «الأغاني لـ الأصفهاني».

شعرتُ بسعادة لحظية لأنني استطعتُ أن أقرأ المكتوب عليها، رغم التفاف الخط حول نفسه.. زالتْ السعادة فجأة بالضوء الذي عمَّ الغرفة فجأة، ووجه أبي الغاضب يطالعني من زاوية عُلوية، وقبضته تعتصر ذراعيَ وتجرني جرًا خارج الغرفة، كنتُ مذعورًا تمامًا، أخرسني الخوف ولم أنطق بأيةِ كلمة، لم أحاول حتى تبرير فعلتي، أذكر قبضته القوية تهز جسدي وهو يهددني إذا ما خالفت أوامره مرة أخرى، وأمي تخرج مفزوعة من غرفة النوم، ترتمي بجانبي وتحتضني وتنهر أبي، يُعنِّفها هي الأخرى أنها تريد أن تفسدني بتدليلها الزائد، وأنني سرقت المفتاح من بيجامته المعلقة: "لو سكت عليه لما يسرق المفتاح دلوقتي من جيبي، هيسرق إيه

t.me/qurssan

..ـه. كده؟!"

ثم انحنى أبي أمامي، وصارت عيناه في مواجهتي وجسدي ..نفض بين ذراعي أمي، ثم قال ضاغطًا على حروفه بطريقته المميزة: "لو عملت كدا تاني يا يحيى، هتتعاقب عقاب عمرك ..ا هتنساه".

وتركني أرتعد من الخوف، ماذا ارتكبت حتى أستحق كل ..هذه العصبية والتهديد؟

وهل ما لمحته في نظراته لي وهو يهددني كان غضبًا، أم حزنًا ..حاول التخفي في ملامح الغضب؟

كان الدكتور "سلمان" يُحدِّق بي في ثباتٍ وأنا أحكي.. لم ..ر على وجهه أي تعبيرات، ولم يكن يقاطعني، بل اكتفى بأن يهز ..أسه أحيانًا، أو يستفهم عن شيءٍ بسيط بشكلٍ مختصر بين الحين ..والآخر.. لم أكن انتهيت مما بداخلي عن أبي، لكن يبدو أنه أدرك أني تعبت، كنت مُتعرقًا بغزارة بالرغم من اعتدال الطقس، لا أحب استدعاء تلك الذكريات بالذات، لا أمتلك ذكريات الطفولة الأسوأ على الإطلاق، وأعرف مَن لاقوا أهوالًا تفوق ما أحكي بكثير، لكنها حمولي أنا، صخرتي التي أحملها على ظهري كـ «سيزيف» المعاقَب، وأسير بها في الحياة، وحيدًا.

t.me/qurssan

أراد تلطيف الجو قليلًا كما يبدو، فقام وأحضر لي زجاجة مياه ناولها لي في يدي مبتسمًا وهو يسأل: "بس اللي واضح من كلامك إنك بالرغم من كل شيء مش بتكره أبوك، ولَّا أنا فاهم غلط؟".

تجرعتُ من الزجاجة بنهم، كنت عطشانًا بالفعل، وأجبته وأنا أضعها أمامي على المنضدة الصغيرة الموضوعة أمام المكتب: "لا أنا عمري ما كرهته، بالعكس أنا بحبه وعارف إنه بيحبني، في عز خلافاتنا كنت عارف ده، بس الظاهر إننا معرفناش نحب بعض صح".

شيءٌ ما دفعني للنظر في ساعتي، لأجد أن الساعة تقترب من الخامسة فجرًا! يبدو أنني أطلت الحكي دون شعور، كيف جلست هنا لعدة ساعاتٍ أحكي دون أن أشعر؟

هل تُثقِل الذكريات صدري إلى الحد الذي لا أشعر فيه بنفسي وأنا أرويها؟

أدرك الدكتور «سلمان» التوتُّر الذي أصابني بعد أن نظرت لساعتي، مُدركًا أن عدة ساعاتٍ مرَّت دون أن أشعر بمرورها، فقال لي مطمئنًا: "عادي ما تتخضش، معظم الناس ما بيحسوش بنفسهم وهما بيحكوا.. وبعدين دي علامة صحية بالنسبة لي، كدا إنت فعلًا كنت بتحكي حاجة مهمة وما كُنتش بتكدب!".

t.me/qurssan

ثم ضحك فجأة ليخفف من حدة التوتر.. لا أنكر إعجابي بشخصيته بالرغم من غموضه وطريقته الهجومية أحيانًا، لكنني لا أنكر أنه نجح في نفس الوقت أن يكسب بعضًا من ثقتي.. لا أتذكر آخر مرة حكيت لأي حدٍ شيئًا صادقًا عن نفسي.

أخبرته أنني يجب أن أقوم الآن لأن لديَّ عملٌ صباحيّ يجب أن يتم إنجازه.. سألني في ما بدا لي حماسًا، لأول مرة ألمحه في صوته: "إيه دا شغل بدري كده؟ تسمح لي أستفسر منك عنه ولا هنبقى سخافة مني؟".

أعجبني أسلوبه المُهذَب غير المُفتعَل، فقد أصبحت أجيد تمييز الأصالة في أي حديثٍ أسمعه حتى لو كانت جملة بسيطة مثل هذه.. أخبرته عن أنها حملة دعائية أشارك فيها مع اثنين آخرين، لكنها حملة من نوعٍ خاص قليلًا؛ تعمدتُ في حديثي أن أنبر فضوله، ويبدو أنني نجحت، فقد ازدادت نبرة صوته حماسًا وهو يقول: "طيب تسمح لي آجي معاك؟ بُص أنا مش هخبي عليك، أنا طول عمري بتفرج على العالم بتاع السوشيال ميديا دا ومشاهيره من بره، بس عمري ما شُفت كواليسه.. هو ينفع آجي معاك؟ وطبعًا الموضوع هيفضل سري تمامًا، كأنك في جلسة هنا معايا، أي حاجة هشوفها أو أسمعها اعتبرني لا شُفتها ولا سمعتها، بس أنا نفسي أدخل جوَّه العالم ده، أنا بتابعك وبتابع شباب كتير غيرك بالمناسبة، بس عمري ما تخيلت العالم دا من جوَّه ممكن يكون عامل إزاي؟ ويمكن دا يساعدنا في إني أساعدك".

t.me/qurssan

كانت عيناه مختفيتين خلف العدسات الغامقة، لكني تخيلت لمعة الحماس فيهما، لم أجد في نفسي ما يدفعني للرفض، وبصراحة كنتُ سعيدًا لدرجةٍ ما لأنني نجحتُ في إثارة فضول رجلٍ بالتأكيد رأى وسمع الكثير.

بعدها بدقائق، كان بجواري في السيارة بينما أقودها.. قطع الصمت الذي وُلد منذ انطلقنا بالسيارة من أسفل البناية التي يسكن بها، بسؤالٍ طرحه بلهجةٍ حذرة:

"أنا عندي سؤال بس مش عايزه يضايقك، أنا عايز أعرف إنت بتقدم إيه بالظبط على السوشيال ميديا.. أنا متابعك من قبل ما تكلمني بالمناسبة.. أحيانًا بتقدم فيديوهات حكي، شبه الحكواتية بتوع زمان، وأحيانًا فيديوهات كوميدي والجو اللي بيعجب الشباب بتوع دلوقتي، وأحيانًا فيديوهات عن التريندات، وأحيانًا بتعمل حفلات ستاند آب كوميدي على حكي.. على فكرة، أنا كنت حاضر في آخر حفلة ليك، في نفس اليوم اللي جيت لي فيه الأسبوع اللي فات".

التفتُ له مندهشًا، فأكمل حديثه وهو ينظر من شباك السيارة:
"ما تستغربش كده.. أنا شغلي مش تقليدي يا يحيى لأني بشتغل مع زباين مش تقليديين.. آه كنت حاضر في آخر كرسي في رابع صف، وكنت حاجز التذكرة من يوم ما بعت لي أول إيميل.. المهم قول لي، إنت بتقدم إيه بالظبط؟".

t.me/qurssan

تنفستُ بعمقٍ، وبدأتُ في شرح الأمر له ببساطة على حقيقته.. لم يكن الأمر صدفة، فلقد تعمدتُ منذ ان أصبحتُ واحدًا من مشاهير عالم الإنترنت المُلوَّن، ألا أكتسب لونًا محددًا بين نجومه، أنا كل شيء، أنا الشخص الذي يقدم فيديوهات عبارة عن اسكتشات خفيفة في بعض الأحيان، معظمها مقتبس من فيديوهات أجنبية بصراحة، وأنا الشخص الذي يتكلم عن العلاقات الإنسانية، خصوصًا العاطفية منها، ولقد برعتُ في هذه النقطة بالتحديد وخلقتْ لي شعبية جارفة بين الفتيات، والمتزوجات أيضًا، فأنا أتحيز لهن بذكاء، أقدم محتوى فارغ المضمون مبهر وعميق في مظهره، الكثير من الحشو والكثير من إعادة تدوير نفس الأفكار السطحية، لكنها تظل تركيبة لا تخطئ زبونها أبدًا.. وأحيانًا أقدم نفسي لجمهوري في ثوب مدرب التنمية البشرية، لا يمكنني إغفال هذه النقطة أبدًا؛ إن البشر لا يَكفون عن الاعتقاد بأن هناك أملًا سيخرج حتمًا من بين حطام هذا البؤس الذي يحيون تحت وطأته، لكنني أجيد تقديم نفسي في هذه الزاوية بشكلٍ عصريٍّ، أتجنب الخلطة القديمة التي أصبحتْ محل سخرية الكثيرين، فأحرص على تقديم شكل عصري من الأمل، أمزجه أحيانًا ببعض القصص الدينية، أنتقي غير المتداول منها، وأبدأ في مزجه مع بعض العبارات الحماسية هادئة الصياغة، تركيبة لا تخيب وغالبًا تكون في حمايةٍ من النقد والهجوم، من يَقدر على مهاجمة شخصٍ يتكلم بما قاله الله ورسوله، حتى لو كان محتوى ما يُقال قد قيلَ قبل ذلك آلاف

t.me/qurssan

المرات، يحتاج الأمر الكثير من الشجاعة والقدرة على تحمُّل الكثير من السباب الذي سينهال من المتابعين المتحمسين، فوق رأس من يجرؤ على مهاجمتي على هذه النوعية تحديدًا.

أهم شيءٍ اكتسبته بخبرة التواجد في هذا العالم أن ما يُهم حقًّا هو الشكل، هذا ما سيجذب لكَ الانتباه، أمَّا المضمون فهذا أمر جانبي يمكننا أن نناقشه لاحقًا.. حتى لو أردتَ التعبير عن حزنك، عبِّر عنه بما يخدم نقطة المظهر هذه، لو أردتَ أن تنشر لك فيديو وأنت في حالة هيستيرية بينما تسب الجميع، فلا تنس ارتداء ما يدل على طبيعة شخصيتك الغامضة وأنت تفعل هذا.

لم أخبره بكل ما يجول في خاطري عن تصوُّري لما أقدمه عبر السوشيال ميديا، لكني أعطيته فكرة عن الخلطة التي أحرص على تقديمها.. تابع في صمتٍ ما قلت، ولم يعلق، وواصل النظر من الشباك مراقبًا الشارع في تأمُّل.

أخبرته أنني سأُنزِله بالقرب من المكان الذي سنصوِّر فيه، وسأذهب لمنزلي لأغير ملابسي ثم أعود إليه.. أوقفتُ السيارة بجوار أحد الكافيهات، وأخبرته أنه يمكنه أن ينتظرني هنا حتى أعود إليه.

وقبل نزوله ودَّعني مبتسمًا وهو يقول: "مستنيك يا حاوي، دا أنا شكلي هنبهر!".

t.me/qurssan

(٧) التمام

رفعتُ الموبايل لأعلى، وضغطتُ زر البث المباشر، كنتُ أستخدم صفحتي على فيسبوك، أكبر منصة تحمل اسمي.. بدأتُ في التحدُّث وأنا أجلس بجوار «كامل العطار»، واحد من مشاهير عالمنا الافتراضي:

"صباح الفُل على الناس كلهم.. إحنا دلوقتي في مستشفى «.....»، صديقنا «كامل» للأسف عمل حادثة بسيطة بعربيته، ورجله الشمال حصل فيها شرخ، بس الحمد لله الشرخ بسيط، وعنده شوية كدمات، هو بخير وأنا معاه و»محمد رشيد» أهو.. بصراحة أنا لسه جاي لهم من شوية ع المستشفى هنا بعد ما رشيد كلمني وعرّفني اللي حصل".

ثم رفعتُ الكاميرا لأعلى قليلًا بزاويةٍ درستها بعنايةٍ قبل بدء الفيديو؛ لتبرز جماليات الغرفة التي يجلس فيها «كامل» ممددًا

t.me/qurssan

على السرير، وساقه اليُسرى مدموجة في الجبس.

وبدأ "محمد رشيد" يحكي عن معاناتهما وما تعرضا له في استقبال مستشفى أخرى، خاصة أيضًا، بالقرب من المستشفى اللي نتواجد بها الآن، وأنهما تعرَّضا لسوء معاملة في الاستقبال الخاص بالمستشفى الأخرى، وكان اهتمامهم كله مُنصَب على الماديات قبل الاطمئنان على سلامة المُصاب حتى، قبل أن يتصلا بي وأنصحهما بالإتيان للمستشفى التي نحن فيها الآن.. ثم نقلتُ الكاميرا بهدوءٍ تجاه «كامل»، المصاب الممدد، وألقى التحية على المتابعين الذين بدأوا يتوافدون بالآلاف لمشاهدة الفيديو، وطمأنهم أنه بخير، وقد تلقى عناية لا مثيل لها في المستشفى، حتى على جانب الدعم النفسي كان العاملين في شدة اللُطف والتهذيب معه، مما ساعده على تجاوز صدمة الحادث.

ثم عدتُ بالكاميرا تجاهي وبدأت في الحديث:

"بصراحة أنا مش مستغرب إن زي ما فيه مستشفى محترمة زي اللي إحنا فيها دلوقتي، بردو فيها مستشفيات زي المستشفى اللي راحوها أصدقائنا الصُبح واتعاملوا بمنتهى انعدام الإنسانية.. هي الدنيا كده، والحمد لله إننا زي ما بنصادف الوحش، لسه بردو متحاوطين بنماذج محترمة بتهوِّن علينا اللحظات الصعبة.. مش حابب أطول عليكم، بس حبينا نطمنكم على «العطار» زي ما قلقتوا عليه أكيد بعد خبر الحادثة ما انتشر.. شكرًا جدًّا ليكوا، ومع السلامة.. قولوا سلام يا جدعان للناس.. يلَّا!".

t.me/qurssan

ولوَّح الاثنان في سعادةٍ للكاميرا، وقمتُ بإيقاف البث، ثم تأكدتُ من أن الفيديو تم تثبيته على صفحتي..وتنفستُ الصعداء.

وتابعت مبتسمًا نظرات دكتور «سلمان» المندهشة وهو يرى «كامل" يقفز من السرير ويقف على قدميه ويسير بشكلٍ طبيعي جدًا.. بدا غير مستوعبٍ لما يشاهد، قبل أن يُقطع حبل اندهاشه بصوت مدير المستشفى الواقف في رُكن الغرفة البعيد وهو يصيح محييًا:

"برافو يا شباب! هايل والله، أنا هطمن الهانم على التليفون إن الموضوع مشي تمام".

ثم خرج المدير من الغرفةِ وهو يرفع سماعة هاتفه على أذنه.

ثم سألني «العطار» والضجر يبدو في نبرات صوته: "هو أنا هفضل بالجبس دا كدا يا يحيى؟ يعني هطلع بيه من المستشفى؟ أنا مش طايق رجلي يا عم!".

فقلتُ له دون أن أرفع عينيَّ عن هاتفي، حيث كنتُ أتابع التعليقات وأطمئن من ردود الفعل على الفيديو الذي قمنا ببثه: "أيوه طبعًا هتفضل بيه.. وهتنزل بيه دلوقتي من المستشفى كمان، و«رشيد» هيروَّحك.. هيبعتوا لك حد للبيت يفكهولك".

ثم رفعتُ عينيَّ عن الهاتف ونظرت له وأنا أقول محذرًا: "ومش عايزين خروج عن الاتفاق يا كامل.. تقعد في البيت كام أسبوع زي ما اتفقنا.. سيبك من جو السهر وخروجات البنات، أنا عارف إنك بتحبهم أكتر من عينيك، بس مش هينفعوك ولا

t.me/qurssan

هينفعونا.. تِكنّ في البيت خالص الكام أسبوع دول، وطبعًا ما تتصورش غير بنُصك الفوقاني في الصور اللي هتنزلها، عشان رجلك ماتبانش.. وبعد كام أسبوع هيبعتوا لك واحد يجبسك عشان تنزل الفيديو بتاع فك الجبس هنا في المستشفى بردو.. مفيش خروج من البيت يا كامل سامعني؟"

هزَّ رأسه موافقًا في تسليم، ثم وجهتُ سؤالًا لـ «رشيد»: "صور العربية جايبة تفاعل كويس عندك؟ فيه أي تعليقات مريبة عليها؟".

هز رأسه نافيًا وقال بطريقتِه الطفولية التي يستغربها مَن يتعامل معه لأول مرة: "كله تمام يا كبير.. ما تقلقش الدنيا ماشية تمام".

ثم وجَّه الهاتف ناحية «كامل» وهو يقول بفرحةٍ: "البت جات سكة أهي! إيدك على الخمس آلاف الرهان يا حلو.. قلت لك يا عم أنا ليا سحر مع النسوان اللي من العيِّنة دي".

توجهتُ ناحية دكتور «سلمان» الذي جلس متجمدًا في ركن الغرفة، وأشرتُ له أن يقوم مبتسمًا، ثم نظرتُ لـ «رشيد» وقلت بلهجةٍ ساخرة: "خِف يا رشيد.. خِف في موضوع النسوان ده، ريحتك فاحت واحنا مش عايزين نتلط.. أنا مقصرتش معاكوا في حاجة، بس إنت لو اتلطيت هتجيبنا كلنا في ديلك.. خِف وسيبك من شغل العيال بتاعك ده.. يلَّا، سلام يا رجالة".

t.me/qurssan

نزلنا ـ أنا ودكتور سلمان ـ في الأسانسير الفخم للمستشفى التي يتألف مبناها من أدوارٍ عدة، مبنى شاهق بالغ الفخامة، صُمم بشكلٍ يليق بفندق ذي نجوم خمس وليس مستشفى أبدًا، لكن عندما تعرف تكلفة أبسط عملية علاجية يمكن أن تجريها كمريض هنا، سيزول عجبك من جمالية التصميم وفخامته، لكل شيءٍ ثمنٌ باهظ جدًا في هذا الزمن.

دخلنا سيارتي التي أوقفتها في الجراج الضخم الخاص بالمستشفى، كنا صامتين، لم ينطق أحدنا بكلمة منذ نزلنا.. أعترف أنني كنتُ مستمتعًا بشدة بإثارة فضوله بهذا الشكل، وكم تمنيتُ أن ينزع نظارته لأرى الدهشة في نظراته.. كنتُ مستمتعًا بشكلٍ طفولي، ولا أتذكر المرة الأخيرة التي شعرت فيها بهذا الإحساس رفقة أي شخصٍ خلال المدة الطويلة الأخيرة.

أخيرًا، نظر لي وتنهد، ثم قال بنبرةٍ حاول أن يجعلها هادئة: "طيب أنا معترف يا سيدي، أنا محتار وعاوز أفهم اللي أنا حضرته من شوية ده!".

بدأتُ أشرح له ما شاهده منذ قليلٍ دون أن أرفع عيناي عن الطريق.

بدأتُ القصة بمكالمةٍ تلقيتها من مدير المستشفى، حيث يرغبون في عمل حملة دعائية على منصات السوشيال ميديا، لكن بشكلٍ غير تقليدي، متجنبين كل الأنماط التقليدية التي جربوها كثيرًا ولم يحصدوا من خلالها ما كانوا يأملون فيه.. واتفقنا على

t.me/qurssan

الالتقاء في أحد الأماكن العامة.. وبالفعل التقينا.

بدا رجلًا مُهذبًا في حديثه، وإن كانت تلميحاته تخلو من أي التزام أخلاقي، وأكد أن «الهانم» سيدة الأعمال الشهيرة، والمستثمرة الرئيسية في إدارة المستشفى هي من صممت بنفسها أنني مَن يجب أن يتولى قيادة الحملة الترويجية التي يرغبون فيها، خصوصًا بعد أن تم افتتاح تلك المستشفى التي تبعد عنهم حوالي كيلو متر منذ عام تقريبًا، وقد حازتْ معظم النجاح والسُمعة الجيدة، خاصةً أنهم يمتلكون أمهر الأطباء المتخصصين في قطاع التجميل بالذات.

لمعت الفكرة في ذهني لحظيًا، فطرحتها عليه فورًا: وما رأيك في حملةٍ تضرب في سمعة منافسكم اللدود، وتُعلي من شأنكم في آن واحد؟

بدا مُتحمسًا، فقصصتُ عليه الفكرة التي بدأتْ ترتسم في ذهني كالفيلم القصير.. سأستعين بالثنائي كامل ومحمد الرشيدي، مساعداي المُقربان في الوسط، تمثيلية صغيرة سننفذها بدقة، بداية من التلفيات التي سيحدثها «كامل» في مقدمة سيارته، كأنه ارتطم بها بشدة في حاجز جانبي على الطريق، وصولًا لذهابه بالفعل للمستشفى المنافسة، وهو يستند على كتف «الرشيدي»؛ ليفتعلا هناك أيةِ مشكلة في الاستقبال ثم يرحلان، وهنا كانت الخطوة الأصعب والأهم، يجب أن يذهبا بالفعل للمستشفى الأخرى حتى لا ينكشف الموضوع كله إذا ما خرجتْ المستشفى الأخرى

t.me/qurssan

وأنكروا ذهابهما من الأساس، وبالتأكيد سيستعينوا بتفريغ كاميرات المراقبة عندهم.. ثم تأتي خطوة الذهاب للمستشفى المرغوب تلميعها، وبث الفيديو من خلالي؛ فأنا أكثرهم شهرة وحظًا من ثقة المتابعين.. يجب أن يبدو الموضوع عفويًا، دون مبالغةٍ في الحديث، لكن الأثر النفسي الذي سيتركه فيمَن سيشاهدون الفيديو سيظل محفوظًا، خاصة التأثير السلبي، وهل لو ضربنا في سُمعة منافسكم، ألن يكون مُفيدًا لكم أكثر من أي حملة دعاية أخرى؟

لمحتُ لمعة الموافقة في عينيّ المدير، كنتُ أعرف أنه بلا قيم ولا توجد لديه دوافع إلا إرضاء السادة المُلَاك، وعلى رأسهم الهانم التي يتحدث عنها بإجلال.. أنهينا المقابلة على وعدٍ بأن يرد عليَّ خلال ٢٤ ساعة بالموافقة أو الرفض، بعد أن أخبرته بالأجر الذي سأتلقاه أنا والاثنين الآخرين، وأنهم سيتحملون تكلفة إصلاح السيارة بالطبع فيما بعد.

وعاد لي هاتفيًا بعد يوم ليبلغني بموافقة المستشفى على الحملة الدعائية بالسيناريو الذي تَخيلته، وأضاف أنهم يتعهدون بتقديم الدعم القانوني لنا إذا ما لجأت المستشفى الأخرى لمقاضاتنا، وعاد ليؤكد على أهمية ذهاب الشابين للمستشفى وافتعال مشكلة في الاستقبال ثم الرحيل؛ لنتجنب انكشاف اللعبة.

كنتُ أعرف أنها مُخاطرة، لكني أصبحت رقم واحد في هذا العالم، تحديدًا في مجال الدعاية المخفيَّة، بفعل ميلي للمخاطرة المحسوبة.. أنا دومًا صاحب اللعبة البسيطة، التي من فرط بساطتها،

t.me/qurssan

وصدق تفاصيلها، لا يمكن تخيُّل أنها لعبة أبدًا، العقل البشري ـ ويا للسخرية!ـ غالبًا لا يميل لتصديق أن هناك أكاذيب بسيطة واضحة، ويبحث عن تفاصيل الكذب في القصص المعقدة ذات التفاصيل الكثيرة، التي من الممكن أن تكون صادقة وعادية.. الأمر شبيه بتعمُّد الساحر في السيرك أن يُريك كل التفاصيل، يستعرض أمامك كل أركان الصندوق الذي سيبهرك بفقرته داخله، لكن لحظة! هل يُريك بالفعل حقيقة الصندوق؟

هل ترى حقيقة الصورة، أم ما يُريدك هو أن تراه وتدركه؟

بالإضافة لكل هذا، فالمبلغ الذي سيستقر في حسابي، وحساب من شاركاني التمثيلية الصغيرة، يستحق بعض العناء والمُخاطرة.

استمع دكتور «سلمان» لما كنت أحكي دون أن يقاطعني أبدًا، ثم نظر أمامه وهو يسألني: "إنت بتبقى مبسوط وانت بتعمل شغلك دا يا يحيى؟".

فاجأني سؤاله، توقعتُ أن يستفهم عن تفاصيل شيءٍ ما مما حكيت عنه.. أجبته وقد لاحظت أننا اقتربنا من مقر سكنه، وعيادته في نفس الوقت، أنني لا أكون سعيدًا بقدر ما أشعر أنني في لعبة، لعبة مُسليّة بعض الشيء، لكن لا يمكن وصف ممارستها بالاستمتاع أو أنها تجلب السعادة أبدًا، قبل أن أختم حديثي ساخرًا وأنا أقف بالسيارة أمام البناية التي يسكن فيها: "وأنا لو كنت سعيد يا دكتور كنت هاجي لك ليه؟".

t.me/qurssan

هز رأسه في تفهُّم وتفكير، وقال قبل أن يفتح الباب المجاور له: "يا ريت أشوفك النهاردة بالليل تاني لو هتبقى فاضي.. عرَّفني على الإيميل زي امبارح.. سلام يا يحيى".

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(٨) التمام

ثلاث مكالمات تختلف كل منهم تمامًا عن الأخرى تلقيتها في ذلك المساء، بعد أن استيقظتُ عندما غابتْ الشمس كالعادة.. في السنين الأخيرة اعتدتُ النوم نهارًا، حتى أصبحتْ عيناي تنزعجان من ضوء الشمس.

المكالمة الأولى كانتْ من الصيد الجديد، الفتاة المُدللة التي ألاعبها خلال الفترة الأخيرة.. صحوتُ لأجد عدة اتصالاتٍ منها، قررتُ ألا أعيد الاتصال بها؛ فقد تجاوزنا المرحلة التي كنتُ أوليها ذلك الاهتمام الخُرافي الذي سحرها وجعلني أُحكِم الطوق حول روحها؛ فصرتُ صاحب الكلمة الأولى في حياتها، ربما أكثر من أبيها حتى.

فتاة مُدللة هي، بالتأكيد في البداية كانت تريد دخول حياتي لأصبح الكلب الأليف الذي ستصطحبه معها خلال

t.me/qurssan

لقائها بصديقاتها؛ فتستجلب نظرات الإعجاب والحقد، لتشعر ببعض التفوُّق الذي يُشعِرها بالشبع.. منذ المرةِ الأولى التي تقابلنا فيها قرأتُ فيها ما كنتُ أتوقعه، هذا الجوع للإحساس بالتقدير الحقيقي، بالتميُّز، الرغبة في حيازتي تأتي من رغبتها الدائمة في حيازة الأفضل من كل شيء، كما اعتادتْ منذ صغرها.

تركتها تتحدث بحريةٍ خلال لقائنا الأول، واكتفيتُ بالتحديق في عينيها اللتين غيَّرت لونهما الأصلي باستخدام عدساتٍ لاصقة، عدسات باهظة الثمن بالتأكيد ككل شيءٍ ترتديه، ربما يبلغ ثمن ما ترتديه من ملابس وحُلي مرتب موظف مجتهد في إحدى شركات القطاع الخاص خلال عامين مثلًا.

حياتها فارغة من الصعوبات الحقيقية، حياة مهَّد لها أبوها كل شيءٍ فيها، فراغ روحي كامل تحيا فيه.. لم يكن قراءة هذا صعبًا، وهذا ما أتوقعه وأفضله في الصيد.. سأبدأ في طرح نفسي كتحدٍ لها، شيء يستثير داخلها الرغبة في الامتلاك، الرغبة في الإحساس بالتميُّز بعيدًا عن مالها ومستواها الاجتماعي.

في البدءِ بالغتُ بشدة في إظهار هيامي بها، هدايا رقيقة باهظة الثمن أحضرتها لها، وحرصتُ أن تنم كل هدية عن متابعةٍ دقيقة مني لها، تتبُّع لأدق تفاصيل حياتها المعروضة كلها على منصات الواقع الافتراضي.. قضيت أكثر من ليلةٍ أحدثها تليفونيًا حتى بزوغ الشمس، وتحملتُ رتابة الحديث معها، لكن هذا ضروري لما سيأتي بعده، وهي المرحلة التي أبدأ في ملاعبتها، أختفي لأيام، لا

t.me/qurssan

أرد على رسائلها ولا مكالماتها، بالرغم من تواجدي بشكلٍ طبيعي على صفحاتي الشخصية على المنصات الاجتماعية المختلفة، قبل أن أظهر من جديد، باهتمام أقل، بنبرة صوتٍ زال منها شغف المحبة الذي كنتُ أمثله بدقة.. وأتحدث عن الأزمة النفسية التي أمر بها بسبب تعلقي الشديد بها، وكيف أنني خائف، مضطرب، مذعور من فكرة أنني تعلقت بها بهذا الشكل، وأخاف رحيلها المفاجئ من حياتي.. يزول غضبها ويتحول لرغبةٍ مُلِحة في إرضائي، في اجتذابي من جديد؛ فالفتاة المدللة لم تعتد أبدًا أن تفقد شيئًا رغبت فيه، الأمر ليس له علاقة بالحب، بل بفكرة التحدي الذي نجحتُ في وضعها فيه أمام نفسها، حتى المشاعر التي تتولد داخلها عندها في لحظتها، ما هي إلا كذب ستنخدع به بإرادتها؛ لتبرر به أمام نفسها ما ستفعله لإرضائي.

أبدأ في الظهور والاختفاء من حياتها تباعًا، شد وجذبٌ أضعها بينهما، الحيرة تزيدها تمسكًا بي، خصوصًا أنها ربما تشعر بأنها تفعل عملًا عظيمًا بأن تطمئني أنا القلق الخائف من الالتزام في علاقة جدية.

تنفستُ بعمقٍ قبل أن أجيب على مكالمتها، وضعت أطباق الطعام الذي كنتُ أتناوله جانبًا، وحاولتُ استدعاء حالة الجدية، بعد أن قاومت كثيرًا أن أنفجر ضحكًا من تخيُّل شكلها وهي تجلس حائرة حزينة، ممتعة جدًا هذه اللعبة!

t.me/qurssan

أخبرتها أنني أمرُّ بحالة نفسية سيئة لمشاكل في عملي.. لا، لا أقدر على مقابلتها الآن، لا أريد التواجد في مكان عام به زحام ولو بسيط من البشر.. وبالطبع لا أستطيع دعوتها لمنزلي بعد أن فوجئت برد فعلها الساخر عندما عرضتُ عليها هذا مند أيام.. تعمدتُ الضغط على إحساسها بالذنب، كنت أعلم أن رد فعلها لم يكن رفضًا بقدر ما كان محاولة للاستظراف وادَّعاء الرقة الأنثوية منها.. سأحاسبها كثيرًا على ردها يومها: «إيه! آجي لك البيت؟ إيه يا حبيبي إنت عاوز مني حاجة قلة أدب ولا إيه؟».

أخذتْ تؤكد أنها على استعدادٍ للحضور لمنزلي حالًا بمجرد موافقتي ومنحي العنوان لها.. قلت لها بنبرةٍ حزينة أنني سأفكر في الأمر وأعاود الاتصال بها لاحقًا، وأغلقتُ معها الخط وأنا أقاوم الضحك بشدة.

هذه اللعبة تقريبًا هي كل ما يمنحني الرغبة في الضحك بشكلٍ حقيقي في حياتي الآن.. ضحكٌ رخيص يناسب رُخص أيامي.

أمّا المكالمة الثانية فكانتْ من أبي، ثقلٌ إضافي وُضِع على صدري عندما رأيت اسمه على شاشة الهاتف.. اختلاجة ألم مفاجئ ألمَّت بي وعصفت بجسدي كله.. لثوانٍ حدَّقتُ في شاشةَ الهاتف حائرًا بين الرد أو تجاهل المكالمة.. لم أرد على مكالماته منذ ما يزيد عن شهرٍ تقريبًا؛ فقد صار للحديث معه ثقل لا أتحمله ولا أملك الطاقة له، ولا أملك تفسيرًا محددًا لهذا الشعور.

بعد ترددٍ أجبت، ضغطت زر الرد، وأتاني صوته من على الجهة

t.me/qurssan

الأخرى يقول بنبراته الرزينة المعتادة: "ألو.. إزيك يا يحيى؟".

لم أجبه، ارتج عليَّ الأمر للحظات، كيف حالي؟! حتى السؤال بصيغته المعتادة هذه بدا مضحكًا بالنسبةِ لي.

أعاد تكرار ندائه لي وهو يردد: «يحيى! يحيى إنت معايا يا ابني؟».

أجبته بصوتٍ حاولتُ إظهار الثبات في نبرته: "ألو، أيوه يا بابا معاك.. الحمد لله أنا بخير، إزيك إنت؟".

رد عليَّ بنبرةٍ ظهر فيها الحزن وقد هزم وقاره المعتاد: "الحمد لله يا يحيى.أنا كويس.. كلمتك كتير بس انت ما بتردش".

صمتُّ، وصمتَ، كلانا يعرف أن ما بيننا من شرخٍ أكبر من الأعذار، أكبر من المبررات والكذب المُنمَّق.. أضاف بعد هُنيهة من الصمت قبل أن تطول:

"

عمومًا أنا عارف إنك مشغول في حياتك الجديدة.. الحمد لله إنك بخير يا ابني".

رددتُ عليه معتذرًا بمجموعة من الأكاذيب عن انشغالي.. لا أعرف لماذا يبدو الكذب ثقيلًا جدًّا على قلبي في الحديث معه، بالرغم من أنه الهواء الذي أتنفسه تقريبًا في حياتي الجديدة التي يتحدث عنها.. أغلقتُ الهاتف وبداخلي إحساس بأنني تخلصت من ثقلٍ كبير، مسافة كبيرة تفصل بيني وبينه، مسافة تتجاوز طول طريق «القاهرة ـ الإسكندرية" الصحراوي الذي يفصل بيننا،

t.me/qurssan

مسافة نشأتْ منذ سنين.

افتقاد الأمان في صُحبة أحد المُقرَبين لك يبدو أكثر قسوة من افتقاد الحب نفسه.. قد تتواجد المحبة، دون الأمان؛ فيفقد كل شيءٍ بينكما معناه.. يبدو هذا لي مُلخصًا لعلاقتي بأبي في السنين الأخيرة.

انتزعتُ نفسي من الكآبة التي سيطرتْ على روحي بسبب التفكير في علاقتي بأبي، وأرسلت للدكتور «سلمان» اخبره أنني سأحضر له مساءً كما طلب مني.

شيءٌ ما غامض يجذبني لهذا الرجل، فأنا الذي افتقدت القدرة على التواصل عن قُربٍ مع أي أحدٍ تقريبًا خلال الفترة الماضية، أجد نفسي رويدًا رويدًا أميل للحديث معه.. أخجل من نفسي من الاعتراف أنني بدأت أشعر بالارتياح قبل ذهابي للحديث معه، هل السبب هو ما ألمسه في شخصيته من صدق، بعد أن تجعدت روحي من فرط معايشة الادّعاء وممارسته؟

بساطته تجذبني نحوه، ربما لا أفهم حتى الآن بالضبط ما جعلني أرتاح له، كل ما أدركه أنني صرتُ ـ وهذا ما لم أكن أتخيله ـ أرغب في الذهاب والحديث بلا حسابٍ في عيادته العجيبة تلك!

جاءتني المكالمة الثالثة بينما أتابع التعلقيات على مقطع الفيديو الأخير الذي نشرته.. كان الرقم مخفيًا بخاصية إخفاء الأرقام التي لا يحصل عليها إلا البعض بإذنٍ خاص من شركات الاتصالات، لم تعد تخيفني هذه الاتصالات كما كانتْ تفعل في

t.me/qurssan

الماضي؛ فالكثير ممن يطلبونني للاتفاق على عملٍ يمتلكون هذه الأرقام المخفية المميزة.

جاءني صوتٌ مرح من الجهة الأخرى يقول بتباسطٍ لا يخلُ من شعور صاحبه بالثقة في نفسه:

"ألو، إزيك يا يحيى؟ معاك زاهر توفيق.. أعتقد تعرفني".

بالطبع أعرفه، ومَن لا يعرف واحدًا من أصحاب أكثر السجلات المهنية قذارة على الإطلاق.. رجل الأعمال الذي لا يعرف أحد بدقة من أين يستمد كل قوته هذه، لديه شبكة علاقات ممتدة بكل شيءٍ ذو تأثير في البلد تقريبًا، بالجهات الأمنية وبكل الوسائط الإعلامية المُسيطرة.. يتاجر في كل شيء، بداية من الطعام والملابس المستوردة، وصولًا لعدة محلات لتجارة المشغولات الذهبية، كما يمتلك سلسلة من مراكز العناية بالصحة الجسدية، التي تقدم خدمات مثل التدليك والساونا والعناية بالجسد والبشرة للرجال، للأثرياء منهم بالطبع نظرًا لارتفاع تكلفة الخدمة فيها.. هذا هو المُعلن للعامة، وفي الواقع هذه المراكز ما هي إلا بيوت دعارة ذات تراخيص، وتقدم خدماتها ضمن إطار القانون، فالمدربات «المحترفات» بداخلها لا يكتفين بتدليك جسد الرجل المُسجى أمامهن، لكنهن يقدمن الخدمات الإضافية الجليلة التي تصل بالزبون «للنهاية السعيدة» التي سيدفع من أجلها الكثير.

"زاهر" قوَّاد محترف، قواد بالمعنى الشامل للكلمة، فهو ممن يراكمون الثروات والنفوذ من أي تجارة تلعب على غرائز

t.me/qurssan

البشر، بدءًا من غريزة الشراهة في تناول الطعام، وصولًا للجنس.

عرفتُ عنه ما عرفت لأن لا شيء في مصر يبقى سرًا، وبرغم كل هذا ظلَّ «زاهر» في حمايةٍ لا يعرف أحدٌ مصدرها بدقة، هناك الكثير من الشائعات عن سيدة مجتمع هي من تحميه، وهي المالك الحقيقي لكل شيء، و«زاهر» مجرد واجهة لكل شيء، واجهة تلتقط القذارة، لتظل صاحبة الجلالة المجهولة في حماية.

انقبض قلبي عند سماع اسمه، لكني تمالكت نفسي وأنا أرحب به بما يليق برجلٍ يمتلك سمعته القذرة المخيفة.. كان حديثه مختصرًا آمرًا في لهجةٍ مهذبة.. أخبرني أنه يريد لقائي غدًا في مكتبه عند الساعة الثالثة عصرًا، دون أن يوضح سببًا للقاء.. أملاني العنوان دون أن ينتظر إجابتي حتى، كرجلٍ اعتاد ألا ينتظر إجابةً إلا الموافقة على كل ما يريد.. لم أقل إلاَ: «تمام، هعدي على حضرتك في الميعاد»، قبل أن يُغلَق الخط بحزمٍ من الجهة الأخرى.

وضعتُ الهاتف على رخامة المطبخ العريضة، وفي قلبي خوفٌ يتشكل، ماذا يريد مني هذا القوّاد؟

t.me/qurssan

(٩) التمام

أسندتُ ظهري على مسند الكرسي البلاستيكي الرخيص الذي أجلس عليه، وقبضتُ بشدة على كوب الشاي طلبًا لبعض الدفء.. لم يعرف جسدي الدفء أبدًا منذ جئت إلى القاهرة، أيرتجف جسدي من البرد حقًا أم من إحساسي بهشاشة الوحدة تكتنفني كالرحم يحيط برضيعه؟ قاسٍ هذا الرحم، لا يعرف إلا الضغط بمنتهى القوة على قلب ساكنه.

رفعتُ ياقة المعطف الذي أرتديه، حتى اختفى معظم وجهي من خلفه.. لا أعرف سر ارتياحي للجلوس في هذا المقهى، ربما لأنه المكان الأول الذي جلستُ فيه عندما أتيت القاهرة لأول مرة في حياتي، كنت في السنة الجامعية الأولى أيامها، وجئت لأداء الاختبار في أحد الفرق المسرحية الصغيرة.. ابتسمتُ بجانب فمي عندما تذكرتُ أنهم رفضوني لصالح فتاةٍ لا تجيد نُطق عباراتين بشكلٍ متماسك، لكن امتلكتْ جسدًا متماسكًا يبدو أنه نال اهتمام

t.me/qurssan

مدير الفرقة أكثر من موهبتي.

واسعة هذه المدينة جدًّا، لم يغادرني هذا الإحساس أبدًا حتى بعد أن أقمتُ فيها عدة سنوات، مترامية الأطراف مُقبضة كقبرٍ يسكنه شخص عزيز عليك، مفرمة كبيرة لا تهدأ رحاها حتى خلال الليل، تطحن بداخلها كل شيء، الحب والكُره والشغف والأحلام، تدوس الجميع تحت نجوم سمائها.. لم أحفظ شوارعها أبدًا، وما زلت أتوه فيها كأنني أزورها لأول مرة.

أخذتُ أراقب عجوزًا يجلس على المنضدةِ التي تقابلني، وبجواره يجلس مَن يبدو أنه ابنه أو حفيده، كان الطفل يشرب من علبة المياه الغازية الموضوعة أمامه، ويحمل الهاتف الكبير حجمًا ليُري العجوز شيئًا ما يُعرَض على شاشته، فيقهقه، يهتز جسده من الضحك، ويلكز الطفل بدلالٍ في كتفه وهو يواصل الضحك، فيضحك ابن العشر سنوات لضحك رفيقه، رفيقان متقاربنا روحًا وإن تباعد سن كل منهما.

تذكرتني مراهقًا، أسير بجوار أبي على رصيف كورنيش البحر في «الإسكندرية».. يااه! كم تبدو بعيدة هذه الأيام، أرى نفسي وقد بدأت ملامح الرجولة تتشكل على وجهي، وأبي يسير بجواري، أقرب للكهولة من الشيخوخة التي آل إليها الآن، كان يحاوط كتفي بذراعه ويحكي لي شيئًا عن تاريخ الإسكندرية التي أحبها بقدرٍ أقل قليلًا مما أحب به أمي.. أتعب من السير، فيذهب لذلك المحل الصغير على الجهةِ الأخرى من الكورنيش في شارعٍ صغير، والذي

t.me/qurssan

لم يكن يعرف غيره تقريبًا، ويُحضر لي آيس كريم بالطعم الذي أحبه ويعرفه، ويجلب لنفسه طبق الأرز باللبن الذي يفضله، ثم يخبرني بنفس التعليق الذي أسمعه في كل مرة: "جدتك كانت بتعمله أحلى، الله يرحمها".

فأترحم عليها معه، ونواصل السير.. ثم نركب ميكروباصًا يصل بنا إلى محطة الرمل، وندخل إلى مقهانا المفضل، يُسلِّم أبي على النادل العجوز ويداعبه، ثم نجلس ويأتي طلبنا المعتاد: "قهوة ع الريحة وقرفة بالحليب".

يرنّ في أذنيّ صوت ضحكاتنا وهو يروي لي حكاية هذا النادل مع زوجته، وكيف أتت إلى المقهى في إحدى الليالي لتتشاجر معه أمام الزبائن، وكيف جرى من أمامها كالطفل الصغير وهي تطارده مهددة إذا لم يُعطها ما يكفي مصاريف العيال.. ينخر صوت ضحكاتنا في مخي، يذيبني ألم الحنين، وتعتمل في عينيَّ دموعٌ لا أقدر على حبسها، تتسلل رُغمًا عني.

لم أكره أبي لأنه ـ ببساطة ـ لم يمنحني ما يكفي من الأسباب لأكرهه، ولم يظل بالقرب مني بما يكفي ليحافظ على ذات الحُب والقرب له في نفسي.

زادتْ ارتعاشة جسدي رُغمًا عني، وعصر روحي إحساس جامح بوحدتي، كم أنا وحيد الآن وهنا، وحيد غريب لا يعرف أحدًا بصدق مع أن الآلاف، وربما الملايين، يعرفونه.. أغلقتُ هاتفي بغل، كم أصبحت أمقته! هذه الخردة الحديدية التي تربطني

t.me/qurssan

بكل هذا الوهم الذي غرقت فيه.. ها أنا وحيد، لا أملك حتى شخصًا واحدًا أقول له أنني حزين، وخائف.. كيف يقدر القلب على تحمُّل كل هذا القدر من الألم دون أن ينفجر؟

قمتُ من مكاني، بعد أن كففتُ بصري عن المنضدة المقابلة بصعوبة؛ لا أرغب في أن أحسدهما دون قصد.. دفعت الحساب وتركت للنادل العجوز بقشيشًا كبيرًا، فربتَ على ذراعي بامتنان، امتنان مدفوع الثمن! قلتها لنفسي ساخرًا وأنا متجه لسيارتي.. في الحياة ملايين المغفلين ممن لا يُقدِّرون أهمية الامتنان المجاني الذي يُمنح لهم ممن يحبونهم، فيردونه لهم أذى وتجاهلًا وكِبرًا.

لا بُد أن أذهب لدكتور سلمان كما اتفقت معه؛ فأنا حقًّا بحاجةٍ لشخصٍ أتحدث معه عن أي شيءٍ كي لا أقفز بهذه السيارة إلى النيل فورًا.

t.me/qurssan

(١٠) التمام

فتح لي دكتور «سلمان» الباب وهو يمسك في يده اليُمنى بطة مطاطية صغيرة، من النوع الذي يُصدر صوتًا حادًا عند الضغط عليه، ثم قرَّبها من وجهي وأخذ يضغط عليها بشكلٍ متتالٍ وهو يطلق ضحكات طفولية، بينما تراجعتُ مندهشًا مما أراه، قبل أن أبتسم رُغمًا عني بسبب ما يفعل.

أزاح الباب جانبًا وهو يُرحِّب بي، وضحكاته لم تنقطع بعد.. ثم أغلق الباب من خلفي، وهنا لاحظتُ أنه لأول مرة يرتدي زيًا رياضيًا بسيطًا من اللون الأزرق المائل للون السماء في صفوها، وليستْ الملابس الرسمية التقليدية التي يقابلني بها كل مرة، لكن العوينات الغامقة ما زالت تغطي عينيه.

t.me/qurssan

تقدَّمني لغرفة المكتب التي أصبحتُ أعرف طريقها جيدًا، ثم تركني وحيدًا لثوانٍ، قبل أن يعود بكأسٍ ضخمة من عصير البرتقال وكوبين من الزجاج.. صبَّ لي وهو مبتسم وقال: "مالك مستغرب ليه كده؟ كنت بهزر معاك يا عم! إنت إيه ما بتحبش الهزار ولا إيه؟ فُك كده، الحياة تافهة على تعقيدها ومش مستاهلة".

ثم أضاف وهو يمسك بكوب العصير الخاص به: "النهاردة الصبح لما جيت معاك وحضرت تسجيل الفيديو، حسيت إنك غريب عن العالم دا يا يحيى.. مش عارف إحساسي صح ولا لأ، بس إنت مش شبه كل ده، ومعتقدش إنك مرتاح وانت بتعمله".

ثم أضاف بعد أن شرب بعض العصير، وأشار بملامح طفولية تُنبئ باستحسانه لطعمه: "ممتاز والله، عمايل إيدي دا خد بالك، اشرب هيعجبك.. اوعى تفهم قصدي إني بقول على اللي شفته صح أو غلط، أنا ما بحكمش على حد، وأساس شغلانتي دي إني ما بقيِّمش حد.. أنا بس حسيت إنك مش شبه كل ده، مش شبه العالم اللي أنا شفتك النهاردة جزء منه".

استمعتُ لحديثه وأنا مُطرِق الرأس في صمت، خائفٌ أنا، هذا ما أدركته من رعشةٍ سرت في جسدي وأنا أستمع لحديثه، أخاف من مصارحة نفسي بحقيقة أن ما يقوله صحيح في مضمونه، وأنني أحيا في اغترابٍ كامل عن كل شيءٍ أمارسه، حتى تفاصيل حياتي اليومية التي دفعت بنفسي إليها يُخيَّل إليَّ أحيانًا أنني أشاهدها من الخارج، وأن هناك شخصًا ما يفعل كل هذا، يكتب هذا المنشور

t.me/qurssan

التافه جلبًا للمزيد من المتابعات، يبث هذا الفيديو بعد أن يسرق فكرته الرئيسية من قناة يوتيوب لشاب آسيوي، هذا شخص آخر غيري، يحمل ملامحي واسمي مضافًا له لقب «الحاوي»، لكني أحيانًا، كثيرًا في الواقع، أشعر أنني لا أعرفه.

عُدتُ للواقع على صوت دكتور «سلمان» يصيح وهو يُلوِّح بذراعه اليُمنى في الهواء: "يا عم! بكلمك! رُحت فين؟! شكلك سرحت.. المهم، عاوزك تحكي لي أكتر عن علاقتك بأبوك، إنت والدتك مُتوفية يا يحيى صح؟".

أجبته باقتضاب: "صح، الله يرحمها".

أمَّن على دعائي، واعتدل في جلسته، منتظرًا مني أن أحكي.

كم يبدو التذكُّر ثقيلًا على قلبي، لكني بحاجة لأحكي، أدرك هذا الآن.

أبَعد كل هذه السنين، يكون ما أتذكره من ذلك اليوم هو فص الخاتم الفضي المميز الذي يرتديه أبي في خنسر يده اليمنى، وهو يقترب من وجهي بسرعة؟

كأن عقلي ثبَّت المشهد عند هذه اللقطة، في جزء من الثانية التقطها كالكاميرا الدقيقة، واحتفظ بها في أرشيفه ليعذبني بها للأبد.

t.me/qurssan

تهوى يده ذات الأصابع الطويلة الدقيقة على وجهي، صفعة لن أنساها أبدًا.. تراجعتُ من قوة الضربة، واصطدمتُ بكرسي الصالون من خلفي.. يدا أمي تحاوطاني وهي تنهيه بصرخةٍ ألا يضربني أبدًا، وصوت أبي يتعالى وهو يمسك بمسرحيةٍ ليوسف إدريس، وجدها بين مُذكرات الدروس.. دفنت وجهي في كتف أمي، كنتُ أريد الاختفاء عن العالم، فمرارة الإحساس بالإهانة المفاجئة عصفت بتكويني كُلِّه.. كانت المرة الأولى والأخيرة التي يضربني أبي فيها، لذا فلن أنساها.. علامة فارقة في كل ما هو آت من حياتي.

أبي، الرجل الضحوك المُحِب، يصيح بي مهددًا متوعدًا لو واصلت الطريق الذي أسير فيه.. كنتُ طالبًا في الثانوية العامة، مراهق يعيش مرحلة التمرُّد بكل ما فيها، تمرده هادئ، تمرد يشبه شخصيته، تمردتُ على المذاكرة، فصار تحصيل الدروس شيئًا مملًا تعافه نفسي.. بين الكتب أجد ذاتي الحقيقية، في السينما تتألق روحي كنجمة أعطتها السُحب المنقشعة أخيرًا فرصة اللمعان والتألق.. وحدي، في غُرفتي الموصدة، أقف لأمثل مشاهدًا أحفظها من أفلام ومسرحيات ومسلسلات شاهدتها، أتقمص حال البطل ومشاعره، صحيح أخفض صوتي، لكني أمثل، نعم، هنا أجد أنني أنا، هذا ما أحبه، أمَّا دروس الكيمياء العُضوية فلها ناسها.

أغلق أبي مكتبته في وجهي، منذ اليوم الذي طردني منها لم أدخلها أبدًا، لكنني خلقتُ لنفسي عالمًا مستترًا لا يعرف عنه شيئًا..

t.me/qurssan

أمي كانت تعرف، ولا تتكلم بخصوص الأمر حتى معي، في تواطؤ صامت متضامن لا يُعلن عن نفسه، فلم تمنعني من قراءة الكتب التي بدأت في شرائها وتخزينها سرًا في خزانة ملابسي، كانت تشاهدها وتوهِمني أنها لا تراها.. تعرّفتُ على صديقي «سامي»، وأبيه تاجر الكتب المحترف في سوق الكتب بـ «النبي دانيال».. انفتح عالم المعرفة أمامي من يومها، ولم تعد النقود حائلًا بيني وبين الكتب.. أستعير ما أشاء وأعيده سليمًا كما أخذته، كنتُ أقرأ بجوع لا يهدأ، قرأتُ في كل شيءٍ تقريبًا، وفي كل مكان، حتى داخل قاعات دروس الثانوية العامة.

هل كان هذا تحديًا لأبي؟ لسُلطته في منعي عن أي ميول أدبية أو فنية مبالغ فيها، ورغبته الشديدة في دفعي دفعًا نحو التفوُّق الدراسي؟

لم أشاهد أبي قاسيًا أو منفعلًا أو غليظ القلب إلا عندما كان يتعلق الأمر بهذه النقطة؛ كأن شيطانًا يتلبسه ويجعل منه شخصًا آخر لا أعرفه.. ستصبح طبيبًا، هكذا قرر هو، لا نقاش فيما يخص هذا الأمر.

هكذا خلقتُ لذاتي عالمًا سريًا بالكامل بعيدًا عنه، وكانت هذه لحظة الصدام بين العالمين، عالمي السري والعالم الذي سايرته فيه.. ألقى بالمسرحية على الأرض، في المسافة الفاصلة بيني وبينه، ثم قال وهو يضغط على أسنانه: "هو دا اللي هيضيعك.. ابني لنفسك مستقبل الأول وبعدين ابقى اقرا واعمل اللي انت

t.me/qurssan

عاوزه، بس بطريقتك دي هتضيع.. هتضيع وماحدش هيرحمك"

وفي عينيه طالعتني ذات النظرة الحزينة المنكسرة، التي ستظل تطاردني لسنين.

كنتُ طالبًا في الصف الثاني الثانوي عندما حدث هذا الصدام الذي سأتذكره طويلًا فيما بعد.. أيامها كانت الثانوية العامة مقسومة على سنتين، ولم أكن مهتمًا بها، كنتُ أذهب للدروس لأداء الواجب، وأحيانًا كنت أتجاهلها لأجلس في مقهى وحيدًا أقرأ في رواية أو كتاب يروي تاريخ المسرح.

فتنني فن المسرح على الرغم من أن علاقتي به اقتصرت على القراءة، لكن شيئًا في روحي تعلَّق به، بكل ما يخصه، بتاريخه ومراحل تطوره وأنواعه، بممثليه من المعاصرين ومَن رحلوا. بنصوصه المطبوعة، ما كُتب منها بالعربية وما تم ترجمته.. أريد أن أصبح ممثلًا، في المسرح بالتحديد.. في التقمُّص أجد نفسي. أشعر أنني حي عندها فقط تقريبًا، في هذه الدقائق القليلة التي أمثِّل فيها في غرفتي أشعر عندها كأنني أحيا بعد موتٍ طويل. أعود إليه في حياتي العادية، التي أجد كل شيءٍ فيها تقريبًا مُحبطًا سخيفًا، بلد كامل غارق في النوم حتى أحاطه العفن من كل اتجاه، كل شيء متكلِّس بليد كأنهم نزعوا الحياة من الناس وحوَّلوهم لتماثيل من الشمع.. لم تكن اهتماماتي السياسية واسعة حينها. وبدا عالم الإنترنت لي منفذًا حرًا لكنه بعيد لأنني لا أمتلك اشتراكًا في المنزل، فلم يكن استخدامه متاحًا لي إلا من خلال «السايبر»

t.me/qurssan

الذي كنتُ أذهب إليه مرتين كل أسبوع تقريبًا.. الرئيس يرغب في توريث ابنه، والابن يرغب في خلافة الأب على العرش، والبلد، البلد التي يبذلون كل شيءٍ للحفاظ على حُكمها؟ تحتضر تقريبًا، ولا أحد يلتفت، أصوات معارضة هنا وهناك، أقرأ لهذا وذاك، أحمس وأقتنع وأفكر في مستقبلي في بلدٍ كهذا، لكن في النهاية، هل يمكن أن تُحدِث هذه الأصوات تأثيرًا؟

لم أكن أظن هذا، لكني كنتُ أتابع عن بُعدٍ، وأترقب دون أن أنورط في أي شيءٍ سوى المتابعة.

وعن قربٍ كانت أمي تتابعني في صمتٍ متواطئ غير معترض، فقد كانت تدرك جيدًا أنني لم أعد أهوى الدراسة، وأنني بشخصيتي العنيدة لا يمكن إجباري على شيءٍ لا أريده، لم أعد الطالب المتفوق الذي كُنته حتى بدايات المرحلة الإعدادية، عندما كان وجودي بين العشر الأوائل في المدرسة من طبائع الأمور.. كانت برقة مشاعرها وميلها لإعطائي حريتي منذ الصغر ترغب في عدم اعتراض طريقي، فقد كان بداخلها يقين أنني لستُ من الطراز الذي سيضيع، سأجد طريقي للتحقق والنجاح، لكن بالشكل الذي يناسبني، وليس الذي يناسب أبي، ويرغب في أن أصدق أنه يناسبني حتى لو لم أكن مقتنعًا بهذا.

بصحبة سامي، بدأنا نتسلل تدريجيًا لعالم المثقفين المحدود في الإسكندرية؛ للإسكندرية «وسط البلد» الخاصة بها كالتي توجد في العاصمة «القاهرة»، نسخة سكندرية تحمل نماذجًا متناثرة من

t.me/qurssan

المهتمين بالشأن الثقافي بشكله العام.. وكانت بوابتنا لهذا العالم متجسدة في الأستاذ «محمود الشادوفي».

عرَّفنا عليه عم «سامي» والد صديقي، حيث كان يعرفه منذ سنين بحكم أنه بائع الكتب الأقدم في شارع النبي «دانيال»، وأستاذ «محمود» واحد من أقدم زبائنه.. يُعرِّف أستاذ محمود نفسه دومًا على أنه «شاعر العامية والزجَّال»، هكذا يقول التعريف كاملًا غير منقوص أبدًا لكل مَن يصافحه في أول مرة.. بدا لي شديد الاعتداد بنفسه، حتى بعد أن جاوز الستين، فهو حريص على ارتداء البذلة الكاملة برابطة العنق كل يوم.. صحيح أن معظم ملابسه قديمة وتقترب من البلاء، لولا عنايته الشديدة بها، إلا أن هذا لم يُنقِص من عزيمته أبدًا في الظهور كل يومٍ كأنه ذاهب لحفل تكريمه.

أُعجب كثيرًا بي وبسامي، لكن يبدو أنه رأى فيَّ ما قرَّبني منه أكثر من سامي، مع أنه ابن صديقه.. أسمعنا قصيدته في أول مرة تعرَّفنا عليه فيها، نفس القصيدة التي سأسمعه يُلقيها مئات ـ وربما آلاف ـ المرَّات فيما بعد.. صحيح أنه كان بوابتنا لعالم المثقفين بالإسكندرية، ومعه دخلت لمسرح حقيقي لأول مرة في حياتي، إلا أن شيئًا غير مريح تجاهه كان يتولد بداخلي مع الوقت.. يُعرِّف نفسه دومًا أنه شاعرٌ، ولا يُنشِد إلا قصيدة واحدة، صحيح أنها قصيدة جيدة، لكن هل لا يمتلك غيرها؟

t.me/qurssan

كان شكلنا ـ أنا ومحمد سامي صديقي ـ غريبًا ونحن نذهب الفاءات أصغر مَن فيها يكبرنا بعشر سنوات على الأقل، ونحن نحمل مُذكرات دروس الثانوية العامة، لكننا بالوقت اندمجنا سببًا مع الأجواء، وصِرنا معروفين بدرجةٍ معقولة في الوسط الأدبي السكندري، خاصةً «سامي» الذي كان يمتلك مجموعة من النصوص الأدبية المتفردة بالنسبةِ لشخصٍ في عمره حينها.. وكنتُ ألعب دور المراقب الصامت في معظم الأحيان بحُكم طبيعتي الميَّالة للتأمل والاستماع أكثر من الحديث.. وبالوقت بدأتُ أعرف أشياء كثيرة عن الأستاذ «محمود»، الذي لم يكن يحكي عن نفسه شيئًا تقريبًا، من هو؟ ومن أين أتى؟ هل هو متزوج أم لا؟ في ماذا كان يعمل؟

وبدأتْ الصورة تتشكل، حكاية من هذا وتعليقٌ جانبيٌّ من هذه.. أستاذ محمود شاعر بالفعل، لكنه شاعر القصيدة الواحدة، لم ينل استحسانًا أو تشجيعًا إلا على هذه القصيدة التي يعيد إلقائها كل يوم تقريبًا على جمهورٍ مختلف، وأحيانًا نفس الجمهور إذا لم يجد جُددًا.. لهذه القصيدة نال جائزة وتكريمًا من وزارة الثقافة في سبعينيات القرن الماضي، وكتب الكثير والكثير بعدها، دون أن يعيره أحد انتباهًا حقيقيًا، حتى أنه عندما أراد جمع ما كتبه منذ عدة سنوات، اضطر لطباعة كتاب «الأعمال الكاملة» الخاص به على نفقته الخاصة، مما استهلك جزءًا من مدخراته.. كان يأمل أن يلقى الكتاب بعض النجاح بعد طباعته، وأخذ يوزعه بنفسه

t.me/qurssan

على المكتبات وأكشاك الكتب في القاهرة والإسكندرية، لعلّ الناس تعرفه أخيرًا بعد سنين قضاها في الظلال.. بعض أصحاب المكتبات صدُّوه منذ البداية، ومَن غلبهم بسيف الحياء، أعادوا له النُسخ كاملة تقريبًا فيما بعد، حتى أن بعض الخُبثاء يتندرون أنه لم يبع من «أعماله الكاملة» سوى نسختين في القاهرة العامرة! كانت ضربة شبه قاضية لأمله في أن يقرأه الناس، واكتفى بتوزيع الكتاب مجانًا على مَن يقابله في الوسط الأدبي.

أرمل هو، ماتت زوجته منذ سنين.. وله ابنٌ واحد سافر للخليج منذ ١٠ سنوات، وقد كفَّ أستاذ «محمود» عن تسوُّل اهتمامه ومكالماته منذ عدة سنوات، لم يعد قلبه يتحمل استدرار عطف ابنه الوحيد، الذي انشغل بزوجته وأطفاله، واقتصرت علاقته بأبيه العجوز على مكالمة لا تتكرر أكثر من مرتين كل عام.. يحيا العجوز في وحدة مُطبقة، خاصةً بعد خروجه على المعاش في الوظيفة التي كان يعمل بها في وزارة الثقافة.

وبمرور الوقت بدأت أدرك أن أستاذ محمود يُعامَل برثاءٍ من المحيطين به أكثر من كون الأمر أنهم يُقدِّرونه.. لكني بدأت ألاحظ أن الكثيرين يسخرون منه بشكلٍ خفي حتى وهم يتحدثون معه، بالتحديد فيما يخص قصيدته إياها.

ولم يكن هو غبيًا كي لا يرى السخرية والرثاء نحوه في عيون الآخرين.. وكان رد فعله يتمثل في نوباتٍ من الغضب كانت تخرج به عن وقارهِ في بعض الأحيان، كان أبيض البشرة أصلع الرأس

t.me/qurssan

بشكلٍ كامل، وكانت غضبته عظيمة كوقاره، لا يتورع خلالها أن يسب بأبشع الألفاظ الزمن والقوّادين الذين أبعدوه عما يستحق ليظفروا هم بكل الولائم والعطايا والأمجاد والمناصب.. في غضبته كنت أرى ما يعتمل بداخله من إحساسٍ بالظلم يداريه تحت هيبة الوقار والترفُّع عن المكاسب، لكنه في حقيقة الأمر كان مهزومًا؛ يدرك جيدًا أبعاد هزيمته، لكنه لا يملك شيئًا حيالها سوى الرثاء لنفسه في صمت، وأحيانًا يكسر الصمت بالغضب، وهل يوجد على الإنسان أثقل من ألا يقدر على إظهار انكساره، لأن كرامته أكبر عنده حتى من أن يُبدي حُزنه؟ الحزن يسكن القلب المُغلَق على ألمه حتى يُبليه.

كنتُ أراقب نوبات غضبه وثورته على وَسط المثقفين، وساخاته المُعلنة والخفيّة، وفي آخرها دومًا كنت ألمح نفس النظرة في عينيه، نظرة انكسار لشخصٍ تأبى كرامته عليه أن يظهر مُنكسرًا وإن مزَّقه الألم.

مال دكتور «سلمان» بجسدهِ إلى الأمام وهو يسألني بحماسٍ استغربته: "تفتكر كان إيه تأثير أستاذ «محمود» وحكايته عليك في المرحلة دي يا يحيى؟".

ضحكتُ بالرغم من الهمّ الذي كان يعتمل في صدري، وقلت له بسخرية: "هو أنا جاي أجاوب عن استفسارات تخص حياتي

t.me/qurssan

ولا انت اللي مفروض تجاوب لي؟ مش دي عيادة دكتور نفسي ولا فيه إيه؟!".

أطلق ضحكة عالية، ضحكته طفولية بالرغم من وقار مظهره والعوينات الغامقة التي لا يخلعها أبدًا.. ثم قال وهو يحرك البطة الصغيرة إياها بين أصابعه: "على فكرة إجابات الإنسان عن نفسه بتكون أصدق من أي تحليل نفسي، بس الشطارة إننا نشيل شوية الحاجات اللي بتعكر الشوف، تخليك تشوف نفسك صح وتقول لي شايف إيه، ساعتها بندردش حوالين اللي انت شايفه ده.. فهمت قصدي؟".

أومأتُ برأسي إيجابًا، وحكيتُ له أن أستاذ «محمود" كان له تأثيرًا كبيرًا عليَّ بالفعل، ليس في حينها فقط بل وحتى الآن. يبدو لي أحيانًا أن كل مخاوفي من الفشل، والتجاهل، تأتي لي من مطالعتي عن قُربٍ لحياة ذلك العجوز.. أخاف هذا المصير، أخاف أن أكون ثقيلًا على الهامش، يستمع من حولي لحديثي فقط لأنهم يشعرون نحوي بالرثاء، أخاف أن أحكي ما يُثقِل قلبي لمَن لا يهتم من الأساس، ويتصنع نحوي محبة أساسها إحساسه تجاهي بالشفقة.

قلت له فجأة وقد خرجت عن سياق حديثي عن الماضي: "صحيح إنت ما بتاخدش ملاحظات في نوتة ليه زي ما بيعملوا؟".

أطلق ضحكة طفولية أخرى وقال: "إنت مصمم تحطني في الصورة النمطية بتاعة الدكاترة ليه؟ بآخد ملاحظات هنا يا سيدي".

t.me/qurssan

وأشار لرأسهِ بسبابته.

ابتسمتُ له، وذهني غارق في أفكارٍ أخرى غير حديث الماضي، كعادتي السيئة التي لم أتخلص منها أبدًا منذ مراهقتي، هاجمني الأحزان فجأة دون سبب، يأتيني سبب القلق يجثم فوق روحي كغيمة سوداء، زاهر توفيق! ماذا سأفعل معه؟ وفيما يريدني يا تُرى؟

بدا أنه لاحظ شرودي والهَمّ الذي خيَّم على ملامح وجهي، فقال لي وهو يضع يده اليُمنى على كتفي برفق: "مالك يا يحيى؟ هو حصل حاجة قُريب مضايقاك؟".

لا أعرف السبب، لكن شيئًا بداخلي ارتجّ بلمسته الرفيقة على كتفي، لمستُ فيها شيئًا من الصدق والاهتمام، اهتمام يتجاوز علاقة الطبيب والمريض، لكني سُرعان ما طردتُ الفكرة السخيفة من رأسي، لا يمكنني اعتباره صديقًا لأنه يؤدي عمله ويستمع لحكاياتي! لكني على كل حالٍ قررتُ أن أحكي له عن مكالمة «زاهر توفيق» الغامضة.

اكتست ملامح وجهه بعلامات الجدية والاهتمام وهو يستمع لي، ثم صمت هُنيهة قبل أن يقول بلهجةٍ تحمل نبرة التحذير:

"لازم تروح له، واحد زي دا ما ينفعش تتحداه بالتجاهل أو تشتري عداوته.. روح له بُكرة زي ما طلب منك.. اسمع أكتر وركز كويس أوي في كلامه، الراجل دا خطير ومش سهل أبدًا، أنا عارفه كويس".

t.me/qurssan

لاحظ علامات الاستغراب على وجهي عند قوله أنه يعرفه جيدًا، فأكمل حديثه وشبح ابتسامة على شفتيه:

"ما تستغربش كده، إنت عارف كويس إن زاياني مش بعيد عن العالم بتاع «زاهر»، عشان كدا لما أقول لك إن الراجل دا خطير ونابه أزرق، لازم تصدق كلامي وتُحطه في اعتبارك.. مش بقول لك وافقه في لحظتها على كل اللي بيقوله، ولا تخضع له أو تتعامل بتذلل، أنا عارف إن دا مش طبعك من الأساس وإن مناخيرك في السما، بس بوضح لك.. اتعامل معاه بتقدير بس بحدود، حسسه إنك مش خايف منه، دي أهم حاجة".

هززتُ رأسي موافقًا على كلامه، مقتنعًا بالفعل بما يقول، لكن القلق كان ما يزال ينهش في قلبي.. شردتُ لثوانٍ، ثم أعادني صوت دكتور سلمان قائلًا:

"الوقت اتأخر.. روَّح دلوقتي وهستناك بُكرة بالليل نكمل كلامنا، بصراحة أنا نفسي أفهم ليه والدك كان مصمم يبعدك عن الكتب بالتصميم ده؟! بس مش وقته، إنت شكلك مُرهق.. حاول تنام كويس عشان القعدة مع الشيطان اللي هتقابله بُكرة ده، خُد حذرك زي ما قلت لك".

وربَت مرة أخرى على كتفي، قبل أن أنهض.

t.me/qurssan

وهو يودعني على باب الشقة قال لي ضاحكًا: "صحيح أنا مابزك تقول لي «سلمان»، بلاش لقب دكتور دا عشان أنا مش مجوز، أنا عندي ٣٦ سنة على فكرة، مش أكبر منك بكتير أوي.. مستناك بُكرة، ومش لازم تبعت إيميل، خلاص اعتبر الميعاد اتأكد".

وقبل أن أستدير مُتجهًا للمصعد، ويغلق هو الباب، استوقفني بضغطةٍ على يدي وهو يقول بصوتٍ بدت في نبرتهِ الصدق: "خُد بالك من نفسك يا يحيى".

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(١١) التئام

لم أكن مُرتاحًا للساعةِ التي جعلني «زاهر» أنتظرها في حجرة السكرتارية الخاصة به؛ أعرف هذا الأسلوب جيدًا، ولم يعجبني أن يستخدمه معي في المرة الأولى التي يلتقيني فيها، الإرهاق النفسي بالانتظار الذي لا معنى له إلا الرغبة في تأديبي وتقليم أظافري قبل أن أحظى بشرف مُقابلته، رسالة غير ناطقة يُخبرني من خلالها أن أتأدب في حضرته.

وكم أكره هذا الأسلوب!

ضغطتُ على أعصابي بكل ما أملك أثناء انتظاري في حجرة السكرتارية، وزاد من بؤسي القهوة الرديئة التي شربتها بعد دخولي، ونظرات السكرتيرة المُريبة تجاهي، وأسلوبها المائع في التحدُّث معي، تتأملني وأنا غير ملتفت لها كأنني تمثال من الشمع، وفي عينيها انبهار زائف.. بالتأكيد تعرفني من خلال الإنترنت، لكن

t.me/qurssan

يبدو أن طبيعة عملها هنا تحظر عليها أن تفعل تجاهي ما هو أكثر من هذه الحملقة!

وأخيرًا، جاءتْ لتخبرني السكرتيرة الهائمة أن «الحاج زاهر» في انتظاري.. استغربتُ من اللقب الذي نعتته به، لقبٌ لا يناسب فخامة المبنى الذي نجلس بداخله؛ منذ زمن لم أدخل مكانًا تنطق كل تفصيلة فيه بالفخامة كمبنى هذه الشركة، وكل شيءٍ في موضعه المناسب، لكن يبدو أن اللقب يتناسب مع تفصيلة وجود الكثير من لوحات الآيات القرآنية في غرفة السكرتارية، بل وفي البهو الطويل الفاصل بينها وبين مكتب «الحاج»، لوحات كُتبت بماء الذهب كما يبدو، أضخمها مُعلَّقة قبل باب المكتب الضخم الخاص بالحاج، تحمل بالخط الكوفي المُذهب نص الآية القرآنية: «وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم".

ابتسمتُ في سري من المفارقة الكوميدية، قوَّاد أخلاقيَ يا زماني الجميل!

تقدمتني السكرتيرة وفتحتْ باب المكتب بحركةٍ بدتْ له مُفتعلة، غريبٌ أمر النساء! يتوترن بشدة في حضور رجلٍ يعجبهن، ويتصرفن بطرقٍ خرقاء غريبة.

تركتها خلفي وتقدَّمت ماشيًا داخل حُجرة المكتب، التي بدت لي أوسع من اللازم، لم أتخيل في حياتي يومًا بمثل هذه الضخامة الفخمة أبدًا، الآيات القرآنية تُزيِّن الحوائط بشكلٍ مُلفت كما هو الحال في حجرة السكرتارية والرُدهة.. حالة وسوسةٍ واضحة بإظهار

t.me/qurssan

الديُن، هكذا قلتُ لنفسي.. خلف مكتب ضخم يحمل الطراز الإسلامي بلمسة حداثية، جلس رجلٌ عريض المنكبين يرتدي جلبابًا أبيض وفوقه عباءة بُنية اللون، وفي يده اليُمنى هاتف غالبًا هو الأثمن في العالم، وفي يده اليُسرى سبحة من حجارةٍ تبدو من على بُعدٍ أنها من النوع الأصلي الذي يُكلِّف صاحبه مبلغًا معقولًا.. كانت ملامح وجهه أقرب للوسامة بخصلات شعره ذات اللون البني، ولم يعرف الصلع طريقه إلى رأسهِ إلا قليلًا قُرب جبهته، وبعض خُصل الشعر الأبيض في جانبي رأسه تضفي عليه وقارًا، وشارب صغير يُزيِّن فوق شفته العُليا.. صورة لرجلٍ صالح طالعتني، كان من الممكن أن يهتز قلبي لكل هذه التفاصيل، فقط لو لم أكن أعرف أنني أُقبل على واحدٍ من أكبر تجار الفساد، وقوَّاد أيضًا.

صافحني من خلف مكتبه، مما جعلها مصافحة باردة، لم يحاول النهوض كاملًا حتى ليصافحني، بل اكتفى بنصف وقفة وهو يمد لي يدهُ بعد أن وضع الهاتف أمامه على المكتب.

لم تعجبني أبدًا هذه البداية، لكن لحظة! هل هذه رائحة حشيش؟

بشكل إراديٍّ التفتُ تجاه ما ظننته مصدر هذه الرائحة القوية في الجو، فوقعت عيناي على مبخرة عملاقة موضوعة على مائدة مستديرة مصنوعة على الطراز الإسلامي القديم.

عدتُ بنظري تجاهه خلف المكتب، فوجدته مُبتسمًا وهو يقول: "استنشاق ريحته بتهدي الأعصاب وتصفي الروح.. تعرف

t.me/qurssan

إن الصوفية كانوا بيستخدموه عشان روحهم تصفى في رحلتهم لربنا؟".

ابتسمتُ وأنا أهزّ رأسي موافقًا على كلامه، ليكمل حديثه وهو يمسك بهاتفه من جديد:

"كُنت لسه ببص على صفحاتك على النِت.. ما شاء الله اللهم بارك ربنا زرع حبك في قلوب الناس.. بس أنا ليا عتاب عليك يا يحيى، بجد زعلان منك!".

صمتُّ في انتظار أن يُكمل حديثه الغريب، أعرف أساليب الضغط النفسي الهادئ هذه، هذا القوّاد يستحق سُمعته بالفعل.

قال في لهجةٍ جادة تشي بالوعظ الصادق: "إنت ليه ما بتصليش يا يحيى؟ دا الصلاة صلة بين العبد وربُه يا أخي!".

ثم ضغط على حروفه وهو ينظر في عينيَّ بتركيزٍ وأكمل: "أنا سألت ناس حبايبي كتير عنك وعرفت عنك كل حاجة، كل حاجة كل حاجة يعني! واستغربت لما عرفت إنك ما بتصليش خالص، مفيش مرة في مسرح أو مكان كان عندك فيه شغل وحد شافك بتصلي لما الصلاة يحين دورها.. ما ينفعش كدا يا يحيى، اعتبرها نصيحة من شخص بيعزّك جدًا وتهمه مصلحتك قبل ما يكون عايزك في شغل".

صمَتُّ غير عالم بما يمكن أن يُرَد به عليه، واكتفيتُ بابتسامة باردة جمَّدتُها على مَلامح وجهي.. لديه حضور طاغٍ لا يمكنني إنكاره، ويعرف جيدًا كيف يُشعِر الجالس معه بأنه الطرف

t.me/qurssan

الأضعف.. في السنين الأخيرة لم أعتد القبول بوضعية الطرف الأضعف، لكن الظرف الحالي يفرض عليَّ الهدوء.

استكمل كلامه وهو يعبث بالسبحة الثمينة بين أصابع يده اليُسرى:

"مش هعطلك، أنا مقدر إن أكيد مشغولياتك كتير.. إحنا عايزينك في شغل بإذن الله، أو بمعنى أوضح عايزين نكمل شغلنا معاك.. منكرش إننا عجبنا جدًا المردود بتاع الفيديو بتاع امبارح عن المستشفى، شاطر يا يحيى جدع! مش خسارة فيك أبدًا ثقتنا فيك".

يبدو أن ملامح الغباء التي ارتسمت على وجهي رُغمًا عني أسعدته، فقد أكمل حديثه بارتياحٍ وهو يبتسم:

"ما تستغربش أوي كده! مجموعتنا هي المستثمر الرئيسي في المستشفى اللي كنت بتصور فيها إنت والعيال صُحابك امبارح.. أومال أنا كلمتك بنفسي ليه؟ إحنا عايزين نكمل شغل مع بعض، ومعتقدش أبدًا إنك مش هتكون مُرحِب بده".

نبرة تهديد مخفية شديدة الذكاء، أدركتُها وأدركتُ أنني في مأزقٍ حقيقيّ لا أُحسَد عليه أبدًا، لأول مرة منذ زمنٍ أكون أنا الطرف الأضعف الذي لا يمتلك المعلومة، الطرف المتأخر بخطوة وأنا الذي اعتدتُ أن أدير ولا أُدار منذ دخلت هذا العالم.

استكمل حديثه وقد أدرك أنه نجح في هزيمتي نفسيًا في الجولة الأولى:

t.me/qurssan

"إنت معزوم بعد بُكرة بإذن الله على حفلة كبيرة بتُقيمها مجموعتنا للأصدقاء.. المعلومات وتفاصيل العنوان وكل حاجة هتاخدها من السكرتيرة وانت خارج.. في الحفلة هنتكلم في كل التفاصيل بإذن الله، الهانم عايزه تشوفك هناك".

ثم قام بنفس الطريقة التي تحمل شيئًا من الاستهانة، وصافحني مُودعًا بكفٍ باردة، دون أن ينتظر ردًا مني حتى.

خرجتُ من حُجرة مكتبه للسكرتارية في الخارج، وبالفعل ناولتني السكرتيرة ورقة مطوية بها عنوان لفيلا في واحد من أرقى التجمعات السكنية التي تقع خارج القاهرة.. ومظروف مغلق به دعوة خاصة «للحفل الكبير» كما كُتِب من الخارج.. تجاهلتُ نظرات السكرتيرة اللزجة، ورائحة العطر الخانق الذي تضعه، فقد كانت الجُدران من حولي تُطبق عليَّ بما يكفي، كل شيءٍ يضيق من حولي حتى يكاد يخترق ضلوعي.

أريد أن أخرج من هذا المكان المُقيت.

وبالفعل، نزلتُ في المصعد الفخم، وبداخلي إحساس بالهشاشة لم يغمرني هكذا منذ فترة.

t.me/qurssan

(١٢) التمام

أحيانًا يصيبني إحساس غريب بالاغتراب، غُربة تضغط على صدري عندما أشعر أن مَن يحيا حياتي الحالية شخصٌ آخر غيري، له نفس الملامح الجسدية، لكني لا أعرفه، أحيا حياة تخص شخصًا آخر غيري، وكم يبدو هذا ثقيلًا على نفسي.

لم أستطع النوم بعد العودة من لقاء «زاهر».. حاولتُ التشاغل عن التفكير في الأمر ولو مؤقتًا، فقمت بنشر صورة لي من الرحلة القصيرة التي قمتُ بها لزيارة مدينة «دهب» منذ شهرٍ تقريبًا.. اخترتُ الصورة بعناية، لا بُدَّ أن يظهر فيها شعار علامة الملابس العالمية على القميص الذي كنتُ أرتديه، هكذا يقتضي عقدي السنوي معهم، لا بُدَّ من نشرِ صورتين كل شهرٍ من خلال صفحتي على موقع «انستجرام»، حيث أمتلك ترسانة من المتابعين، استحققتُ بجمعهم لقب «نمبر وان الانستجرام» الذي أطلقوه عليَّ مؤخرًا.. قصصتُ حواف الصورة بعناية، ليظهر اسم

t.me/qurssan

الفندق في الخلفية واضحًا، هذه صورتي الأخيرة في اتفاقي معهم للترويج لفندقهم الباهظ ذي الخدمات الرديئة.. طبيعة «دهب» الخلّابة لم تخفف من ثقل الرحلة على نفسي حينها، حيث كل شيءٍ في هذا الفندق كان ثقيلًا على روحي كأنني أحمل قالبًا من الصُلب فوق قلبي، لكنهم دفعوا لي مبلغًا مُجزيًا ساعدني على ابتلاع فكرة الترويج لهم.

انهالتْ مئات التعليقات على الصورة خلال دقائق من نشرها، تعليقات تشي بالانبهار في معظمها، هناك تعليق أو اثنان من رجلين يسبانني في المُطلق هكذا.. لم أعد أستغرب حدوث هذا مع كل صورة أنشرها هنا، ولا ألومها بشكلٍ كامل؛ لأنني أدرك أنني أقدِّم نموذجًا للحياة يسبب لمتابعه إمَّا التعلّق المنبهر بصاحبه، أو أن تكرهه بشكلٍ نقي لا يحتاج مبررًا متماسكًا لتبنيه.. تمكّنت من تنمية مملكتي على «انستجرام» لأنني استوعبت قواعده مُبكرًا من خلال متابعات دقيقة للعديد من «الإنفلونسرز» الأجانب.

هذه أرض الأحلام التكنولوجية! المنصة التي ستزداد فيها شُهرتك كلما نجحت في تقديم ما يعجز عنه الناس في حياتهم العادية.. إذا غاب عُنصر «الإبهار» سيخفت نجمك، وليس شرطًا أن تنشر الكثير من خلاله، خاصةً عند حد معين من الانتشار، بل الأهم أن تحافظ على عنصر الإبهار بكل الطرق الممكنة، من خلال الأماكن التي تزورها، والملابس التي ترتديها في صورك، كل شيء في الصورة يجب أن يكون جذابًا حتى ولو في غموضه أحيانًا..

t.me/qurssan

ولا تستثني العلاقات الإنسانية من دائرة الإبهار، فكلما نجحت في تقديم نفسك من خلال نماذج لعلاقات إنسانية مُبهرة في تفاصيلها الظاهرة، حتى لو كانت مُزيَّفة في واقعها، كلما نجحتَ في تسليط الضوء على نفسك أكثر وأكثر.

أخذتُ أقلِّب في صفحتي، أمتلك مئات الصور ها هنا، تمتلئ بالضحكات الواسعة، والعناق المتبادل أو الجلوس بجوار أشخاص معظمهم لا أطيق رؤيتهم، لكنها مُقتضيات حياتي الجديدة التي تفرض عليَّ نفسها.. يمكنني بسهولة تذكُّر أنني في معظم تلك الصور كنتُ تعيسًا من الداخل، وفي أحسن الأحوال لم أكن أشعر بالرضا أو حتى بالراحة تجاه ما يجري حولي غالبًا، كعادتي في السنين الأخيرة، أؤدي الدور المطلوب مني فقط، ويبدو من اقتناع المحيطين بي أن أدائي بارعٌ في معظم الأحيان.

ازداد إحساسي بالهَمّ.. أمسكتُ بهاتفي من جديد، واتصلتُ بالفتاة المُدللة إياها، الصيد الجديد والمنافس المُسلي في لعبة الحب الجديدة التي نمثلها.. أجابتْ قبل أن تكمل المكالمة «الرنَة» الأولى، كأنها كانت تنتظرها في تحفُّز.. افتعلتُ الحزن في صوتي، ولم يكن هذا صعبًا لأني كنتُ مهمومًا بالفعل، وأخبرتها أنني أريدها أن تأتي لي الآن لو أرادتْ.. لم تنتظر لأكثر من ثانية حتى أخبرتني بلهفةٍ أنها ستأتي خلال ساعة على الأكثر، وأغلقتْ المكالمة وقد أرسلتْ لي قُبلة.

t.me/qurssan

أنزلتُ الهاتف من على أذني وابتسمتُ في سخرية.. كم يبدو الوهم مُغريًا حد التصديق لو لم ينتبه الإنسان له!

وقُمت لأقوم ببعض التجهيزات الضرورية قبل وصولها.

ووصلتْ..

تمثال للأناقة والجاذبية الأنثوية كما تبدو في صورها، كل شيءٍ منضبط في مكانه كأنها مرسومة من خلال أحد برامج الكومبيوتر التي تحاكي الواقع، رائحة عطرها الثمين تُعلِن عن مستواها الاجتماعي الآتية منه.. تمتلك وجهًا جميلًا بملامح دقيقة لا أستبعد أن تكون لعمليات التجميل فضلٌ في تناسقه، لها شفتان شهيتان، العُليا منفرجة قليلًا للأعلى تُظهِر جزءًا بسيطًا من صف أسنانها العُلوي الذي يتألق بياضه.

احتضنتني فجأة عند دخولها.. لم أتفاجأ، لكني لم أضمها، حافظت على هدوئي وأبعدتُ يديها برفقٍ من حول رقبتي، ورفعتُ كفها الأيمن نحو شفتيَّ، وقبّلته في هدوء.

خَطَتْ للداخل في صمتٍ وهدوء وهي تتأمل الشقة من حولها.. أخذتُ بيدها وأجلستها في موضعٍ مُعيَّن على الكنبة الأنيقة التي تتصدر الصالة.. سألتها إذا ما كانتْ ترغب في شرب القهوة معي، فأشارت بالإيجاب وفي عينيها لمعة انبهارٍ أعرفها.. تركتها جالسة وذهبتُ للمطبخ، وبدأت في إعداد القهوة على مهلٍ، أريد تركها على راحتها.

عُدت بعد دقائق طالتْ، أحمل قهوتين على صينية أنيقة..

t.me/qurssan

وضعتها أمامها على المنضدة، وجلستُ على كرسي بعيد عن موضع جلوسها.. لمحتُ في عينيها استغرابًا من جلوسي بعيدًا عنها، لكنها اختارت أن تواصل الابتسام بعذوبة وهي تطلب مني أن أدلّها على مكان الحمام.. أشرتُ في اتجاه الرواق الذي يقع الحمام في اليمين منه، وجلستُ أتأملها وهي تسير نحو موضع إشارتي وفي يدها حقيبتها.

تأملتها بعد خروجها، واقفة أمامي آية في الجمال والإغراء، ترتدي قميص نوم زهري طويل، مفتوح قليلًا من عند مفرق صدرها، وفوقه «روب» شديد الشفافية.. ابتسمتُ في إعجابٍ وأنا أتأملها، قبل أن تقول وهي تبتسم بدلال: "مش كدا أحلى من لبس الخروج الخنيق؟".

فأجبتُ مُبتسمًا في حب: "طبعًا.. بس عايزك تقعدي شوية، عايز أتكلم معاكِ في حاجة.. واشربي قهوتك عشان هتبرد".

جلستْ في موضعٍ أقرب إليَّ من مكان جلوسها الأول، ومدتْ يدها ممسكة بفنجان قهوتها، بينما أمسكتُ فنجاني مثلها وسألتها بصوتٍ محايد:

"إنتي بتحبيني بجد؟".

بدا لوهلةٍ أن السؤال بطريقته هذه، وبتوقيته، فاجأها قليلًا.. قالتْ وعلى ملامحها ملامح استهجان وبنبرة غاضبة قليلًا: "إنت لسه عندك شك في دا يا يحيى؟ حتى بعد ما جيت لغاية عندك؟".

t.me/qurssan

ابتسمتُ وأنا أضع الفنجان على المنضدة، وأمسك بهاتفي وأمرر إصبعي على شاشته الذكية، وأجبتها:

"حقك عليا، أنا معترف إن عندي مشاكل ثقة بالبشر عمومًا.. بس عندي ثقة عمياء بالأجهزة! بحبها جدًا وبصرف عليها أكتر مما تتخيلي.. بُصي هوريكِ حاجة هتبسطك".

ووجهتُ هاتفي تجاه وجهها حيث جلست قريبًا مني، وأكملت حديثي بنبرةٍ هادئة:

"يعني دا مثلًا تسجيل من كاميرا صغيرة على شكل مكعب زهر طاولة محطوط على الرف اللي هناك ده، أيوه وراكي أول ما قعدتي في البداية.. كاميرا عالية الدقة بشكل لا تتخيليه وبتتوصل لا سلكيًا بموبايل صاحبها، وتنقل له بث مباشر.. الكاميرات ما بتكذبش، بس البشر بيكذبوا.. يعني إنتِ مثلًا بتكذبي عليا من أول ما عرفتيني، يمكن كذبتي على نفسك كمان.. إنتِ متأكدة إنك حبتيني؟ واللي بيحب حد بردو يبعت لصاحبته «مُنى» يقول لها... استني أرجَّع الفيديو وأقرا لك.. شُفتي دقتها العالية! شاشة موبايلك واضحة في الفيديو أهو".

ثم عدَّلت الهاتف لأقرأ ما كانت تُرسله لصديقتها عبر «واتساب»، بعد أن تركتها وحيدة ودخلت أعد القهوة:

"مش هتصدقي.. أنا عند يحيى في البيت.. عرفتِ بقى إني أقدر أدخل بيت أي راجل عاجبني مهما كان صعب يا متخلفة! هبقى أصورهولك لو عرفت بس طبعًا من غير ما ياخد باله.. دا

t.me/qurssan

شكله غلبان أوي!".

وضعتُ الهاتف أمامي على المنضدة، واعتدلتُ في جلستي واضعًا ساقي اليُمنى فوق اليُسرى، ثم أكملتُ بأريحية:

"إنتِ كنتِ متراهنة عليَّا ولا إيه؟ شفتي بقى إن عندي حق مصدقكيش ولا أصدق أي واحدة دماغها زبك؟ إنتِ حلوة، حلوة أوي من برة، بس لا حبتيني ولا هتعرفي تحبي أساسًا.. هو انتِ عرفتيني عشان تحبيني ولا تكرهيني؟ إيه حبيتي صورة الواد الجامد اللي قالب السوشيال ميديا والبنات هتموت وتوصل له؟ من الأول وأنا مش هصدقك، بس هي لعبة بتسلى بيها، وكل مرة بلعبها بتثبت لي إني للأسف صح.. إنتِ حلوة أوي من برة بس فالصو، كل حاجة فيكِ فالصو مع إنها غالية أوي.. حتى شفايفك الحلوة اللي زي الفراولة دي غالبًا صارفة عليها كام عملية عشان تبقى كده".

نظرتُ لها لأول مرة منذ بدأت كلامي، رأيتها تبكي في صمتٍ وهي تنظر للأرض وقد احمرَّ وجهها وكأن الدم سيخرج منه، تجاهلت دموعها وقلتُ بنبرةٍ حازمة في عصبيةٍ متصاعدة:

"

اللعبة خلصت.. أكيد طبعًا فاهمة إني مش عايز أسمع عنك تاني.. آه صحيح، فوقنا كدا قُرب السقف بشوية موجود كذا كاميرا صوروكي بقميص النوم الجميل ده.. غيَّري هدومك بسرعة وانزلي، ونصيحة سيرتي متجيش مع أي حد تعرفيه.. لا بالحلو ولا بالوحش.. أنا لما بتعصب بتهوَّر، وجايز ساعتها أنزل لك صور

t.me/qurssan

تخليكِ مشهورة أكتر مني! آه ويا ريت تنزلي على السلم، بلاش الأسانسير عشان مش عايز منظرك يعرِّني في العِمارة.

نظرتْ لي، وقد رفعت أنفها في محاولةٍ للملمة كرامتها، وفي عينيها تلتمع نظرة غضبٍ مقهور، فصرخت فيها فجأة: "برَّه!.

ودخلتُ غرفتي دون أن أنظر لها من جديد، وصوت انفجار نحيبها يصل لمسمعيَّ،

وبداخلي داهمني إحساس مضاعَف بالقرف تجاه كل شيء، حتى نفسي.

t.me/qurssan

(١٣) التمام

لم أستطع منع نفسي من الضحك ودكتور سلمان يقف أمامي واضعًا مريلة المطبخ حول جسده، وفي يده ملعقة خشبية كبيرة عليها آثار بعض الصلصة.. فاجأني ظهوره لي على الباب بهذا الشكل، فلم أعتد رؤيته إلا بمظهر الطبيب الجاد حتى لو كان متباسطًا بحكم تركيبة شخصيته الغريبة.. رفع عويناته ذات العدسات الغامقة إلى أعلى، لتداري عينيه تمامًا، وقال بعصبيةٍ مُفتَعلة ترغب في السخرية: "والله البلد دي مش عايزة حد على حقيقته! بتضحك على إيه يا باشا؟ كنت بطبخ بامية! إيه الدكتور النفسي مبياكلش؟ طيب والله ما هأكلك منها".

ثم ضحك وهو يسير إلى الداخل، وتركني أدخل حجرة المكتب وحيدًا، ولحق بي بعد دقائق.

t.me/qurssan

جلس إلى المكتب وسألني: "قبل أي حاجة، إنت وشك مقلوب ليه كده؟ وبعدين جاي متأخر عن ميعادك ساعة ونص! احكي لي، حصل حاجة غير مقابلة زاهر توفيق؟ دا أنا عرفت إنت عملت إيه معاه لما كلمتك من شوية، بس شكل كدا فيه حاجة تانية حصلت".

ظللتُ في هذه الحيرة طوال الطريق من شقتي للعيادة، أفكر هل أحكي له ما جرى مع الفتاة أم أتجاهل الموضوع؟ ولم أستقر على شيءٍ حتى وصولي إلى هنا.. كنتُ ممزعًا من داخلي بين ألف شيءٍ وشيء، ظللتُ صامتًا هُنيهة قبل أن أقرر أن أحكي له كل شيء، أريد التخلص من هذا الثقل.

حكيتُ له كل شيء تقريبًا، أحسستُ بالكثير من الخجل وأنا أروي، لكن رافقه إحساس بالراحة بدأ يتسرب إلى قلبي، لعلِّي الآن أفهم لماذا يذهب المسيحيون إلى الاعتراف في الكنيسة أمام «الأب»، في الحكي عما لا نحب، في نفوسنا راحة في إعادة اكتشاف ذواتنا من خلال ما نحكيه.. لم أكن ما فعلته مع الفتاة ثقيلًا على روحي بهذا القدر إلا بعد أن قصصته بصوتٍ مكتوم على مسمعيّ «سلمان»، الذي جلس يستمع لي في هدوءٍ كعادته، ولم يُعقِب إلا بعد أن انتهيت، وقال متنهدًا:

"من أول ما اتقابلنا، وكل ما تحكي حاجة عن حياتك بحس إنك بتنتقم من نفسك قبل أي حد تاني.. عَمَّال تجرَّح في نفسك بحاجات مش شبه شخصيتك، على الأقل أنا شُفت فيك حاجات

t.me/qurssan

مش شبه الحياة اللي بتُحط نفسك فيها بالغصب.. بس عمومًا أنا لسه عايز أفهم ليه والدك كان واخد معاك الموقف دا من موضوع القراية تحديدًا؟».

شعرتُ بالأشياء تتغير من حولي، أثاث الغُرفة يذوب، زمنٌ من بعيد يحل مكان اللحظة الحالية..

أشمُ رائحة البحر في أنفي..

كانتْ من المرَّات القليلة التي خرجتُ فيها بصُحبة أمي بمفردنا، وأنا في سن النُضج.. زهرة ياسمين صغيرة الجسد جلستْ جواري في الكافيه المُطِل على البحر الذي اختارته بعناية.. لم تكن أمي كثيرة الخروج من المنزل، دومًا كانتْ تقول أنها لا تجد روحها إلا في البيت، ولا تشعر بالأمان الحقيقي إلا بين جُدرانه التي خلقت بداخلها عالمًا خاصًا، يغلفه صوت «محمد فوزي» الذي لا ينقطع من جوارها أبدًا.. لها وجه مستدير كالقمر، وكفان صغيران، وملامح منمنمة كأنها عروس صغيرة صُنعِت بدقة لتبهج الناظرين.. كانت «ست بيت» بمعنى الكلمة، في البيت هي سيدته ومن حبها أصبحت بالوقت ملكته ونحن ضيوفها، وقد كانت تُحسن ضيافتنا بحب.

كُنت أقترب رويدًا رويدًا من امتحان الصف الثاني الثانوي، روحي هائمة بين الكتب، وزياراتي لمسارح الإسكندرية، وحضور

t.me/qurssan

الأفلام، ومتأخرًا جدًّا على قائمة أولوياتي تأتي الدراسة بامتحاناتها وصداعها.. لم أكن أحمل للامتحان قلقًا، القلق يتطلب الاهتمام، وبداخلي لم أكن مُهتمًا بعالم الدراسة بكل ما فيه.. وكانتْ أمي تدرك كل هذا، دون أن نتصادم أبدًا.. على الجهة الأخرى شاب التوتُّر المُبطن علاقتي بأبي، حتى وصل الأمر لشبه قطيعة، لم نكن نتحدث مُطلقًا تقريبًا، وتحت السطح تصاعد إحساس داخلنا نحن الثلاثة في البيت أن المواجهة قريبة، وحتمًا سيأتي الانفجار.

بدتْ أمي شديدة الجمال وهي تلف كتفيها بهذا الشال الخفيف أزرق اللون، نظرتْ للبحر كثيرًا قبل أن تبدأ حديثها، كأنها كانت تستمد القوة منه على البوح بما ستقول، بما سيفسر لي لغز أبي، الذي لم أكن أفهمه حتى تلك اللحظة.

تنهدتْ ووضعت كوب الشاي على المنضدة التي أمامنا، ثم قالت وهي تتجنب النظر إلى عينيَّ، وتركز بصرها على الأفق بعيدًا:

"أنا عارفة كويس إن الدراسة مش في دماغك.. ومش عايز تجيب مجموع ولا داخل دماغك كلام أبوك عن مستقبلك اللي بيحلم لك بيه.. أنا مش خايفة عليك، بالعكس، أنا عايزاك تمشي مشوارك بنفسك وعارفة إني ربيت راجل، وواثقة إنك عاقل ومش هتضرنا فيك أبدًا.. المستقبل بايد ربنا وحده، ومحدش عارف اللي إنت غاويه دا يمكن يوصلك للي أحلى وأعلى من أي وظيفة في الدنيا.. أنا بسمعك وانت بتمثل بالليل في أوضتك، كذا مرة وأنا قايمة لصلاة الفجر بسمعك، بتسحب عشان متحسش بيا

t.me/qurssan

وبسمعك.. ما بتمثلش قدامي ليه يا والا؟!".

ابتسمتُ خجلًا من كلامها، كانت تلك المرة الأولى التي تتحدث لي أمي بما في قلبها بهذا الشكل، كُنت فرحًا خفيفًا بما تقول، كنبي وجد أخيرًا مَن يستمع لدعواه.. أكملتْ حديثها وقد اصطبغ وجهها الحزن مرة واحدة:

"أنا خايفة تكره أبوك، ومش عاجباني الفُرقة اللي إنت وهو فيها أبدًا.. أبوك راجل طيب يا يحيى، مش هتلاقي قلب أبيض زيه، وبيحبك فوق ما تتخيل.. بس إنت ليك حق تبعد عنه، بردو الخنقة اللي هو بيحاول يحاوطك بيها صعبة على دماغ ناشفة زيك.. تعرف إنك وارث طبعه؟ إنتوا الاتنين شبه بعض بس مش حاسين.. صحيح يا يحيى، عُمرك ما سألت نفسك إحنا سميناك يحيى على اسم مين؟".

أجبتها بأنني سألت أبي وأخبرني أنني سُميت على اسم عمي، أخوه الأكبر الذي مات في حادث سيارة وهو مراهق.. ولم يكن يَزيد على هذا شيئًا، وفي كل مرة كنتُ أفتح سيرة عمي الراحل يزداد شعوري بمدى وطأة الحزن الذي يضغط على روح أبي عندما يتذكره، وبالوقت بدأتُ أتجنب المزيد من الأسئلة كي لا أضايقه.

أخذتْ نفسًا عميقًا، كأنها تشحن شجاعتها لما ستفعل، ثم أخرجتْ مصحفًا صغيرًا من حقيبتها التي وضعتها على الكرسي المجاور لها، ثم وضعته أمامي وقالت:

t.me/qurssan

"احلف على كتاب ربنا إن اللي هتسمعه مني هيفضل بيني وبينك، وإن أبوك مش هيعرف عنه أي حاجة".

مرق في دمي إحساس جارف بالخوف والتوتُّر.. وضعتُ يدي اليُمنى فوق المصحف الصغير، وأقسمتُ كما طلبتْ.. وضعتْ المصحف في حقيبتها، وبدأت تحكي بصوتٍ متقطع حزين.

بالفعل لي عمٌ اسمه «يحيى» سُميت على اسمه، لكنه مات وهو في العشرينيات من عمره، بعد أن تخرَّج من الجامعة، وليس في مراهقته كما رُوي لي.. ولم يمت في حادث سيارة، بل منتحرًا غارقًا في البحر، في الساعات الأولى من عام ١٩٨٠.

كان من المنخطرين في السياسة، شاب يافع شديد الوسامة، والحيوية، والإقدام على الحياة.. يساري الهوى، أحبَّ فكرة العالم الذي يتساوى فيه الجميع بغض النظر عما يملكون من مال، فالمال والحقوق وكل شيءٍ للجميع بالتساوي.. في وقت صعود التيار الديني في الجامعات، بعد عقد اتفاقية السلام مع إسرائيل.. وكانتْ الجامعة تغلي، ومعها بيت «يحيى» الأكبر يغلي خوفًا على الشاب الذي دخل عالمًا خطيرًا بقلبٍ أخضر ونفسٍ حالمة.. وكان لأبي أخوه الصغير «مصطفى» يراقب ما يجري في صمت، وُلدا في بيت مُعلِّم اللغة العربية، جدي «محمد»، الذي زرع في الصغيرين حب الثقافة والمعرفة، فلم يوجد حولهما منذ الصغر أكثر من الكتب على تنوعها.

t.me/qurssan

لكن الابن الأكبر «يحيى» لم يكتفِ بالتثقُّف، أراد تغيير البلد بما امتلك من ثقافة ومعرفة، وأحلام.

دخل المعتقل بعد أن شارك في انتفاضة الخبر في مطلع عام ١٩٧٧، وبداخله كُسِرت أشياء لا يعلمها إلا الله.. دخل المعتقل، لكنه لم يخرج منه، هكذا كان جدي يقول، ابنه دخل المعتقل وخرج بدلًا منه شخص آخر بعد عدة شهور، لا علاقة له بابنه «يحيى» إلا ملامحه، دون أي شيء آخر كان فيه.

الرفاق تساقطوا واحدًا تلو الآخر، معظمهم باع القضية وانخرط بعد التخرُّج في اللعبة بقواعدها الجديدة.. تبرأوا من الأحلام، وغاصوا في طين الواقع، ومَن تمسك منهم بالأفكار النبيلة تم عزله، وظل تحت المراقبة مع تهديدٍ مستمر بالاعتقال في أية لحظة إذا ما حاول أن يعود لأفعال الشقاوة والتظاهرات وهذه الأشياء.

تخرَّج من الجامعة في العام التالي، دون روح، دون رغبة في الحياة، انتزعوا مصباح روحه وتركوه يواجه الحياة هكذا.. كان يردد لمَن يُلحون عليه كي يفضفض: "أنا عِشت أكبر وهم ممكن أي إنسان يعيشه".

ظلّ في عذابه قرابة سنتين بعد تخرُّجه، لم يلتحق بوظيفة بسبب انغماسه في حالة اكتئابٍ مُزمن، لم يكن يغادرها إلا في نوباتٍ قليلة كان يبدو فيها قريبًا، ولو قليلًا من الشاب المُفعم بالحياة الذي كان عليه.. وبين صعود وهبوط سارتْ حياته، وحزن

t.me/qurssan

دفين يسيطر على الأسرة، حزنٌ سيطغى مع بدايات ١٩٨٠، في ليلة حالكة الظُلمة، صحت فيها الأسرة الصغيرة على خبر انتحار ابنهم الأكبر.

مات أبوه بعده بشهرين، مات مقهورًا على فلذة كبده الذي أحرقوا روحه؛ لتلحق زوجته به بعدها بأيام، كأنها استثقلت الحياة دون وجوده، ليجد «مصطفى» نفسه وحيدًا يواجه الحياة وهو طالب في الجامعة.

ترك له أبوه ما يستره، لكن روحه كانت قد أُدميت للأبد.. فقد أسرته بالكامل خلال شهور، واحدًا تلو الآخر.. واعتملت في ذهنه فكرة واحدة: بدأ كل شيء من عند أخيه «يحيى» بسبب تعلقه الزائد بعالم الكتب، والفن، والاهتمام بالسياسة والشأن العام بالتبعية لتحصيل المعرفة.

قرر أن يخلق لنفسه عالمًا لا تكون الثقافة فيها إلا رافدًا هامشيًا.. تخرَّج من كلية الهندسة، وتم تعيينه في الجهاز الحكومي.. أعاد تجديد شقة أبيه التي سيتزوج فيها لاحقًا زوجته الجميلة «منال»، الأخت الصُغرى لأحد زملائه في العمل، الوردة الصغيرة التي زلزلت كيانه من طلعتها البهيّة الأولى عليه.

مسحتْ أمي دموعًا انسابت على خديها رُغمًا عنها، ثم أكملت وقد تجرعت بعض الماء:

"لما خلفناك بعد أكتر من ٨ سنين جواز، أبوك قلبه اتخطف لما شافك، كان خايف تكون شبه عمك الله يرحمه.. سمَّاك على

t.me/qurssan

اسمه عشان كان معاهد نفسه على كده، وكل يوم كنت بتكبره كانت ملامح عمك الله يرحمه بتترسم على وشك أكتر وأكتر، كأن ربنا كتب عليك تاخد من اسمه نصيب.. وفي يوم من ١٦ سنة، لما كان لسه عمرك يا دوب سنة، قال لي أبوك إنه مش هيحكي لك عن عمك أي حاجة، مالوش لزوم تشيل شيلة الحزن دي كلها وانت متسمي على اسمه.. حتى صوره خفاها من كل حتة، وكان بيقول لك أصل صوره ضاعت والكلام الفارغ ده.. لأ صوره موجودة، بس ما حدش يعرف طريقها غير أبوك.. ومع كل يوم كنت بتتعلق بالكتب أكتر، كان الرعب بيدب في قلب أبوك أكتر، بيشوف أخوه الله يرحمه فيك يا حبيبي.. خايف عليك من السكة دي، اللي شافه أبوك مش سهل.. مش سهل تلاقي نفسك لوحدك وانت لسه في الجامعة، كل اللي حواليك يفارقوك، وتبقى شايف إن السبب ورا دا سكة مشاها أخوك عشان حبها وغواها".

وصمتتْ، كأنها أزاحتْ عن قلبها ثقلًا، لكنها لم تدرك أنها وضعته على قلبي أنا، وبداخلي لم أكن أرتجف من البرد، بل مما هو أثقل، فقد أحسستُ حينها برغبة عميقة في احتضان أبي، بالرغم من كل شيء.

t.me/qurssan

ناولني «سلمان» كوبًا من الماء وهو يُعقِّب: "بس معتقدش إن مشاكلك معاه اتحلت بعد ما والدتك الله يرحمها حكت لك عن كل التاريخ دا اللي ما كنتش تعرفه".

أحسستُ بكثيرٍ من الضيق وأنا أجيبه بنعم، نعم لم تُحَل مشاكلي معه، لكنني على الأقل فهمتُ بما سمعت ما انغلق عليَّ فهمه لسنين.. تعاطفتُ معه بقدر نفوري منه، لم أغفر له أنه قرر أنه سيختار لي مصيري بناءً على ما عاناه مع أخيه الذي لم أعرف عنه شيئًا سوى أنني أحمل اسمه.. ظلّت مشاعري تجاه أبي ملتبسة، لم أكرهه ولم أستطع الاقتراب منه بما يكفي.. كنتُ أراه من بعيدٍ في صورة الرجل المحبوب، الضحوك، الذي يلجأ له المعارف والأصدقاء ليحل لهم مشاكلهم، بحضوره الطاغي ونِكاته الجاهزة لتلسع كالسوط إذا لزم الأمر، كنتُ مُنبهرًا به عن بعد وهو يحيا معي تحت سقفٍ واحد، فلم يكن ما يفصلني عنه جدار غرفتي فقط، بل شعور حاد بالهُجران، كانتْ فكرة أنه قرر أن يُحييني في كذبة تؤرقني، وتُشعِرني بالإهانة وأنا المعتد بذكائي منذ تفتَّح وعيي.. استغلَّ أننا لا نمتلك أقاربًا تقريبًا، إلا بعضهم يعيشون في الصعيد البعيد ولا يزورونا أبدًا، نسمع عنهم فقط أحيانًا من بُعدٍ.. تركني أبي في مساحةٍ في المنتصف بين المحبة والكراهية، ولقد اعتبرتُ هذا عقابًا قاسيًا لم أستحقه، لا أعتقد أنك يمكن أن تفعل بإنسان أكثر قسوة من أن تتركه في مساحة الخذلان الشاسعة بين الحب والكُره، ينظر لكَ ولا يعرف حتى كيف يشعر نحوك.

t.me/qurssan

جلس «سلمان» بالقرب مني، وأكمل أسئلته: "طيب علاقتكم كان إيه شكلها في السنين اللي بعد كده، باقي سنين ثانوي، مرحلة الكلية؟».

كانت ردة فعلي تتناسب مع طبيعة شخصيتي العنيدة التي لا تطيق أن يُفرَض عليها شيء.. هكذا جاءتْ الفكرة لذهني وأنا أروي وقائع ما جرى.. يبدو أن للحكي فائدة لم أكن أدركها في سنين صمتي وعُزلتي! كأنني أعيد اكتشاف نفسي، وما جرى في سنيني من جديد؛ كأن الإنسان لا يدرك ما يعيشه بقدر إدراكه له عندما يحكيه لشخص غيره.

سرتُ على الدرب الذي لم يرده أبي بالضبط، تماديتُ في عدم الاكتراث بالدراسة، وفي القراءة والاطلاع والاهتمام بكل ما يخص المسرح، وتوسيع علاقاتي بأهله في الإسكندرية كلما قدرت على هذا.. انتهتْ امتحانات الصف الثاني الثانوي، ومرَّت أسابيع لتظهر النتيجة.. حققتُ مجموعًا متوسطًا لا يؤهلني لأي شيءٍ مما اعتملَ في ذهن أبي من أحلام.. توقعتُ حينها أن يثور، ربما يضربني، ربما أُطرَد من المنزل، جهزتُ نفسي لكل الاحتمالات وتقبَّلتها في رضا.. لكن رد فعله جاء مُختلفًا عمَّا توقعتُ.

نظر لأمي في ثبات، حيث كانت تقف على يمينه بينما أقف أنا أمامه على بعد أمتار قليلة منه، كانت نظرته لها مزيجًا من التعاسة والتسليم، ثم خبط بكفه برفق على فخذه الأيمن، ورفع رأسه نحوي ورماني بنظرةٍ لن أنساها حتى أموت غالبًا، لأنها لن

t.me/qurssan

تكون الأخيرة التي سيواجهني بها، سأعتادها مع الوقت، في كل مرةٍ أواجهه صامتًا بأفعالي أنني أسير على عكس ما يريد بالضبط. نظرة تحمل إحساسًا عميقًا بخيبة الأمل، وسيلازمني هذا الشعور فيما بعد، أنني خيبة أمل أبي في الحياة..

ثم زفر من بين أسنانه بتسليم: «مبروك»..

ودخل غرفة المكتبة وأغلقها خلفه.

لم يمنعني رد فعله الهادئ الكسير أن أواصل طريقي في الانغماس في كل شيءٍ أراد إبعادي عنه.. بعد ظهور نتيجة الصف الثالث الثانوي، وإتمامي لمرحلة الثانوية العامة بمجموع متوسط يُبعدني عن «كليات القمة»، حاول منعي ببعض النقاش ألا أدخل كلية الآداب قسم المسرح كما أردتُ، وأن كلية «التجارة» تبدو أقرب لمجال التوظيف.. تجاهلتُ نصائحه وصممتُ على اختياري، ولم يواصل هو كثيرًا المعارضة أو حتى النِقاش.. هزَّ رأسه في استسلام، ورماني بنفس النظرة المتشبعة بالأمل الخائب، والخوف من المصير المحتوم.

هل كنتُ مستمتعًا بتعذيبه وأنا أعلم أنني أسير أمامه على الدرب الذي خشاه كثيرًا، وكذب عليَّ كي يجنبني إياه؟ لم يكن يعرف بالطبع أنني عرفتُ حقيقة كذبه من أمي، فابتلع مخاوفه في صمتٍ وتسليم حزين.

عقَّب «سلمان» على حديثي: "وطبعًا أول ما قامت ثورة يناير شاركت من باب إنك تعاقبه أكتر مش كده؟".

t.me/qurssan

هززتُ رأسي بإيجابٍ وأنا أقول: "مش بس كده، دا أنا شاركت في تأسيس الاتجاه الثوري جُوا اتحاد الطلبة في الجامعة، ومفيش مظاهرة ما كنتش بشارك فيها حتى بعد الثورة.. مش عارف كنت بعاقبه ولا بعاقب نفسي، بس عمومًا أنا كنت مصدق أوي في اللي بعمله، مصدق أوي.. وبردو كنت بستمتع بإحساسي إني بعمل الظبط اللي هو خايف منه.. تقريبًا يا سلمان كنت مبسوط إنه بيتألم، كنت حاسس إن كدا بآخد حقي منه".

ابتسم وهو يقول ناظرًا في اتجاهي بتركيز: "تعرف إن دي أول مرة ماتقوليش دكتور؟».

ابتسمتُ في خجلٍ، قلتها دون درايةٍ بالفعل.. يبدو أن هذا الرجل قادر على كسب ثقتي دون أن أشعر، وكم بدا لي هذا مُخيفًا لحظتها، أنا الذي لم أعد أنظر للناس إلا بعين الحذر.

تنحنحتُ قبل أن أقول: "طيب ممكن تقول لي إنت تشخيصك المبدأي لحالتي إيه؟ أنا بعاني من إيه؟ مفروض أعمل إيه يا سلمان؟ أنا مش مرتاح، مش مبسوط والتوتر اللي جوايا جايب آخره بسبب موضوع «زاهر» والهانم بتاعته دي اللي لسه معرفش هي مين".

ردَّ دون انتظار، كأنه كان يتوقع سؤالي: "أنا لسه ما كوَّنتش فكرة دقيقة عن تشخيص حالتك، لسه بدري يا يحيى، بس حاليًا أنا شايف إنك للأسف بتعاني من درجة من درجات الاكتئاب، درجة متقدمة نسبيًا، وطبعًا بذكائك أكيد إنت مُدرك دا من قبل

t.me/qurssan

ما تجيلي.. كل ما بتحكي لي عن حياتك، بفضل أقارن بين اللي بتحكيه وبين اللي موجود دلوقتي، مفيش أي علاقة يا يحيى! كُلنا بنتغير آه بس مش كده، إنت ما اتغيرتش، إنت عايش حياة مش حياتك، دا مش إنت، «يحيى الحاوي» مالوش أي علاقة بالشخص اللي إنت بتحكي لي عنه.. يوم ما جيت معاك مشوار المستشفى حسيت إني شايف قُدامي ممثل، ممثل موهوب بشكل حقيقي، بس إنت بتعمل أخطر دور ممكن أي إنسان يمثله، ما بتحسش إنك بتمثل حياتك اللي إنت عايشها دلوقتي يا يحيى؟ كُنت بتفرج عليك وانت بتتعامل مع الاتنين الشباب اللي كانوا طالعين معاك في الفيديو بعد ما خلصت تصوير، كل حاجة فيك كانت بتتغير، طريقة كلامك، مشيتك، حتى نبرة صوتك الآمرة الواثقة اللي بتهدد من تحت لتحت، طيب فين «يحيى مصطفى»؟ فين الشاب اللي بتحكي لي عنه اللي كان عايش في إسكندرية وبيحب الكتب والمسرح ونفسه يبقى ممثل؟".

صمت هُنيهة كأنه يتركني لأستوعب ثقل ما يقول، ثقيل حديثه لأن هذا بالذات ما كنتُ أهرب منه دومًا.. ثم أكمل بذات الهدوء:

"إحنا عايزين نبتدي نقرب شوية من يحيى مصطفى.. ما ينفعش تفضل قافل على نفسك كده، حاول تكلم حتى صاحبك «سامي» في الموبايل.. مش هقول لك اتصل بوالدك عشان أنا حاسس إن لسه فيه حاجة في علاقتك بيه ما حكيتهاش.. إنت بتقرا

t.me/qurssan

حاليًا؟ يعني في الكام سنة اللي فاتوا دول كنت بتقرا؟".

هززتُ رأسي بالنفي في صمت، ليكمل حديثه:

"طيب حاول تقرأ، حتى لو مجلة ميكي.. واحدة واحدة ارجع للكتب.. اتفرج على أفلام حلوة، روح سينما حتى لوحدك، ولو عايزني آجي معاك يا ريت عشان أنا كمان بروح لوحدي لعلمك.. اخرج شوية من موبايلك اللي بقيت محبوس فيه.. إنت عارف إني كدكتور آخر حاجة ممكن أعملها إني أحكم عليك أخلاقيًا أو أزايد عليك، بس عايز أعرف منك، نوعية العلاقات النسائية الغريبة اللي جكت لي عن نموذج منها النهاردة دي بتكون مبسوط بيها؟ سيبك من إن دا صح أو غلط، مش موضوعنا خالص.. إنت بتبقى مبسوط؟".

واصلتُ الغرق في صمتي وأنا أنظر بتصميمٍ في الفراغ، قبل أن أسأله بصوتٍ مكتوم:

"طيب مش هتكتب لي على دوا؟ مضاد اكتئاب مثلًا؟".

أجابني وهو يبسط ذراعيه على المكتب: "زي ما قلت لك، أنا لسه ما وصلتش لتشخيص دقيق ليك.. وعمومًا أنا ما بلجأش للعلاج بالعقاقير إلا لما أشوف إن اللي جاي لي اشتغل على نفسه وساعتها نبدأ نساعد بالأدوية".

بعد قليل كان يصافحني مودعًا عند باب الشقة، وطلب مني أن أفكر في حديثنا اليوم.. وأن أحدثه في أي وقتٍ أحتاجه فيه.

t.me/qurssan

ونزلتُ شاعرًا بالخوف ـ مما مضى، ومما هو آتٍ ـ يأكل قلبي.. تتصارع الأفكار بداخلي حتى تلتهم بعضها بعضًا كالنيران تأكل حطبها، لكن ذهني بدأ يُركز هواجسه على الحفل الذي دُعيت إليه.

آه لو كان بإمكاني عدم الذهاب! لكني كنتُ أعلم أنني لا أملك الخيار، وكم يبدو هذا ثقيلًا على نفسي، لا أكره في حياتي شيئًا كالإحساس بأنني أسير اختيار واحد لأن أحدهم أراد هذا.. لكن يبدو أن عليَّ الاستسلام هذه المرة.

t.me/qurssan

(١٤) التمام

كنتُ أظن أني أعرف حياة الثراء، حتى دخلتُ القصر الذي أُقيم به الحفل المُنتظَر؛ أدركتُ حينها أنني لم أعرف من الثراء والبذخ إلا ما أدركه الشيطان مِن حكمة الله.

لا يمكنك أن تحدد بدقة من أين يأتي الضوء، كأن الأرضية ذاتها تضيء، الأعمدة الرُخامية العملاقة تشع من داخلها، رائحة عطرٍ فاخرة كأن الهواء داخل القصر غير الذي يتنفسه البشر خارجه.. البهرجة من حولي لم يكن لها حدود، حتى أحسستُ للحظاتٍ أن عقلي لا يستوعب أن ما يُحيط بي حقيقي فعلًا، وموجود هنا في مصر، في ذات البلد التي أصبح الملايين من أهلها يبيتون ليلهم دون عشاء، وأحيانًا دون غداء أيضًا.

وصلتُ بعد أن كان الحفل قد بدأ بالفعل.. سرتُ في طريقٍ طويل تحاوطه الأشجار متوسطة الطول من على الجانبين، وعلى

t.me/qurssan

مسافاتٍ متقاربة يقف رجال أمنٍ مفتولي العضلات، يبتسمون للداخلين، ويتبادلون التعليمات من خلال أجهزة لاسلكي صغيرة يحملونها في أيديهم.. اصطحبني أحد رجال الأمن من البوابة حتى باب القصر، حيث وجدتُ «زاهر» يقف فاتحًا ذراعيه في استقبالي، في هيئةٍ تختلف تمامًا عن التي رأيته بها، ارتدى بدلة أنيقة دون رابطة عُنق، وترك الزرَّين العلويين من القميص دون إغلاقهما، في مظهرٍ أنيق متصابٍ قليلًا.. احتضنني بشدة كأننا أصدقاء قدماء، ثم سبقني للداخل وهو يقول لي: "أهلًا بيك يا بطل، طالما حضرت حفلة من حفلاتنا تبقى بقيت واحد من عيلة المجموعة".

فهمتُ من كلامه أنه يقصد بـ «المجموعة» أنها الكيان العملاق الذي تُديره «الهانم» المجهولة لي حتى الآن.

أخذني في جولة داخل قاعات القصر الفسيحة، حتى ظننتُ أنه ممتد بلا نهاية.. الحفل مُقسَّمٌ لعدة حفلات متوازية تُقام في عدة قاعات متوازية، يحضره أحباء المجموعة والعاملين فيها والمتعاونين معها، هذا ما فهمته بمرور الوقت.. في القاعة الرئيسية يجلس مجموعة من كبار رجال الأعمال، وبعض رجال الحُكم الذين أعرف صورهم وأسمائهم من متابعاتي القليلة للمواقع الإخبارية.. وبينهم يدور خدمٌ كُلهم ذوي بشرة سمراء.. في زي تقليدي أبيض بحزام عند منتصف الجسد وعمة مُحكمة على الرأس، كأنني داخل أحد القصور الملكية في زمنٍ غابر، والجمع

t.me/qurssan

الفخم يجلس في مجموعاتٍ صغيرة، يجمع كل مجموعةٍ منهم نفاش ما، تدور الكئوس بين الأيدي وتعلو الضحكات، وفي الجو موسيقى هادئة نسبيًا لا تعلم من أين تأتي، غالبًا من سماعات عملاقة مدفونة بعناية في السقف شاهق العُلو.. لم نُطِل كثيرًا البقاء في هذا القسم من الحفل، ولم يُعرفني «زاهر» على أحد من الحضور، واكتفى بتحيات مبتسمة تبادلها مع بعضهم وأنا أسير بجواره مبهور الأنفاس.

لتنفتح لنا القاعة المجاورة، التي كان يدور بها حفل مختلف تمامًا عن مُجاوره..

كأنني دخلتُ للتوِّ قاعة ديسكو عملاقة، أضواء ملونة تدور في المكان بشكلٍ هيستيري يتناسب مع الموسيقى الصاخبة التي تأتي من كل مكان، ومن حولي ضيوف معظمهم في سن الشباب، عرفتُ بعضهم، بينهم ممثلين في بداية مشوارهم، وبعض الإعلاميين الشباب الذين لم يتصدروا الواجهة بعد، كان الجميع منتشيًا بالخمر والرقص والأحضان والقُبلات المتبادلة، يبدو أن القيود مرفوعة هنا بين الجنسين، وبين المحتفلين تدور خادمات في زي شبه عارٍ، يشبه مايوه السباحة لكن الشورت أطول بقليل، وتتدلى من مؤخراتهن ذيول من الفرو غريبة الشكل، تجعلهن كأنهن قطط عملاقة.. تأملتُ وجه الخادمة التي أرادتْ أن تقدم لي كأسًا من الخمر أظنه، كانت أجنبية غالبًا من إحدى دول شرق، لم تنجح الأصباغ الثقيلة التي غطت بها وجهها أن تُخفي ملامحها الجميلة

t.me/qurssan

بصدق، وإن شوَّهتها الضحكة البلاستيكية التي ثبتتها على وجهها كأنها لافتة إعلانية.

اعتذرتُ لزاهر بأنني لا أشرب، فصرف الخادمة بإشارة سريعة من يده، قبل أن يرفع صوته بجوار أذني: "فُك يا يحيى! إحنا جايبينك هنا عشان تتبسط وتبقى واحد مننا.. إنت هنا بره الدنيا، انسى شوية نفسك".

ثم التقط كأسًا من الخمر كانت تحمله إحدى الخادمات، ثم رفعه على فهمه وتجرعه باحترافيةٍ على مرة واحدة، قبل أن يقول لي بلهجةٍ عادتْ لجِديته التي رأيته بها أول مرة: "يلَّا بينا عشان تقابل الهانم".

كان الجو من حولي مُربكًا جدًا لي، أنا الذي اعتدتُ الهدوء حتى توحدتُ معه.. هززتُ رأسي موافقًا، ورفعتُ رأسي لأرى ما لم ألحظه مع صدمة الدخول، هناك في صدر القاعة، منصة معدنية مرتفعة قليلًا عن الأرضية من حولها، ومحاطة بشريط قماشي أحمر يرتكز على عدة أعمدة معدنية كأنه حاجز، يقف بداخل حيزه فتاة بملامح أوروبية، لها جسدٌ أنثوي صارخ، تتلوى مع إيقاع الموسيقى، وبدأتُ أدرك ببطءٍ، كأن عقلي يأبى استيعاب ما ينقله له عصب الإبصار من خلال عينيَّ؛ أنها تخلع ملابسها بتناغم مع الموسيقى، حتى كادتْ أن تصبح عارية، ومن حولها يهلل المتفرجون من الرجال والفتيات الذين التفوا في حلقةٍ من حولها.. جذبني «زاهر» من ذراعيَّ وهو يضحك قائلًا: "يلَّا مش

t.me/qurssan

وقت فُرجة يا يحيى! هبقى أخليها تعمل لك شو مخصوص ليك لوحدك لو حبيت بعد كده".

عاد بي للقاعة الأولى، حيث الحفل الهادئ ذو الأجواء الملكية، لكنه سار بي هذه المرة نحو طُرقة وقف على أولها رجلي أمن أفسحا الطريق لزاهر ومن بعده أنا، وفي نهاية الطرقة الواسعة وجدنا درجًا يقود للدور العُلوي.. كان عقلي يعمل بأقصى طاقته محاولًا استيعاب كل ما أتلقاه، صعدتُ الدرج خلف «زاهر» كالمسحور، وأنا أفكر في كينونة «زاهر» نفسه، قوَّاد يجلس في مكتبه نهارًا في زي يناسب متصوف زاهد عن الحياة، وفي الحفل يقابلني بمظهرِ كهلٍ متصابٍ يفتح لي بوَّابات ملذات الدُنيا.

كأننا جميعًا نحيا الحياة بأقنعة لا تُشبهنا، حتى نكاد ننسى من نحنُ أصلًا.. هل أختلف عن زاهر كثيرًا؟

لا أدري.

صعدنا للطابق العُلوي، والذي لم يكن يقل فخامة عن القصر في طابقه السُفلي، لكن الهدوء مسيطر تمامًا هنا، لا موسيقى ولا ضجيج، لكنه نفس الهواء المُشبَّع بالرائحة العطرية الفخمة.. سِرنا في ما بدا أنه ممرٌ كبير تتفرع منه جميع حجرات الطابق، وعلى كل حجرة وقف ثلاثة أفراد أمنٍ لا يقلون بأسًا عن الموجودين من أمثالهم في الأسفل.. تقدمنا لما اعتقدتُ أنها حُجرة المكتب الخاصة بالهانم، أفسح أفراد الأمن الطريق لنا، وفتح أحدهم الباب؛ ليسمح لنا بالدخول.

t.me/qurssan

قبل أن أخطو بقدميَّ داخل الغرفة جاء لذهني خاطر عجيب، وهو أنني حتى اللحظة لا أعرف اسم «الهانم» التي من المُفترض أن أرفع رأسي لأراها الآن! لكن زاهر سهَّل علي الأمر وهو يُفسِح لي الطريق مادًا يده في حركةٍ مسرحية وهو يقول باحترام: "ورد هانم، يحيى الحاوي حابب يتشرف بمقابلة حضرتك".

لم تُعجبني الطريقة التي قدمني بها إليها، في الواقع لم أرغب في الحضور أساسًا إلى هنا.. ركزتُ بصري حيث جلست «ورد» هانم في فستانٍ أسود مكشوف الصدر، خلف مكتب فرعوني التصميم، نُقِش على مقدمته من الأمام بالهيروغليفية إحدى العبارات التي تتصدر «كتاب الموتى»، كنتُ أحفظ شكل العبارة منطبعًا في ذهني منذ طالعتُ النسخة العربية منه، والتي صدَّروها بالعبارة الهيروغليفية ثم تليها ترجمتها بالعربية.. قضيتُ ليالٍ في مراهقتي أتأمل شكل هذه العبارات حتى حفظتها كأنها لوحة محفورة في ذهني.

قامتْ ورد واستدارت لتقابلني أمام المكتب، كانتْ فاتنة الجمال في منتصف الأربعينيات غالبًا، لكنها حافظتْ على أنوثتها متألقة، هذا التألق الذي يسبق الذبول التدريجي فيما بعد غالبًا مع دخولها لمرحلة الخمسينيات.. قامتها مديدة بظهرٍ مفرود، لها منكبان عريضان بالنسبة لامرأة، وشفتان غليظتان في غير قبح، بل من النوع المغري لتقبيله.. وجهها له طابع الجمال الأرستقراطي المُعتد بنفسه إياه، لكن عينيها! هذه النظرة الميتة كأنهما عينان

t.me/qurssan

رجاجيتان لا حياة فيهما، لا تُبديان تعبيرًا إنسانيًا، كأنك تنظر في بئرٍ لا قاع له.

غمرني توتر وهي تصافحني ضاغطة على يدي برقة، هل تعمَّدت هذا؟!

قلتُ كعادتي عندما أتوتر وأرغب في امتلاك زمام الأمور بذكر معلومة غالبًا لا يعرفها أحد غيري: "ذوقك عظيم يا ورد هانم، مكتب فرعوني محفور عليه جملة من «كتاب الموتى»".

جلستْ على أريكة عريضة كُحلية اللون وهي تقول، كأنها تقرأ من صفحة مفتوحة في عقلها:

" أنا ابنك المحبوب حورس..

أتيتُ لأثأر لكَ يا أبي أوزوريس من كل ما فعله الشرير سِتْ..

لقد وضعتُ عدوَّك تحت قدميك إلى الأبد يا أوزوريس الظافِر».

لمحتْ الدهشة على وجهي فأطلقتْ ضحكة ذات وهج أنثوي وهي تقول: «إيه يا يحيى؟ كنت فاكرني حمارة ولا إيه؟! معرفش الجملة المنقوشة على مكتبي.. مش انت بس اللي مثقف يا حبيبي».

ثم التفتتْ لـ زاهر الذي وقف مُطرقًا كخادم في حضرة ملكته، ثم قالت بسخريةٍ: «شايف ميزة الثقافة يا حمّار! أهو إنت بقالك كام سنة بتدخل عليا المكتب ده، وعمرك ما فكرت تدوّر على معنى الجملة اللي منقوشة على مكتبي».

t.me/qurssan

ضحك «زاهر» في طربٍ كأنها مدحته، وجلستُ بجوار «ورد» بعد إشارةٍ من يدها تطلب مني الجلوس، وأنا أفكر في عبارة «يا حبيبي» التي ختمتْ بها كلامها إلي، واضطربت معدتي قلقًا من المجهول المُقدِم عليه.

صرفتْ «زاهر» بإشارة من يدها اليُسرى، فخرج في صمتٍ مُغلقًا الباب خلفه، ثم جلستْ واضعة ساقًا فوق ساق، ليبرز فخذها المستدير في امتلاءٍ يغري أي ذكرٍ من فتحة الفستان الأنيق الذي كانت ترتديه، ثم عقدتْ ذراعيها على حجرها وهي تُحدِّق في عينيَّ.. عقد الذراعين، علامة الشخصيات المُسيطرة الأولى! نظرتْ لي بعمقٍ كأنها تُعرِّيني وهي تقول بدلالٍ لم يتخلَ عن اعتزازه بنفسه:

«أنا متابعاك من سنين.. من أول ما ظهرت ونجمك لمع.. من وسط كل الأوغاد اللي على الإنترنت دول أخدتْ عيني وفضلت متابعاك، إنت موهوب، ذكي، عينيك بتنطق يا أخي! نبيه كدا من النوع النادر اللي مبقاش موجود.. الرجالة بقوا فالصو خالص يا يحيى.. وأنا بقدِّر الذكاء».

قالتها وهي تداعب فص الخاتم الذي ارتدته في أحد أصابع يدها اليُمنى، ثم أكملتْ حديثها:

«إنت غالبًا ما تعرفنيش.. أنا ما بحبش الظهور ومالیش في البروباجندا، وجزء كبير من أهميتي في شغلي إني ما بقاش وش مكشوف.. فيه ناس زي زاهر بيقوموا بدا مكاني.. أنا رئيسة

t.me/qurssan

مجموعة اقتصادية بتتحكم في مجموعة كيانات استثمارية عملاقة في مجالات مختلفة، رياضية وفنية وإعلامية وتجارية».

ثم قطعت كلامها فجأة وهي تفتح عينيها كأنها تذكرت شيئًا كادت تنساه:

«إنت لسه ما اتفرجتش على قاعات الحفلات اللي في الدور هنا صح؟ اتفرجت على المزادات بتاعتنا؟!».

هززتُ رأسي نفيًا، فقامت فورًا منتفضة وهي تمسكني من كف يدي، تجذبني وراءها كأننا حبيبين نسير نحو مستقبلنا.. كنتُ مذعورًا أتظاهر بالثبات، ولا أدرك كيف أتصرف.. سرتُ خلفها وكفي في كفها، وقبل خروجي لاحظت المكتبة العملاقة الأنيقة التي تمتد بطول الحائط خلف المكتب، والتي لم ألحظها من التوتُّر الذي انتابني منذ دخولي، يبدو أن «ورد» مثقفة بشكلٍ أو بآخر.

خرجنا لنجد «زاهر» يقف متراخيًا يستند على الحائط في أحد الأركان، لكنه اعتدل عند رؤية «ورد» منتفضًا.. قالتْ له بنبرة آمرة: «أنهي مزاد اللي شغّال دلوقتي؟».

رد عليها بلهجةٍ رسمية تصطبغ بالطاعة: «المزاد الناعم يا افندم».

ثم سبقنا بخطواتٍ سريعة لأحد أبواب الغُرف الموجودة على طول البهو الكبير للدور العُلوي،

t.me/qurssan

وفتحه برفقٍ، لأجد نفسي في غرفة كبيرة فسيحة، أكبر من غُرفة مكتب «ورد» بمراحل، يسودها هدوء وجو رسميّ، حيث جمع صغير من الجالسين على مقاعد متجاورة، لم يكن عدد الجالسين كبيرًا، جميعهم يرتدون البذلات الرسمية الفاخرة، جلسنا في المؤخرة فوق ثلاثة كراسي متجاورة، وبجانبي جلستْ «ورد» لكنها تخلَّت ـ لحسن حظي ـ عن الإمساك بيدي.

في صدر الغُرفة أمام الكراسي المتراصة يوجد منصة خشبية صغيرة، وقفتْ فوقها فتاة ذات شعر بُني، ترتدي فستانًا بُني اللون محتشمًا بالرغم من قصر طوله قليلًا حتى كاد أن يكشف ركبتيها، ملامحها عربية بلا شك.. وعلى يسارها وقف رجلٌ أشيب وقور، يرتدي بذلة رسمية كاملة، وقال بصوتٍ ذي مخارج واضحة وبعربيةٍ فصيحة:

«هدى الصباح يزيد أحمد، سورية الجنسية، هاربة من ظروف بلادها، دخلتْ مصر بشكلٍ غير شرعي ولا تمتلك أوراق هوية ولا أسرة ولا تعرف إن كان أحدٌ من أهلها على قيد الحياة أم كلهم في عداد الموتى، تُجيد الإنجليزية بطلاقة، كتابة وقراءة وتحدثًا، ويمكنها القيام بأعمال السكرتارية والأعمال المكتبية بشكلٍ عام، هادئة الطبع، مُطيعة، لا تُفضل الجنس الخلفي، عدا هذا هي آية في الالتزام بمهامها التي توكَل إليها كاملة، ولها جمال أخَّاذ كما ترون.. ثمن البدء ٢٥ ألف دولار.

ثم قرع جرسًا صغيرًا بيده متحمسًا.

t.me/qurssan

وبدأتْ الأسعار تتزايد من هنا وهناك، وميَّزتُ بين أصوات الجالسين لهجات غير مصرية، وفهمتُ حينها سبب استخدام الفصحى من القائم على المزاد، وإن ظلَّ عقلي غير مستوعبٍ تمامًا لما يجري أمامي.

حُسِم المزاد لأحد الجالسين في الصف الثاني عند ثمن ٤٦ ألف دولار.. ونزلت الفتاة من على المنصة الخشبية، وخرجت من باب القاعة من خلفنا، لتدخل مكانها أخرى، فتاة رشيقة أوروبية الملامح، ترتدي فستانًا يشف أكثر مما يستر، لها صدر بارز ونظراتٍ حادة بالرغم من ابتسامتها العريضة التي صعدتْ بها إلى المنصة الخشبية الصغيرة، وبجوارها وقف البائع بصوته الرنَّان:

«أونيلا.. إيطالية تُجيد الإنجليزية، والإيطالية بالطبع، تعمل كراقصة محترفة، ولا تمانع أن تعمل إذا أراد مالكها ذلك، هاربة من جريمة قتلٍ في بلادها، ومحظور عليها دخول أي بلدٍ أوروبي بسبب هذا.. عدا ذلك، هي وردة متفتحة لا تعرف «لا» أبدًا، ولا تمانع في الجنس بكل أشكاله حتى العنيف منه والخلفي.. ثمن البدء ١٢ ألف دولار.

وتوالى صعود الفتيات، لا أذكر العدد، ربما تسع أو عشر فتيات، من جنسيات مختلفة، وكل واحدة لها قصة، والبائع يطرح مميزاتها وعيوبها كأنها قطعة أنتيكا، والأرقام تُقال من الجالسين، آلاف الدولارات، والبائع يتحمس ويُحمِّس الجالسين، ويُزيد في ذكر المحاسن عندما يشعر بفتور حماس الجالسين.. وفي حلقي

t.me/qurssan

أحسستُ بغصة، وتصاعدتْ لديَّ رغبة مفاجئة في القيء حتى شعرتُ أنني أوشكتُ على قذف معدتي نفسها من فمي.

جذبتُ زراع «ورد» مستنجدًا، وبدا أنها قرأت الفزع وعدم الاستيعاب في ملامحي، فأمسكتْ بكفي في تباسط وقالت بهمسٍ وقد مالتْ برأسها تجاهي، وعن قُربٍ لمحتُ أثر عملية تجميلِ قُرب منبت أذنها:

«مالك مخضوض ليه كده؟ مسمعتش قبل كدا عن مزاد للبنات؟ دول يا سيدي بنات المجموعة هي اللي بتحميهم، كل واحدة زي ما انت شايف سايبة بلدها بمصيبة، وكل واحدة فيهم دخلتْ مصر بفضلنا واحنا اللي بنصرف عليهم ونرجعهم بني آدمين بعد ما بيوصلوا لينا جربانين زي كلاب الشوارع.. بننضفهم ونديهم للي محتاجهم، وكل واحد يختار على مزاجه.. فيه اللي عايز سكرتيرة، واللي عايز رقاصة، واللي عايز مُدلكة، واللي عايز واحدة بتعرف تحكي حواديت.. ما تستغربش أوي كده، أصل العبودية دي مزاج! يعني كل واحد من الباشاوات دول هيدفع اللي بتسمعه دا وهو راضي، ملاليم بالنسبةِ له في مقابل إنه يُملك واحدة، ويُملكها دي بردو المجموعة بتأمنها له، يعني إحنا بنقدم خدمة ما بعد البيع».

ثم أطلقتْ ضحكة قصيرة مكتومة، لمعتْ فيها عيناها الميتتان، ثم أكملتْ حديثها وقد ازدادت التصاقًا بي:

t.me/qurssan

«المجموعة بتضمن للمشتري الطاعة التامة من اللي بيشتريها، وطبعًا الأمان وإنه يطلَّع لها ورق بالبيانات اللي هو عايزها، وكمان بنصرف على البنات دورات تأهيل نفسي لمصيرهم الجديد، واللي ما بتظهرش خلالها الالتزام والطاعة بيتم استبعادها وبنضمها لحاجة تانية أقل.. مال وشك اصفرّ ليه كده؟ تحب نطلع من خنقة المكان هنا؟».

هززتُ رأسي موافقًا وأنا أبتلع ريقي بصوتٍ مسموع، فقامتْ وقمتُ معها، ومن خلفنا «زاهر»، الذي تقدمنا وفتح لنا الباب.. وخرجنا عائدين لمكتبها، وظلَّ «زاهر» منتظرًا في الخارج في البهو الفسيح.

ناولتني كوبًا من الماء مبتسمة وهي تواصل كلامها الذي بدأته في قاعة المزاد:

«ما تبقاش مخضوض كدا وتخيِّب ظني فيك! إحنا مش شركة عادية يا يحيى، إحنا أكبر مجموعة اقتصادية استثمارية، إحنا البلد قايمة بينا ولينا.. بنشتغل في كل حاجة تهم الناس، وعلى مختلف مستوياتهم.. بنوفر كل حاجة ممكن الناس يحتاجوها، ما هو كدا كدا طالما احتاجوها يبقى هيجيبوها، يبقى نوفرها إحنا أحسن، وأهو على الأقل نضمن النضافة والأمان.. أنا عندي مزادات لكل حاجة، بنات زي ما شُفت، وآثار، حتى الرجالة ليهم مزادات بردو، بس مفيش النهاردة.. ما هو زي ما فيه رجالة صحاب مزاج، بردو فيه ستات صحاب مزاج».

t.me/qurssan

ثم جلست بجواري واضعة ساقًا فوق ساق، وأكملت كلامها وهي تنظر لي مباشرة:

«إحنا بنتاجر في كل حاجة، ولينا يد في كل حاجة.. معانا مفيش باب هيبقى مقفول قُصادك.. أنا قلت أوريك المزاد عشان تبقى عارف إحنا مين وبتتعامل مع مين.. أنا عايزاك تبقى الوجهة المستقبلية بتاعة المجموعة في كل الدعايا بتاعتنا، تليفزيون وصحافة وسوشيال ميديا طبعًا.. أكيد مش هيبقى ليك علاقة بشغل المزادات والكلام ده، أنا عايزاك تبدأ بالدعاية لمراكز المساج والعناية بالجسم اللي ماسكها «زاهر»، ومن بعدها هتبدأ حملة مع شركة البرمجيات بتاعتنا عشان شاشات البلازما الجديدة اللي هننزلها السوق خلال ٦ شهور، فيه خطة كاملة محطوطة وتفاصيلها متسابة ليك.. كوِّن الفريق اللي انت عايزه، وإحنا هنشرف بس، رأينا هيبقى استشاري، يعني هبقى شغالة عندك».

قالتها، ووضعتْ يدها اليُسرى فوق ساقي اليُمنى، فأجفلتُ.. لاحظتْ الرعشة التي سرت في جسدي، فواصلت حديثها مبتسمة:

«أنا عايزاك جنبي يا يحيى.. معايا هتوصل للي عمرك ما حلمت بيه.. سيبك بقى من جو إعلان بـ ٢٠ ألف، وستوري على انستجرام تعملها لمحل جزم رياضية بـ ٥ آلاف، إنت كبرت على الكلام دا يا حبيبي.. مش كان نفسك تمثل زمان؟ معايا خلال سنة بالكتير هقدر أخليك نجم مصر الصاعد، وبسرعة الصاروخ».

t.me/qurssan

نطقتْ الكلمة الأخيرة، وطبعتْ قُبلة على خدي الأيمن، بينما بقيتُ متسمرًا دون أن أنطق حرفًا.. قامتْ وعلى شفتيها ابتسامة انتصار، كأنها أدركتْ أنها استطاعت أن تكون صاحبة اليد العُليا باكتساح.. جلستْ خلف مكتبها، وقالت لي عن بُعدٍ وكنتُ ما زلت جالسًا على الكنبة الفاخرة:

«يومين وهستنى أعرف ردك من «زاهر».. ولو وافقت أوعدك إنك مش هتندم.. أنا واثقة إنك هتاخد القرار الصح».

ثم قامتْ، فأدركتُ أنها قررتْ أن المقابلة قد انتهت.. قمتُ مترنحًا، وصافحتها وأنا أتمتم بعبارات شكرٍ لم أكن أدركها جيدًا من فرط اضطرابي، وخرجتُ من الغرفة وبي رغبة مُلحَّة في الركض كأن الشيطان يطاردني.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(١٥) التمام

تأملني «سلمان» بتركيزٍ من خلف العوينات الغامقة التي تخفي عينيه، لكن تركيزه تجاهي جعلني أتخيل شكل نظراته المتفحصة.. كان يومان قد مرا على الحفل الذي تلقيتُ فيه «عرض الشيطان» كما أسميته بيني وبين نفسي، لم أنزل فيها من شقتي ولم أقابل أحدًا، قضيتهما في تفكيرٍ عميق فيما سأفعل.. وفي النهاية استسلمتُ وقررتُ زيارة «سلمان» لعلِّي أجد في الحديث معه سبيلًا للنجاةِ من الهواجس التي سيطرتْ على تفكيري.

واصل تأمله لي وقال في هدوءٍ متشكك: «متأكد إنك حكيت لي كل حاجة؟».

رددتُ بحدةٍ لم أتعمدها: «وانا هخبي عليك ليه يا سلمان؟! ما أنا اللي جيت لك برجليا أهو، وكان بقالي يومين منزلتش من البيت إلا عليك.. حكيت لك عن الحفلة واللي شُفته فيها، وورد

t.me/qurssan

وطريقتها المُريبة معايا وكل حاجة».

عدَّل من وضعية الأشياء البسيطة الموضوعة أمامه على المكتب وهو يقول بهدوءٍ لم يستجب لحدتي كعادته: «أنا بفكّرك بس لتكون نسيت حاجة مهمة.. قلبي بيقول لي إنك يمكن نسيت تحكي لي حاجة حصلت يومها».

لا أنكر أبدًا أن هذا الرجل يمتلك حسًا صادقًا وفراسة لم أصادفها في حياتي بهذا الشكل، لا يستعرض بها أبدًا بالرغم من تسليمي الكامل بامتلاكه لقدرة غريبة على كشف ما يخفيه مُحدثه من حكايته غير المكتملة.

تجاهلني لثوانٍ، انهمك فيها متعمدًا غالبًا في ترتيب سطح مكتبه، يهوى «سلمان» النظام بلا شك، لكنه هذه المرة يبدو أنه تعمد تركي لثوانٍ منفردًا في سكوتي، حتى استسلمتُ وقلت متنهدًا:

«آه فيه حاجة حصلت في الآخر قبل ما امشي ما حكيتهاش، بس ما اعتقدش إنها مهمة يعني».

ضحك فجأة كأنني ألقيتُ نُكتة للتوِّ وقال بسخريةٍ:

«هو مين فينا الدكتور أنا مش فاهم؟! ما تحكي يا عم ومتطلعش عين أمي معاك بقى! أنا الدكتور هنا يا باشا، أنا اللي ينفع يحدد دا مهم ولا مش مهم.. احكي وبلاش سخافة يا يحيى.. خُسارة فيك الهوت شوكليت اللي عملتهولك والله».

حسنًا، سأحكي..

قابلتُ «محمود بدري» أثناء خروجي من باب القصر

t.me/qurssan

الداخلي، عند بداية الطريق المصفوف بالأشجار الفاصل بين باب القصر والبوابة الخارجية الضخمة.. فوجئت به في وجهي تمامًا بينما كان «زاهر» يُلح عليّ في أن أرد على عرض الهانم بسرعة، وأن هذه هي فرصة العُمر التي يجب ألا أرفضها، بينما كنتُ منغمسًا في فكرة واحدة: «أريد الرحيل من هنا حالًا، وليكن بعدها ما يكون».

قاطعني «سلمان» مستفسرًا: «محمود بدري المذيع ده؟».

أجبته بالإيجاب بهزةٍ من رأسي، فقال متعجبًا: «طيب وفيها إيه؟ إنتوا تعرفوا بعض؟».

نفس السؤال الذي قاله «زاهر» عندما بانت على وجهي معالم النفور عند رؤيتي لـ «محمود بدري» وهو يُقبِل علينا مبتسمًا مادًا يده في بشاشة، قبل أن تخفت بشاشته عندما تعرَّف على ملامحي.. كانت استجابته أسرع عندما استعاد بعضًا من تألق ابتسامته الصناعية وهو يقول لزاهر:

«طبعًا أعرف أستاذ يحيى! دا نجم السوشيال ميديا في مصر كلها، هو فيه حد ما يعرفوش؟».

ابتسمتُ في سماجةٍ وأنا أضغط على يدهِ التي مدَّها لي مصافحًا وقلتُ بلهجةٍ ذات معنى، جعلتْ عينيه تهربان مني:

«أنا كمان أعرف الإعلامي الكبير، بس أعرفه من زمان، من زمان أوي.. حتى لو هو نساني».

t.me/qurssan

سمعتُ ممن خاضوا تجربة الاعتقال قبلي أن أسوأ ما في الأمر يتمثل في الصفعة الأولى، الصفعة الأولى بالتحديد تكون أكثر إيلامًا من غيرها، معها تفقد شيئًا كثيرًا من كرامتك وثباتك النفسي، ومع توالي الضربات تفقد الكثير، لكن للأولى هيبةً وألمًا مُضاعَفًا.

مرَّ كل شيءٍ في الليلةِ الأولى كحلم طويل غير مترابط الأحداث، حتى أنني لا أتذكره بالترتيب، كرُؤى متقطعة يجمعها شيء واحد: الألم.

طرقات عنيفة على الباب، أصحو فزعًا وأجري للخارج، بينما صوت أمي تُبسمل بصوتٍ عالٍ يأتيني من خارج غرفتي، وصوت أبي يأمرها أن تظل في الداخل مُعنفًا.

خرجتُ من غرفتي في اللحظةِ التي فتح فيها أبي الباب، اقتحموا الشقة وانتشروا فيها سريعًا، حملوني حملًا بين أذرع قوية، وأخذوا هاتفي وحاسوبي وكل متعلقاتي تقريبًا، وبينما أعافر بين الأيدي الثقيلة، سجَّل عقلي اللقطة سريعًا في الصخب؛ ملامح أمي تصرخ بشكلٍ متتالٍ تستغيث، ونظرات أبي ذاتها، مزيج من الحزن وخيبة الأمل.

صفعات، صفعات، وركل وسُباب.

دخلتُ ما يشبه الغيبوبة، كنتُ بين اليقظة وغياب الوعي، وفي ظل استيعاب عقلي لما يجري، كنتُ أفكر في آخر شيءٍ قد يكون ورد في ذهني من قبل أنه سيزورني في تلك اللحظات تحديدًا: «هل

t.me/qurssan

ما يحدث ذكَّر أبي بما جرى لعمي «يحيى» في الزمن القديم؟».

بالتأكيد ذكَّره، وتألم، وأحسستُ داخلي بمزيج من الحزن من نفسي، والشماتة في أبي.. لا أدري سببًا حقيقيًا جعلني في معظم الوقت أستمتع بإيلامه.. هل كنتُ أشعر تجاهه بالخذلان؟ أحيانًا يُخيَّل إليَّ أنني لم أحب إنسانًا كما أحببته، وظلَّ يُعكِّر روحي إحساسي بأنه استصغرني ولم ير فيَّ رجلًا يمنحه ثقته الحقيقية.

صفعات، صفعات.. يومٌ كامل تقريبًا قضيته أتلقى أنواعًا مختلفة من التعذيب الجسدي، لم يُطعموني فيه إلا مرة، معصوب العينين جلستُ في مكانٍ أجهله، آكل مزيجًا مُقرفًا من الطبيخ الحامض غالبًا.. ثم بدأ التحقيق.

معصوب العينين ذاهل عن الدُنيا جلستُ..

لم أجب على أسئلة المحقق بشيء يعجبه، أنكرتُ الاتهامات وكل ما أعرفه.. لا أعرف شيئًا.. والإنكار يُغضبهم.. بعد فترةٍ لا أدركها، ساعة أو ربما نصف يوم، لا أذكر، قال الصوت المجهول لي بنفاد صبرٍ:

«شكلك كدا عاوز تركب القطر».

لم أفهم ما بدا لي مُزحة ثقيلة، لكن الإجابة أتت سريعًا، وليتها تأخرتْ.

أزالوا العصابة السوداء عن عينيَّ، لأول مرةٍ منذ وضعوني في السيارة المصفحة أسفل منزلنا.. ودُفعت دفعًا إلى حجرة واسعة، بها وجوه أعرفها، نعم هؤلاء أعضاء التيار الذي أنتمي له داخل

t.me/qurssan

الجامعة، زملائي في كلية الآداب وفي كلياتٍ أخرى، وبينهم بقه رجال أشداء يحمل كل منهم شيئًا في يده، هراوة أو صاعق كهربائي أو كرباج، هذا ما سجلته عيناي في لحظاتٍ قليلة، لمحتُ فيها وجوهًا مذعورة أعرفها جيدًا.

صوتٌ غليظ قال لي حاسمًا بسخريةٍ وهو يشير في اتجاه معين من الغرفة: «يلَّا اركب القطر».

لم أتحرك من مكاني، نظرتُ في اتجاه إشارته فرأيت صفًا من الشباب يجرون في دائرةٍ وهمية المركز، كأنهم يدورون حول أنفسهم.. كان صاحب الصوت يقف خلفي، لم ألتفتْ له خوفًا من عقابٍ قد يصيبني به الالتفات، لكن العقابَ أتى بضربة كرباج بثت صعقة كهربائية في جسدي كله، والصوت الغليظ يصرخ غاضبًا: «بقول لك يلَّا اركب القطر!».

جريتُ بما تبقى لديَّ من قوةٍ في اتجاه القطار الذي يبدو أنه يحتاج لانضمامي كي ينطلق.. سمعتُ فجأة صافرة شبيهة بالموجودة في مباريات كرة القدم، كان المحيطون بي من الواقفين في صف القطار فاهمين للإشارة، فقد ركبوا القطار من قبلي، بدأوا في الركض في دائرة، والضربات تنهال علينا من كل جانب، وكل واحد يُصاب بما كُتب له، صعقة أو ضربة كرباج أو رفصة من ساقٍ غليظة أو ضربة على منتصف الساق بسلكٍ من المعدن المرن، الفكرة أن يستمر القطار في الجري دون توقف، ومَن يسقط ألمًا أو يدوخ يتلقى عقابًا أشد، ويعود مرة أخرى للقطار في دورةٍ جديدة.

t.me/qurssan

والقطار يدور، ومَن لا يتحملون الألم يسقطون، فيتعالى صوت الغليظ الذي لا نجرؤ على النظر لصاحبه:

«ما حدش يوقف القطر بتاعي!».

تداخل الزمن في ذهني حتى فقدتُ الإحساس به؛ فصرتُ لا أدري كم قضيت في لعبة القطار اللعينة هذه، قبل أن يقرروا أن نكونا جميعًا في هذه الزنزانة الواسعة، دون أن يحرمونا من نعمة البصر.. في هدوءِ ما بعد حفلة القطار أدركتُ أن جميع أفراد التيار الجامعي هنا تقريبًا، فيما عدا البنات بالطبع، لم يبق إلا واحد انتظرنا حضوره لينضم إلينا في مصيرنا المجهول، واعتبرنا قدومه مسألة مفروغًا منها.

زعيم التيار، ومؤسسه: «محمود بدري».

نجم كلية الآداب قسم الإعلام والصحافة، الزعيم الثوري الشاب المُفوَّه، رمز النضال الجامعي المثقف، صاحب الحضور اللامع وخفة الظل النادرة الذي يحبه جميع من في الجامعة حتى العمال البسطاء وأفراد الأمن.

أين الزعيم؟

تتوالى حفلات التعذيب، حتى فقدتْ الأسئلة معناها، تحت وطأة ألم المهانة تفقد الحياة نفسها معناها، ويصير تمنّي الموت هو الشيء المُعتاد والحلم البعيد الذي تشعر أنه الملاذ الوحيد للخلاص من كل هذا العبث.

أين البدري؟

t.me/qurssan

قال زميلٌ لنا، له خبرة بالاعتقال من قبل، أنهم تركونا هنا في هذه الزنزانة الضخمة سويًا كي يسجلوا لنا ما نقول حتمًا فيما بيننا. فالتزمنا السرية في الحديث حتى اعتدنا الصمتْ.

الأيام تمر دون عرض على النيابة.. هذا شيء مطمئن إلى حد ما، على الأقل هناك أمل أن يُفرَج عنّا دون محاكمات، لعلّها فرصه أذن كي نبتعد عن درب السياسة.

لم نكن سياسيين بقدر ما كُنّا حالمين، رافضين للظلم بكل أشكاله.. مؤمنين بالتغيير لدرجة مُضحكة، حتى أن الواحد مِنّا كان يعتقد أن العالم كله سينصاع لرغباتنا في التغيير، وأننا حتمًا أفضل من أجيالٍ قبلنا تجرعت مرارة الهزيمة بعد فورة الحُلم، نحن جيل الثورة التي أبهرتْ العالم، لن نسمح لهم بسرقتها.

كُنّا مُصدقين لما نقول لدرجةٍ تثير الضحك البائس لي الآن

لكن أين الزعيم؟ أين محمود بدري؟ هل هرب ولم يستطيعوا القبض عليه؟

وفجأة، بعد أن جفَّتْ منابع الأمل بداخلنا، حتى ظننا أننا سنقضي بين هذه الجُدران الباردة ما تبقى من حياتنا، صدرت الأوامر بالإفراج عنّا دون عرضٍ على النيابة.

خرجنا للنور بعد جلسة انفرادية مع كل واحدٍ مِنّا، تلقى فيها قدرًا لا بأس به من السباب والتهديد والوعيد إذا ما عُدنا لما كُنّا نفعله داخل أسوار الجامعة.

t.me/qurssan

تم حلُّ التيار، وصارتْ أنشطته محظورة بشكلٍ كامل داخل الجامعة وخارجها.. كان هذا أول ما عرفناه تقريبًا خلال أيام التعافي الأولى من تجربة الاعتقال.

ولم يعد السؤال عن مكان الزعيم، كما كُنَّا نناديه، مؤرقًا لأذهاننا كما كان..

الزعيم موجود، لم يُعتقَل ولم يُعذَب ولم يُمَس حتى.. اختفى من الكلية، ولم يحضر إلا للامتحانات.. وعندما حضر لم يتحدث مع أحدٍ تقريبًا.

الزعيم معظم الوقت في «القاهرة»، بدأ الظهور في أوساط إعلامية رسمية، لقاء في محطة تليفزيونية وحوار في جريدة رسمية، الزعيم يُعَد كي يصبح رمزَ الإعلام الشاب الجديد، رجل المرحلة المقبلة والواجهة الإعلامية المنتظرة الحاملة للشعلة.

اختفى الزعيم تمامًا من محيط الجامعة خلال السنة الأخيرة.. وبدأت الأخبار تتسرب للسطح رويدًا رويدًا.

باع الزعيم كل شيء، باعنا وباع أسرار التيار بقياداته الوسيطة والصغرى، فتح بريده الإلكتروني للسادة يقلبون فيه كما يشاءون، ذهب إليهم طالبًا الصفح والمغفرة، وضع هاتفه تحت تصرفهم، وبما عليه من محادثات وأسرار وصور، فتح الباب أمام اعتقال المئات، ربما آلاف ممن أُلحقوا بالسجن فيما بعد لسنين، وطلب في المقابل فُرصة، فقط فُرصة يثبت بها أنه يستطيع أن يكون واحدًا من رجال المرحلة الجديدة.

t.me/qurssan

فرصة لبيع نفسه بثمن يُرضيه.

وكانتْ هذه بداية يقيني بأن كل شيءٍ قابل للبيع، طالما حضر الثمن.. بالإضافة لحقيقة بسيطة تشكلت في ذهني ونسجت خيوطًا كالعنكبوت في وعيي: لا شيء حقيقي هنا.

قال «سلمان» بغيظٍ مكتوم: «بقى هو دا اللي مش مهم وما كُنتش عايز تحكيه؟».

ضحكتُ خجلًا وقلت بعد أن ارتشفتُ من كوب الشيكولاتة الساخنة الذي صنعه لي: «غصب عني، ما بحبش أفتكر الأيام دي بالذات، يمكن بحاول أهرب منها جوايا بس أهي بتطلع لي تاني.. البتاع دا حلو على فكرة».

ابتسم وأكمل حديثه: «طيب قول لي.. بعد ما قابلته، كنت بتفكر في إيه؟».

ابتسمتُ ساخرًا، لا من السؤال، لكن من صعوبة الإجابة عليه.. في ماذا فكرتُ؟

في كل شيءٍ تقريبًا، الإسكندرية وأيامها، سنوات الجامعة ورحلتي فيها، ما كنتُ عليه وما صرتُ إليه، هل لو قابلت الشاب الذي كُنته منذ سبع سنوات سيعرفني؟

ربما يُميِّز ملامحي، تتطابق ملامحنا مع بعض الاختلاف في المظهر، فملابسي الآن من أغلى الماركات العالمية، وتتكلف

t.me/qurssan

مالغًا لم أتخيل يومًا أن أرتدي بقيمتها ملابسًا.. لكن أين أنا الآن مه. ذلك الشاب المتأهب متوقد الحماس، المؤمن بموهبته؟

وأين أصبح محمود بدري من الشخص الذي استقبلني عند دخولي الكلية مع أول أسبوع؟

هل كان كل ما فيه مُزيّفًا بالفعل، أم أنه فقد الأمل، ففقد معه كل شيء، وقرر أن يعرض كل شيءٍ حتى روحه للبيع بأي ثمنٍ معقول بالنسبةِ له؟

لم يأخذني أحد من صداقتي مع «سامي» إلا بعد ظهور «البدري» في حياتي، حتى أنني بدأتُ أرى أمارات الحُزن على وجه «سامي» في كل مرةٍ يعرف أنني في مكانٍ بصحبة صديقي الجديد.. في الصداقة تتولد الغيرة بين الأصدقاء المُقرَّبين، خصوصًا عندما لا تمتلك إلا هذا الصديق، فتخاف أن يأخذه منك شخص آخر ويصبح إليه أقرب.. كُنَّا في مطلع الشباب، نودع المراهقة بقلوبٍ امتلأت بأحلام التغيير، تغيير كل شيء، ومع «البدري» وجدتُ ضالتي، الزعيم الصديق الذي يبدو أنه يعرف كل شيءٍ جيدًا حتى قبل حدوثه، ذو ثقافة موسوعية تفوقني بمراحل، وأنا الذي اعتدتُ أن يجلس أبناء جيلي في حضرتي منبهرين بما أمتلك من معرفة.. امتلك روحًا متمردة بالفطرة، وحضور طاغ يستطيع به أن يجذبك لحديثه حتى لو كنتَ غير مهتم في البداية بما يقول لك، بالفطرة امتلك موهبة اكتشاف مفتاح الشخص الجالس أمامه، والتعامل معه بما يريد.. بمرافقته كثيرًا أدركت امتلاكه لقدرةٍ فريدة على

t.me/qurssan

الامتزاج مع مَن يستهدفه الحديث، يتلون باهتماماته وما يح
حتى كأنه يعرفه منذ زمن، فيستطيع أن يقدم لكَ ما كنتَ تتمنى م
حياتك، يستطيع أن يكون الشخص الذي كنت تُمنِّي نفسك بأنا
ستقابله يومًا ما بعد طول انتظار.

تبحث عن صديقٍ يشبهك ويشاركك نفس الاهتمامات
تبحث عن مرشدٍ ينصحك دون أن يُشعِرك بأنه يتفوق عليك
بتجربته وبلا لومٍ على ما ارتكبتَ في حياتك من أخطاء؟

محمود بدري يستطيع دومًا أن يمنحك ما تريد.

لكنه سيسلبك إياه عندما يملّ.. هذا ما أدركه بالرجوع في ذاكرتي، فقد كان مُحترفًا في التقرُّب لأي إنسان، حتى يصبح محور حياته، قبل أن يملَّه ويتركه، ويبرر هذا لنفسهِ بمبرراتٍ لا تنقطع عن الانشغال بأمور الحياة، والاختلاف في وجهات النظر.. كنتُ أصدقه لأنني أحببته بالفعل، كنتُ أبرر له ما يفعله لأن قلبي أراد هذا، وأخذ يُسكِت عقلي في كل مرةٍ كنت أرى فيه ما يُخيفني، حتى استفقتُ على حقيقة أنني أنا نفسي قابل للترك، والقطيعة، لستُ الاستثناء الذي أوهمتُ نفسي به.

هل تغيَّر محمود، أم أنني كنتُ الأعمى في القصة منذ بدايتها؟

لم يحبه «سامي» أبدًا، لم يمتلك مُبررًا واضحًا للنفور من نجم الجامعة الأول، ولم أجد له عُذرًا داخلي سوى إحساسه بالغيرة لأنه أخذني من بقائي الدائم برفقة «سامي» خلال سنين الثانوية وما قبلها.. كان يردد بخصوصه نفس الجملة، لا تتغير: «الواد دا

t.me/qurssan

.. حقيقي».

بعد خروجنا من المُعتقل، لم يعد «محمود» يرد على ..الماتي العديدة، ولا رسائلي.. اختفى من بين أيدينا، وذاب في مجتمع «القاهرة»، ولم يحضر في السنة التالية للجماعة إلا لحضور الامتحانات، وتجنَّب التحدُّث مع أي أحد.. انفصل تمامًا من مجتمع الجامعة الذي كان هو نفسه أحد أركانه ونجومه.. قُتلتْ السياسة داخل الجامعة، وشيّعنا مهزومين هزيمتنا بين أسوارها، ومع مراسم جنازة هزيمتنا الجامعية بدأت حقائق مُخزية تنكشف بالتدريج عن «البدري»، تصاعد الهمس حتى أصبح طنينًا يصم الأذان: البدري مرتبط عاطفيًا بأكثر من عشرين فتاة في نفس الوقت تقريبًا، من مختلف كليات الجامعة، والهمس يتعالى عن استغلاله جنسيًا لمعظمهن باسم الحب ووعود الزواج والحياة المشتركة إلى الأبد، في أرض الأحلام التي ستطهرها الثورة.. وهناك اتهامات من بعض أعضاء التيار السابقين أنه متورط في شبهات اختلاس من مبالغ التبرّعات التي كُنا ندفعها.

تجرَّعتُ أيامها مرارة الخذلان في صمت، وانزويتُ خجلًا من الجميع، خجل من نفسي قبل أي إنسانٍ آخر، تمثَّل في إحساسٍ عميق بالخديعة، له مرارة لا يعرفها إلا مَن تذوقها، وكلما كنتُ مُصدِّقًا، كلما ازدادتْ المرارة في نَفْسك لحظة المواجهة بالحقيقة التي كنتَ تتجاهل رؤيتها عمدًا.

t.me/qurssan

هزّ «سلمان» رأسه في صمت، ولم يُعلِّق على كل ما حكيته عن تلك الأيام.. أعترف أنني بمثل هذا الحكي، بالرغم من كونه مؤلمًا في حينه، أصير أفضل بعد تفريغه.

قرر أن يُغيِّر دفَّة الحديث وسألني: «احكي لي هتعمل إيه مع ورد؟».

تنفستُ بعمقٍ وأجبته بأنني بالتأكيد لن أوافق أن أصبح مُروِّجًا لتجار البشر هؤلاء، ولن أتحمل أن أكون واجهة تسويقية لسلسلةٍ من بيوت الدعارة التي يُسمونها صالات تدليك.. سأتهرب منهم حتى أجد لنفسي مَخرجًا.. وربما ألجأ لصديقةٍ أعرف أنها قد تجد لي حلًا.

ودَّعني على باب الشقة وهو يؤكد على أهمية أن أحاول ممارسة بعض حياتي القديمة على الرغم من الضغوط التي تحاصرني، لا بُدَّ من القراءة، ولا بُدَّ من مخالطة مَن أثق فيهم ولو كانوا قِلَّة.

كتمتُ داخلي تعليقًا أخيرًا لم أخبره به، وهو أنني أحيانًا أشعر أنني لا أثق بأي إنسانٍ من فرط ما كسرتني الحياة من خلال أقرب الناس لروحي.

t.me/qurssan

(١٦) التمام

ضغطتْ «نعمة» على يدي برقةٍ وهي تنظر في عينيَّ وتهمس: «وحشتني يا ابن الأصول».

ابتسمتُ للقب الذي تصمم أن تناديني به ولا تُغيِّره أبدًا.. لكمتني في صدري بدلالٍ وقالتْ بلهجتها الشعبية التي تجيد تقمصها، وتعرف أنني أحبها: «كدا بردو يا واد! دا أنا قربتْ على سنة ما شفتكش! ما وحشتكش نعمة يعني؟».

قلت لها بصدقٍ وأنا أجلس بجوارها على الكنبة المريحة الموجودة بغرفة مكتبها الفخم: «وحشتيني وانتي متأكدة من ده.. وبردو أنا عارف إنك عارفة إني تعبان».

وفي عينيها رأيتُ هذه اللمعة التي أعرفها، والتي رأيتها لأول مرةٍ عند لقائنا الثاني أو الثالث بعد نزوحي للقاهرة منذ سنوات.. كانت من أوائل من التقيتُ بهم بعد قدومي للقاهرة مُقيمًا بها،

t.me/qurssan

تاركًا الإسكندرية بكل ما فيها من جراح خلف ظهري.. فتاة ريفية بسيطة كانت، أدَّبتها «القاهرة» بالقسوة المعتادة، عجنتها وخبزتها من جديد، فأزالتْ عنها خبرتها وأضافت لها سنينًا فوق عُمرها في بداياتها هنا في القاهرة عملت بأحد الكافيهات الفخمة، ومنه بدأتْ تدخل عالم السوشيال ميديا والإعلانات التجارية، العالم الذي تركتْ بلدها خلفها من أجله، صحيح أنها حكتْ لي أنها لم تترك الجنة في قريتها، وأنها كانتْ ترى تشجيعًا صريحًا في عيني أمها كي تسافر؛ زوج الأم له عينان زائغتان، ونظراته لجسد «نعمة» فائر الأنوثة لم تعد خافية، والأم صامتة، لا تقدر على فراق الزوج، لكن فراق ابنتها بدا لها حلًا عادلًا لجميع الأطراف.

عرفتُ نعمة في بداياتها المُبكرة، عندما كانت واحدة من الفتيات اللائي يقمن بتصوير فيديوهات بملابس منزلية قصيرة مفتوحة تُظهر بقدر ما تستر، من أجل الترويج لبعض تطبيقات «الدردشة» التي تجتذب المريدين بهذه الحِيل الرخيصة.

لم تمانع «نعمة» في تقديم التنازلات أحيانًا، لكن في حدودٍ وضعتها لنفسها ولم تتجاوزها أبدًا.

في عينيها رأيتُ حُبًا يتشكل تجاهي، وفي نَفْسي رأتْ بفطرتها الذكية أنني فقدتُ القدرة على مبادلتها نفس المشاعر، وأن ذكريات مريرة لها ملوحة البحر تركتها خلفي في الإسكندرية تمنعني عن هذا الحب.. ظلَّت محتفظة تجاهي بحبها، ولم أمنعها، ولم أقترب أكثر من اللازم كي لا أجرحها، ولا أضغط على أعصابها، حافظنا بيننا

t.me/qurssan

على مساحةٍ من الود المُشترك تحفظ سر الحب المستور جلاله من جراحٍ متبادلة.. هي الوحيدة التي طلبتُ منها المساعدة منذ أتيتُ للقاهرة، ولم تبخل أبدًا بشيءٍ في مقدرتها.

قالتْ لي وهي تواصل النظر لعينيّ، تذكرتُ حينها أن لها عينان زرقاوان أحبهما: «حاسة إنك تعبان.. من صوتك في التليفون عرفك.. قول لي يا حبيبي فيك إيه؟ أقدر أخدمك بحاجة؟ أنا مديونة لك بعُمري وانت عارف إني أفديك لو طلبت».

بعد معرفتنا بعدة شهور، ويأسها من قُدرتي على مبادلتها نفس المشاعر، انخرطتْ «نعمة» في علاقة حب مع الشاعر الصاعد وقتها «سالم توفيق»، قبل أن يُصبح واحدًا من كبار مشاهير السوشيال ميديا فيما بعد.. صدقته وهي التي لم تكن ترى في الرجال سوى أنهم كائنات لا تبدع إلا في إيجاد سبيلٍ لممارسة الجنس معها، لكنها صدقته، نجح في جعلها تُصدقه، وساعدته كثيرًا وكانتْ قد سبقته في الانتشار والشُهرة، وتخلَّت عن كل الوظائف القديمة التي كانتْ تتطلب تنازلات رخيصة أحيانًا، وبدأتْ في العمل بمفردها من خلال حساباتها على مُختلف وسائط العالم الافتراضي.. «نعمة» في جوهرها معطاءة لأقصى درجة، يكفيها أن تحب كي تمنح بلا حدود، منحته المساعدة كي ينتشر، ومنحته المال عندما طلب، ومنحته مشاعرها، لكنها رفضتْ أن تمنحه ما أقسمتْ لنفسها أنها لن تمنحه إلا لزوجها.. صحيح أنها ضعفت وأرسلتْ له صورًا لها ألحَّ في طلبها، لكنها رفضتْ أكثر

t.me/qurssan

من هذا.. وفجأة انقلب الشاعر الرقيق، الذي يتغنى في قصائده بالمظلومية الشخصية، لذكرِ شرس لم تتخيل أنه يُخفيه تحت قشرة المثالية المُزيَّفة، هددها بالصور، هددها بالفضيحة.. كادتْ تُجن أيامها، ولجأت لي، قضيتُ يومين في تحريَات عنه حتى أتيتُ بما ساومته به وواجهته عندما ذهبتُ للقائه بنفسي، نظرتُ لعينيه اللتين يلمع فيهما بريق النار بلونيهما العسلي: :يا تطلع «نعمة» من دماغك وتسيبها في حالها، يا اسكريناتك وانت بتساوم على تمن الحفلة الخيرية اللي اتطلبت ليها ورفضت، وقلت لمنظمها يولع الخير باللي بيعملوه أنا عايز فلوسي، كل دا يطلع للجمهور الجميل، وتحصل الشوشرة الجميلة عليك وانت لسه بتبتدي.. إنت ومزاجك بقى اختار».

وخسرتُ الشاعر-الذي أصبح كبيرًا بعد عدة سنوات- للأبد.. وكسبتُ صداقة «نعمة» للأبد أيضًا.

لكني حافظت عليها صداقة عن بعدٍ.. البعض يجب أن يظل بعيدًا لحفظ الود.

حكيتُ لها كل شيء عن دعوة «زاهر توفيق» والحفل، و»ورد» وطريقتها المريبة معي، وعرضها للعمل معها لصالح «المجموعة».. لم تندهش من تفاصيل الحفل، ولا مزاد الجواري الذي شاهدتُ فعالياته، بل قالت في هدوء:

«لا عادي، دا موجود وأكتر، بس الغريبة إنها خليتك تتفرج على كل ده، الحاجات دي ما حدش بيعرضها كدا لحد عايز

t.me/qurssan

شغله معاه، بس طريقة الستات الشمال اللي عملتها معاك بتفسر الموضوع يا يحيى.. هي عايزه منك اللي أكتر من الشُغل».

ثم قالت وهي تناولني القهوة التي طلبتها لي عند قدومي، ونسيتُها حتى كادت تبرد:

«أنا عارفة «زاهر» كويس، وكالة الإعلانات بتاعتي دي بتخليني أقابله وكتير من اللي شبهه.. وسمعت عنه كتير، تعبان ومعندوش رحمة.. إنت عارف عمل أول فلوس في حياته إزاي؟».

هززتُ رأسي نافيًا، فأجابتْ وفي عينيها ملامح ابتسامة سخرية:

«سرق.. سرق الراجل اللي كان شغّال عنده سوّاق في أمريكا.. «زاهر» دا في الأساس سوّاق، وراح أمريكا من سنين عن طريق واحد قريبه بلعبة ما حدش يعرف سرها غيره، واشتغل سوّاق عند راجل كبير معاه ملايين.. بس ما كانش حواليه حد من أهله، و«زاهر» اتقرب له لغاية ما بقى المساعد الخصوصي بتاعه.. وبلعبة من دماغ إبليس اللي في راسه سرق منه مليون دولار، بس محدش يعرف سر السريقة دي غيره، وهرب من أمريكا على المكسيك، ومنها رجع على مصر، ومظهرش غير بعد كام سنة، لما اتأكد إن الحوار اتنسى والراجل مات في أمريكا.. بس إنت عارف طبعًا بلدنا ميزتها إن مفيهاش سر بيستخبى أكتر من كام سنة بالكتير، وسر فلوسه اتعرف.. ولما حد بيجيب سيرة الموضوع قُدامه ما بينكروش خالص، شوكته قوت ومبقاش يخاف، وبيقول

t.me/qurssan

بعين قوية والسبحة في إيده: «دا كان راجل كافر وماله حلال».

هززتُ رأسي وبادلتها الضحك، وسألتها وأنا أرغب في الاستزادة من المعلومات: «طيب «ورد» تعرفيها؟ أنا مستغرب إني ما سمعتش عن اسمها ولا شفت لها حتى صورة قبل كده!».

قالتْ وقد قامتْ من مجلسها بجواري، وأخذتْ تتحرك في الغرفةِ جيئة وذهابًا:

«أنا عارفاها بس عمري ما شُفتها، ما بتظهرش لا في اجتماعات ولا مؤتمرات ولا أي حدث، شخصية غامضة ما حدش يعرف عنها حاجة، أنا معرفتش اسمها غير من كام شهر وصدفة.. بس كل السوق عارف إن «زاهر» واجهة للي أكبر منه، خلي بالك دا تافه فوق ما تتصور، إنت عارف الفضايح كلها بتقع في حِجري.. طلع أو نزل دا عيل قوَّاد وحرامي مش أكتر، وكل أهميته في اللي ساندينه.. أنا هدعبس لك ورا «ورد» دي بطريقتي، وهجيب لك أصلها وفصلها ما تقلقش.. إنت عارف «نعمة» لما بتفتش ورا حد».

هززتُ رأسي في موافقةٍ وأردفتُ: «بصراحة أشهد لك.. كان نفسي أصور لك وش الواد المقرف اللي اسمه «عادل» لما لقاني عارف كل أسرار صفقة إكسسوارات الموبايل إياها، وشه جاب ألوان ولولا كُرهه ليا كان اترجاني عشان يعرف إزاي وصلت للمعلومات دي».

t.me/qurssan

سألتني في حماس: «طيب وافق على طلباتك؟».

أجبتها مبتسمًا وأنا أقف لأكون بالقرب منها: «لسه باعت لي على الواتساب وأنا جاي لك، وقال لي إن شركته وافقتْ على كل طلباتي.. كله بفضلك يا نعمة.. صحيح إيه أخبار الشيخ؟ عامل إيه؟».

قالت وقد تحولتْ ملامحها من التحمُّس للأسى: «بقاله ٦ شهور ما نزلش مصر، بس بيكلمني يطمن عليا.. مشاغله كتير ومش عارف يجيلي.. بس كتَّر خيره عمل لي اللي يخليني ما احتاجش لحد».

تزوجتْ نعمة منذ عامين من شيخ من إحدى البلاد العربية، تزوجها سرًا، وأنشأ لها هذه الشركة الصغيرة، منحته إخلاصها وحبها كله، فقد كان يكفيها أن يطلبها رجل محترم في الحلال، ولو كان في سن أبيها ولا يبقى في السنة بجوارها إلا شهرًا أو اثنين، رضتْ منه بهذا وهي التي اعتادت أن تعطي ولا تأخذ إلا الفُتات.

وصافحتها على وعدٍ بأن تتصل بي في أقرب فُرصة.. وفي عينيها رأيت نفس اللمعة الحزينة التي أعرفها جيدًا، وأتجاهلها، كما أتجاهل دومًا حاجة قلبي للحب، وحاجتي أن أصدق في قدرتي على الإحساس به مُجددًا، هل فقدتُ هذه القدرة للأبد؟

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(١٧) التمام

عينان واسعتان عميقتان كأنهما بوابتان لعالم آخر..

كان هذا أول ما جذبني في وجه الفتاة السمراء التي وقفتْ أمامي، بعد أن خرجتُ من الغُرفة التي خصصوها لي كما طلبتُ منهم.. قالتْ لي بابتسامةٍ خفيفة كأنها تُشجعني:

«إنت عارف إنك الوحيد من المشاهير اللي وافقت تيجي الإيفنت بتاعنا؟».

تأملتها لثوانٍ صامتًا وأنا أُعدِّل من وضع الحقيبة على ظهري، سمراء متوسطة الطول، ترتدي طرحة زرقاء، ملابسها تميل لاحتشام ممزوج بلمسة طفولية لا يمكن تفويتها، يكفي الأرنب الذي ارتسمَ على البلوزة التي ترتديها.. بدتْ لي ملامحها بريئة، حتى الابتسامة البسيطة حقيقية لم تدعيها، وجهها متورد كأنها تخجل من شيءٍ ما، لم أدرك تفاصيل ملامح وجهها بسبب ارتباك روحي لتحديقي في

t.me/qurssan

عينيها.. عينان واسعتان تزينهما رموش متوسطة الطول، وحاجبان عريضان يتناسبان مع العينين الأخاذتين، وهالتان من السواد تحيط بعينيها، لم تحاول إخفائهما بمساحيق التجميل، اكتفتْ ببعض الكحل فقط.. ولثوانٍ شعرتُ بإحساسٍ غريب بالراحة، واكتنفني شعور عميق بالألفة في حضورها، كأنها ليست المرة الأولى التي نتحدث فيها، ووجدتُ نفسي أقول مُبتسمًا من قلبي:

«للدرجة دي؟»

نظرتْ للأعلى وضمَّت يديها إلى بعضها البعض، كأنها تفكر فيما ستقول، لاحقًا سأعرف أنها حركة تلازمها عندما تتوتر، تبدو بها طفلة لا تعرف كيف تخرج من موقفٍ مُحرج وضعها القدر فيه.

قالت بنبرةِ صوتٍ سأحفظها جيدًا، نبرة فيها من الأنوثة والوِد والصدق ما يجعلك ترغب في سماعها أكثر من أن تتحدث أنت:

«بُص أنا مش مستغربة ليه رفضوا، يعني دار رعاية لكبار السن، وما عندناش ميزانية ندفع لحد، ويا دوب وفرنا فلوس المسرح اللي نصبناه في جنينة الدار بالعافية، بس يعني ما كنتش متخيلة الرفض من كل الناس كده! إنت الوحيد اللي قبلت لما أستاذة «إنعام» المديرة كلمتك، بصراحة قبل ما تكلمك قلت لها مش هيوافق دا شكله شايف نفسه».

رفعتُ حاجبيَّ مندهشًا من صراحتها المفاجئة، أنا الذي اعتدتُ الكذب حتى نسيتُ الصدق، اعتدتُ الكذب مني قبل أي مخلوقٍ آخر.. ازدادتْ ابتسامتي اتساعًا وقلتُ بسخريةٍ:

t.me/qurssan

«شكرًا والله على رأيك الجميل ده!».

ضحكتْ في بساطة، ضاقتْ العينان الجميلتان في طفولةٍ، وتكوَّر خَدَّاها، ثم قالت وكأنها انتبهتْ للتوّ لما قالتْ:

«لا والله ما اقصدش كده! قصدي يعني إنك ما شاء الله تقريبًا أكتر حد منتشر على السوشيال ميديا في مصر، فغالبا مش هتوافق.. أنا مش متابعاك أوي بصراحة، بس لما بفتح أي صفحة تخصك بحسك غامض في نفسك شوية.. بس بجد عجبني أوي العرض اللي قدمته للنُزلاء بتوعنا، كانوا بيضحكوا من قلبهم مع كل مشهد كُنت بتعمله، حتى الحاجات التراجيدي اللي قدمتها كانوا مصدقينها، أنا نفسي دمَّعت مع تمثيلك».

ثم قالتْ كأنها تذكرتْ شيئًا نسيَته:

«صحيح أنا ما عرَّفتكش بنفسي، أنا فيروز، متطوعة للعمل في الدار هنا.. بقالي سنة ونص شغالة معاهم بشكلٍ غير منتظم بحكم إني أخصائية اجتماعية».

سرتُ بجوارها في طريق الخروج من باب الدار الداخلي المُطل على الجنينة التي أقاموا المسرح فيها، وسألتها وأنا أتأمل ملامحها:

«بتحبي إيه من اللي بقدمه على السوشيال ميديا طيب؟».

سكتت لثوانٍ تفكر، كأنها تخشى أن تقول ما لا يليق، ثم تمالكتْ شجاعتها وقالت:

t.me/qurssan

«بصراحة مش بحب أوي معظم الحاجات اللي بتقدمها، بحسك بتقدم حاجات أقل من موهبتك بكتير، أصلي شفت فيديوهات ليك باين فيها إنك بجد بتعرف تمثل كويس أوي.. حتى النهاردة إنت فكرتني بمحمد صبحي والله وانت على المسرح ومتقمص، وبتطلع من مشهد لمشهد، كل مشهد من مسرحية مختلفة، وبتمزجهم ببعض كأنهم في اسكربت واحد.. بجد ما شاء الله موهوب، بس بحسك على السوشيال ميديا بتقدم حاجات أخف بكتير من اللي مفروض تقدمه، كأنك لابس بدلة ضيقة عليك، فاهمني؟».

منذ زمن نسيتُ أن يواجهني أحد، أي أحد، إلا بعبارات المديح المبالغ فيها، التي تصل إلى حد النِفاق الصريح أحيانًا.. هذه الصراحة البسيطة الآسرة، جعلتني أتمنى أن يطول الطريق أكثر نحو الباب الخارجي للدار، أأنبهر بفتاةٍ أنا «يحيى الحاوي» الذي عرف من الفتيات ما يعجز عن إحصائهن؟

أسألها عن عملها، فتجيبني أنها تعمل كأخصائية اجتماعية بإحدى المدارس الخاصة صباحًا، وتأتي للدار بشكلٍ شبه يومي تقريبًا.

أصابني قلق وخجل عندما أحسستُ بقرب رحيلي، ها هو الباب اللعين يقترب! ألا يمكن أن يطول المسير ولو قليلًا؟

لا أريد لإحساس الراحة هذا أن يُغادرني.

وجدتُ في نفسي خجلًا لا يشبهني، لا يشبه شخصيتي التي أحيا بها وفيها في السنين الأخيرة، كأنني عدتُ «يحيى» طالب

t.me/qurssan

كلية الآداب الخجول الصامت معظم الوقت، الذي لا يعرف كيف بصيغ ما يريد، لكنه عيناه تتحدثان جيدًا رغم عجز لسانه أحيانًا.. تلعثمتُ قليلًا وأنا ألتفتُ لها عند الباب، قائلًا في خوفٍ من ردة فعلها:

«طيب ممكن رقمك عشان أبقى أبعت لك على واتساب آخد رأيك في أي حاجة جديدة بعملها، لو تحبي؟».

أشرق وجهها بابتسامةٍ واسعة وهي تقول: «آه ممكن طبعًا».

ثم أملتني الرقم الذي دونتُه على هاتفي، وقبل أن أمد لها يدي مصافحًا قلتُ ساخرًا: «طيب إيه مش هتطلبي تتصوري معايا؟».

قالتْ وهي تبتسم بخجل، تلك الابتسامة التي يزداد فيها خدّاها حُمرة، كأنهما يُزهِران: «لا مليش في الجو دا خالص».

ضحكتُ، وضحكتْ.. صافحتها ورحلتُ، مشيتُ كأنني في فقاعةٍ من الإحساس بالأمان والراحة، مزيج غريب لا أتذكر آخر مرة لامسته عن قربٍ بهذا الشكل، لكن كل هذا لم يمنع أن تعتصر قلبي فجأة قبضة الخوف، الخوف من إحساسي هذا نَفْسه، والذي بقدر افتقادي له، بقدر ما أخافه؛ كأنَّ اعتياد الخذلان يجعلك تخشى أن تشعر بالأمان مُجددًا، ولو لحظيًا، خوفًا من أن يُسرَق منك مُجددًا، ويتركوك خاويًا من كل شيءٍ إلا الخوف.

وغلب إحساسي بالراحة الخوف، طردهُ سريعًا، كأنه يتخلص من منافس مُزعِج.

هل أستكثر على نفسي أن يزول الثقل عن صدري ولو مرَّة؟

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(١٨) التمام

مرَّ أسبوع حقًّا؟

أسبوع وأنا في انفصالٍ عن كل شيءٍ إلا «فيروز»، كأنني عدتُ مراهقًا يتلمس أولى خُطواته في عالم الحب بأحاسيس وردية تمامًا.

أأنا الذي لوثه دنس العالم يمكن أن يعود بريئًا؟ يعرف طريق المكالمات التي تستمر حتى صباح اليوم التالي، مكالمات بلا بداية ولا نهاية كأنها حلم طويل مُتصل.. تحكي وأحكي، لكني أحب سماعها أكثر مما أحب أن أتحدث، ولو كان الأمر بيدي لتركتها تتكلم وحدها وظللتُ أستمع للأبد.. أسبوع كامل تقريبًا خارج الزمن، أهملتُ فيه متابعة كل شيءٍ إلا التحدث معها صوتًا أو كتابة، تعلّقت بها كتعلق الغارق بلوحٍ خشبي طفا له فجأة فوق سطح البحر الهائج.

t.me/qurssan

عدتُ لأشياءٍ ظننتها رحلتْ ولن تعود، كالابتسام ببلاهةٍ طفولية بمجرد رؤية اسمها على شاشة الهاتف.. الهاتف الذي انقطعتْ علاقتي به إلا لأحادثها، نفرتُ من كل شيءٍ آخر، وكنتُ أنشر ما أنشر على صفحاتي المختلفة بلا رغبة إلا لأداء الواجب، أحسستُ بكراهيةٍ حقيقية لكل هذا الزيف الذي حبسني داخله، لماذا يجب أن أكتب عبارة حزينة خلال «ستوري» انستجرام» جلبًا للمزيد من الاهتمام والمتابعات؟ لماذا أنشر لي صورة منفردة صوَّرها لي أحدهم ومن حولي الظلام يحيط بملامحي في غموض؟ لا أريد الغموض الآن، لا أريد نشر المزيد من الإعلانات، اللعنة على كل شيء! أنا حي، ها أنا حي، قلبي ينبض وأنا حي بعد سنين من سُبات الموتى الذي سيطر على حياتي، حتى ظننتني ميتًا ينتظر إصدار شهادة وفاته، ويتوقف التنفُّس ويُهال عليه التُراب، ها أنا حي أشعر، أحس، أضحك، وأبكي وأتألم بصدق، لا من خلال تقمُّص مشاعر مُزيَّفة في عالم لا يرى إلا كل ما هو مُزيَّف.

لم أخططِ لشيء، حتىً أنني نسيتُ كيف بدأ كل شيء، لا أتذكر ما هي الرسالة الأولى التي أرسلتها لها على «الواتساب»، لا أتذكر لأني لم أخطط؛ معها عدتُ لشخصيةٍ كدتُ أنساها، كنتُ خجلًا متوترًا وأنا أحدثها للمرةِ الأولى كأنني لأول مرةٍ أحادث فتاة معجبًا بها.. كنت كأنما أشاهدني من الخارج، لا أعرفني، لا أعرف هذا الشاب الجالس على الأرض بجوار فيشة الكهرباء، لأن شحن هاتفه أوشك على النفاد، ولا يريد أن يُنهي المكالمة مع الفتاة التي

t.me/qurssan

يميل لها قلبه.. أين السواد الذي غطى قلبك لسنين يا فتى؟!

تحكي؟ تأمن لها وتحكي كل شيءٍ عنكَ؟

كان الخوف يتملك مني للحظات، يحاصرني مُشهرًا في وجهي الماضي بكل ألمه وخُذلانه، يرفع في وجهي صوري وقد عدتُ من درب الحب والتصديق ممزقَ الملابس باكيًا في صمت، لكني كنتُ سُرعان ما أخرسه.. أريد هذا الشعور، هذا الاطمئنان الذي كدتُ أنساه، لا أتذكر المرة الأخيرة التي أشعرني فيها إنسان ما أنه يُحبني كما أنا، يحب «يحيى مصطفى» بكل ما فيه من عيوب ومزايا، بكل ما علق في ذاكرته من مآسي ورصيد ضخم من ذكريات الخُذلان، وبعض الأفراح التي تتخلل شريط الذكريات كأنها بعض لمسات درامية لإكمال الصورة لا أكثر، الصورة التي أساسها إحساس عميق بالخذلان تجاه كل شيء.

اتصلتُ بـ «سلمان» واعتذرت له عن عدم حضوري لأنني أعيش تجربة من نوع غريب، وختمتُ حديثي بجملةٍ أخافتني بعد أن قُلتها: «أنا شكليً بحب جديد».. ضحك بطفولةٍ وهو يقول: «أيوه بقى، أيوه بقى! يا رب بس ما ترجعليش معيَّط».

أتحب فتاة لم تقابلها إلا مرة واحدة لعدة دقائق؟

صحيح أنك تحدثت معها في الهاتف خلال أسبوعٍ ما يتجاوز الثلاثة أيام، لكن هل هذا يكفي؟

لا أعرف، لكني خفيف، في حضورها أشعر كأن ثقل العالم ينزاح من فوق صدري، كأنَّ الأحزان كلها يمكن أن تتوارى قليلًا

t.me/qurssan

عن وعيي، وأن الأفكار السلبية في رأسي يمكن أن تخفض صوت همسها المزعج كي أركز في حديثها.

تحكي، وأستمع، وأستمتع..

حكتْ لي كل شيءٍ عنها تقريبًا، عن وحدتها التي تشعر بها بعد رحيل والدها عن الدُنيا، حزنها على رحيله يتضاعف عندما تتذكر أنها لم تدرك مدى جمال روحه، وكيف يحبها، إلا قبل مرضه ورحيله بشهورٍ قليلة، لم يمنحها الزمان وقتًا كي تحبه كما أرادتْ، وكما استحق.. كان والدها خبيرًا بمصلحة الآثار، تخصص في علم المصريات بالتحديد، كان حنونًا كعطاء البحر لمَن يرتزقون منه، وكالبحر كان له تقلبات عاصفة، يموج وترتفع وتيرة عصبيته، لكن موجات الغضب سُرعان ما تنقشع سريعًا ويعود البحر ليمنح الرزق والسكينة لمُحبيه.. كان رجلًا مُحبًا لا يجيد التعبير عن نفسه إلا بالعطاء، وفيما عدا الأفعال فإنه يكتفي بالصمت والابتسام وتأمل مَن يحب، صمته جعله مُبهَمًا لها حتى شهور قليلة قبل رحيله، بمعنى أدق، حتى جاء احتكاكها الحقيقي بعالم الرجال من خلال الجامعة، حيث أحبَّتْ للمرة الأولى، وكُسِر قلبها للمرة الأولى أيضًا، عندما عرفت ان الرجال ليس كلهم أباها، ليسوا جميعًا متحملين للمسئولية ملتزمين بكلمتهم مُخلصين لمَن أحبوا، كما كان حاله مع أمها.. أحبَّت، وتعرضتْ للخيانة، ولم تكن قسوة الخيانة في الخيانة وحدها، بل في إحساسٍ قاسٍ لازمها لفترةٍ طويلة أنها لا يجب أن تثق في أي شيء.. لكنها نجحتْ في

t.me/qurssan

التخلُّص منه بالتدريج، وبدأتْ في إقناع نفسها أن العالم ليس جنة ولا جحيمًا، فيه أوغاد ومخلصون، فيه كل شيء، وإن كانتْ نسبة القُبح سائدة بلا جدال.

أحببتُ فيها البساطة اللا متناهية التي كانت تحكي بها الأشياء، حتى أشدّ الأشياء قسوة كانت ترويها وهي تسخر من نفسها، ومن غبائها عندما منحتْ ثقتها لمَن لم يكونوا يستحقونها، كأنَّ حياتها بالنسبةِ لها رواية، تحكيها بروح الناجي لا الضحية.

لمست «فيروز» في روحي موضعًا لم يلمسه سواها منذ سنين، وربما لم يُمَس على الإطلاق من قبل.

حكيتُ لها كل شيءٍ تقريبًا، عن طفولتي ومراهقتي التي قضيتُها وحيدًا معظم الوقت، حتى أصبح إحساسي بالوحدة كأنه حُفرة عميقة في روحي لا يراها سواي.. أسمعتها تفاصيل حياتي الماضية في «الإسكندرية»، المدينة التي منحتني الآلام والأماني ممتزجة، حكيتُ لها عن «سامي» صديقي الوحيد تقريبًا، وعن خُذلان الثورة العميق بفشلها، عن تجربة الاعتقال وما بعده، وعن وفاة أمي حكيتُ.

لم أكن أريد الاسترسال في الحكي عن هذه النُقطة بالتحديد، لكنها صممتْ، وقالت ضاحكة في دلال: «يعني أنا حكيت لك عن كل تفصيلة عيشتها مع بابا في أيامه الأخيرة في المستشفى وانت مش راضي تحكي لي؟ احكي يا يحيى، فضفض يمكن الحِمل اللي انت شايله لوحدك على قلبك دا يخف شوية».

t.me/qurssan

صمتُّ للحظات، وبدأت حذرًا أحكي، ودون شعور مني، انسابتْ التفاصيل مني...

أكنتَ تنتظر أن تطمئن لينفجر شلال الحكي من قلبك يا يحيى؟

كنتُ خارجًا منذ شهورٍ من تجربة الاعتقال التي شوَّهت شيئًا للأبد بداخلي بأحداثها وبتبعاتها؛ التي جعلتني أشعر كأنني كنت أسير خديعة كبرى، قلعة كاملة من الأحلام تداعتْ أمامي كأنها الأوهام تتفكك بعد أن تراصتْ في انتظام متماسك حتى بدتْ للحقيقة أقرب.. تلاها انهيار آخر، انهيار العَلاقة العاطفية الوحيدة التي خُضتها في حياتي.

يستوقفني صوت «فيروز» تتساءل بترقُّبٍ: «مش هتحكي لي عنها؟»

تهرَّبتُ وقلتُ في ضيقٍ: «هحكي لك بعدين والله، مش انتِ بتسألِيني عن ماما الله يرحمها؟ سيبيني أحكي ومتقاطعنيش».

فتعتذر وتتركني أحكي.

كأن الحياة أيامها أقسمتْ ألا تترفق بي ولو للحظة.. صفعة تسلمني لركلة، حتى زهدتُ التواصل مع الناس، انقطعتُ عن كل شيء، وجلستُ في البيت كل الوقت تقريبًا، حتى أنني لشهرين متتالين لم أغادر البيت، ولقاءاتي بـ «سامي» اقتصرتْ على زياراته لي.

t.me/qurssan

ثم بدأتْ سحابة الحزن تظلل على بيتنا بالتدريج، ولن ترحل من قلبي إلى الأبد فيما بعد..

بدأ الأمر بشكوى بسيطة من أمي من آلام تشعر بها، اكتفتْ بتناول المُسكنات لمدة طويلة ورفضتْ إلحاح أبي بضرورة الذهاب إلى الطبيب.. حتى أغمى عليها في ظهيرة أحد الأيام وقد وقفتْ في المطبخ تجهز طعام الغداء.. اتصلتُ بأبي بعد أن سمعت صوت ارتطام جسدها بالأرض، أخبرني أنه سيحضر فورًا، وحضر في دقائق بالفعل من مكان عمله الذي كان قريبًا لبيتنا.. حملناها معًا كطفلة، وأركبناها إحدى سيارات الأجرة.. أفاقتْ قبل دخولها غرفة الفحص، أحسستُ وعيناها الجميلتان تنفتحان للنور أن قلبي يعود لخفقانه المنتظم من جديد، وسكنت لوعة أبي الذي كانت دموعه تنساب على خديه رغم تماسكه الظاهري الذي حاول أن يحافظ عليه.

يوم كامل من التحاليل والفحوصات المعملية الدقيقة، انتهى قرب منتصف الليل بتأكيد الخبر المشئوم: سرطان بنكرياس، والحالة متأخرة.

تبدو ذكرى الأيام تلك بالتحديد ككابوسٍ غائم في ذاكرتي، تتداخل أحداثه كأن أحدهم مزجها كشريطٍ سينمائي مبعثر الأحداث.. أتذكر بُكاء أبي وحيدًا في الصالة في تلك الليلة التي جاءتْ بعد اكتشاف المرض بأيام، استيقظتُ مبكرًا لدخول الحمام، لأجده يجلس بثياب العمل في الصالة، يبكي

t.me/qurssan

بنهنهة كالأطفال، يبكي بقلة حيلة وألم.. أحسستُ أنني أتضاءل عندما فوجئت بجلوسه على هذا الحال، حتى وهو يمسح وجهه سريعًا ويحاول التلاهي عن الموقف بأن يسألني عن حالي، تمنيتُ احتضانه لكني أحجمت، لم أقدر، حاجز نفسي ضخم يقف بيني وبينه.

لم أشك لحظة أنه يحب أمي، لكن هل يستطيع إنقاذها؟

المرض في مرحلة متأخرة، هل أفقد «ملاكي الحارس» كما أسميتها لسنين في ذهني؟

أتذكر أمي وهي تحاول التخفيف عنَّا، تتباسط وتضحك وتُلقي النِكات على «أشكالنا الغم اللي تجيب الحزن للأراجوز».. أضحك وأرى الألم في عينيها، أضحك وأنا أعرف جيدًا أنها تتمالك نفسها كي لا ترانا ننهار لمرضها.

حاولتُ طرد فكرة انتصار الموت من ذهني، وقضيت معها الوقت كما لم أفعل طيلة حياتي؛ كأني أعيد اكتشاف علاقتي بها من جديد.

في زيارات المستشفى صاحبتها، بالرغم من توسلها لي أن وجود أبي يكفيها وألا يجب أن أتعب نفسي بجو المستشفى الكئيب، حتى في مرضك تخشين على راحتي النفسية يا أمي؟ علمتني الطهو بعدما طلبتُ منها، استمعتُ معها للموسيقى التي تحبها، حفظت أغاني «شادية» و«صباح»، و أغاني فرقة «المصريين» التي كانت تحتفظ بشرائط إصداراتها في مقتنياتها

t.me/qurssan

الخاصة.. راقبتُ وجهها الجميل وهو يذبل ببطء، وبكيتُ سرًا كما لم أفعل من قبل في حياتي، وكما لن أقدر فيما بعد.

أتذكرها وهي تستدعيني في إحدى الليالي قبل أسبوعين من الرحيل.. كانتْ قد بدأت رحلة العلاج الكيماوي اللعينة، بدأ شعرها في التساقط، تلك الخصلات الناعمة الجميلة التي طالما أحببتها تساقطت، كأنها كانت تسبقها لعالم آخر أكثر رحابة وجمالًا، أصابها الهُزال ونوبات متكررة من ألقيء والإحساس بالغثيان.. وعلى الجانب الآخر تداعى أبي تمامًا، بدا مهزومًا كجندي يعود وحيدًا من حربٍ لم تُبق من جيشه أحدًا سواه.. استدعتني بصوتها الجميل، حتى نبرة صوتها كان فيها من حنانها شيء.

«يحيى.. والا يا يحيى!».

جلستُ بجوارها على ركبتي وقد جلست على الكرسي الهزاز الذي لم تكن تجلس إلا عليه في صالة بيتنا العامرة بأشياءٍ تحمل لمساتها وتفاصيل روحها الرقيقة.. قبَّلتُ يدها اليُمنى مبتسمًا وطالعت عينيها المرهقتين، نظرت لعيني طويلًا ثم قالت:

«عينيك حلوين يا يحيى.. عارف بعد ما تميت سنة وبدأت ملامحك تتشكل وتبان، قلت لأبوك: «الواد دا عليه جوز عيون يسحروا».. ربنا يحفظك يا حبيبي.. بقول لك إيه، أنا نديتك عشان عاوزة منك حاجة.. أنا نِفسي أشوفك بتمثل.. من زمان وأنا عارفة إنك بتمثل، مثلت في الجامعة وفي المسارح والعروض اللي رُحتها، بس عمري ما حضرت لك.. نِفسي أشوف تمثيلك يا والا قبل ما

t.me/qurssan

امشي».

فزعتُ ولَمتها على كلامها عن الرحيل، فأسكتتني بإشارةٍ من إصبها على شفتيها، هذه الحركة التي أحببتها منها جدًّا، تبدو فيها كطفلةٍ تلهو غير عابئةٍ لشيءٍ من حولها.

قالت مُلحَّةً: «بقول لك إيه سيبك من شغل العيال بتاعك ده.. بقول لك عايزة أشوفك بتمثل يا واد.. يلَّا».

قمتُ، وسرتُ حتى منتصف الصالة، استجمعتُ شجاعتي بعد أن غمرني إحساس جارف بالخجل.. بدأتُ في تمثيل مشاهد متتالية من مسرحية «ريا وسكينة» التي كنتُ أعرف أنها تحبها، كما أحببتها من حبها لها وأنا طفل وحفظتها عن ظهر قلب.. تقمصتُ شخصيات المسرحية كلها، غنيتُ كما غنى «عبد المنعم مدبولي»، اندمجتُ تمامًا وشجعني صوت ضحكاتها الطفولية وهي تصفق لي بعد انتهاء كل مشهد، مثلتُ كما لم أمثل من قبل، لا أتذكر المُدة، تقريبًا أديتُ معظم نص المسرحية الطويل، وعندما انتهيتُ جاءني صوتها الحنون تقول: «يا حبيبي ربنا يحفظك.. أنا ما كنتش أعرف إنك شاطر كده.. إنت هيبقى لك مستقبل كبير أوي، ربنا يصونك يا يحيى».

ابتسمتُ خجلًا كطفلٍ يتلقى المديح من أمه أمام أقاربه.. وبكيتُ سرًا في غرفتي ليلتها كثيرًا؛ كنت أعلم أن الرحيل قد قارب وقته، فقد اعتدتُ أن آخذ كلام أمي عما تحس به بجِدية؛ لامتلاكها إحساس صادق جرَّبناه ـأنا وأبيـ كثيرًا من قبل في

t.me/qurssan

سنون حياتنا كلها.

وبالفعل بدأ اشتداد المرض عليها بعد هذه الليلة..

الطبيب قال لأبي أن هناك علاج لحالة أمي متوفر في أحد المستشفيات الأمريكية، علاج جديد قيد التجربة تم اكتشافه حديثًا لمَن يعانون من مثل حالتها المرضية بالضبط، ونتائجه حتى الآن مبهرة، لكنها يجب أن تسافر لتتلقاه هناك.. التكلفة قد تصل لنصف مليون دولار.

أبي الذي اعتدناه رجل البيت الذي يجيد كل شيء، وقف عاجزًا حائرًا، مكتوف الأيدي لا يملك من المبلغ المطلوب شيئًا إلا القليل، تقريبًا كل مُدخراته لا تكفي ربع هذا المبلغ.. حاول الاستدانة وفشل، كنتُ أطالع نظرة الهزيمة في عينيه تتعمق أكثر وأكثر في كل صباح جديد.

فتحتُ الفيسبوك الذي هجرتُ استخدامه حينها لشهور.. راسلتُ عددًا ممن كنتُ أعرف أنهم يمكن أن يحاولوا مساعدتي ممن يمتلكون عددًا كبيرًا من المتابعين، حتى لو من خلال إيصال صوتي لبرنامج تليفزيوني أو أي شخصٍ يمكنه أن يساعدني.. تجاهلني الجميع، لم أتلقَ ولو ردًا واحدًا على رسائلي، إلا واحد ردَّ عليَّ معتذرًا أنه لن يقدر على مساعدتي لأنه لا يكتب عن مثل هذه الحالات.. جاءني ردُّه ذلك بعد وفاة أمي بيومين.

t.me/qurssan

رحلتْ.. في خضم سعينا العاجز، أنا وأبي، قرر الموت أن يصطحب أمي معه وغيَّبها عن دنيانا للأبد.. لم أبكِ في جنازتها، ولا أثناء تلقي عزائها، سيطر عليَّ إحساس مُرّ بالمَقت تجاه العالم كُلّه، وتضاعف إحساسي العميق بالخذلان من كل شيء.. فقط لو كان أبي رجل ثري، فقط لو كنتُ أملك قوة أو مالًا أو سلطة، احتمالات كثيرة كانت ممكن أن تدفع بأمي لأمريكا لتلقي علاج ربما كان يحافظ عليها بيننا.

سيطرت عليَّ الأفكار السوداء، أسابيع، شهور قضيتها أذهب للكلية دون روح، أمتحن وأتخرج من الجامعة لكني لستُ هنا، أنا هناك بعيد مُحاصر في عالم سوداوي لا يراه غيري.. رحيل أمي بهذا الشكل فجَّر بداخلي جروحًا لم تندمل حتى الآن، لماذا لم يجمع أبي الكثير من المال كما فعل غيره؟ وماذا استفدنا من نزاهته ونظافة ذمته التي طالما حدثنا عنها وتباهى بها، وأنه الوحيد من بين زملائه الذي لم يجمع مالًا حرامًا خلال عمله، ولم يُصدر ولو ترخيصًا واحدًا للبناء إلا بعد أن يتأكد من صحة ظروف إصداره.. وبماذا استفدنا بكل هذا يا أبي؟

رُبما لو كنتَ مرتشيًا يا حضرة المهندس المحترم لما رحلتْ أمي.

لم نتواجه أنا وأبي، لكن نظراتي حملتْ من اللوم ما يكفي، وبذكائه فهم، فهم ما بداخلي دون أن أنطقه.. انعزل كل منَّا في عالمهِ الخاص على الرغم من البيت الواحد الذي جمعنا.. تخرجتُ

t.me/qurssan

من الجامعة ولم أجد في نَفْسي رغبة لفعل شيءٍ محدد، خصوصًا فكرة البحث عن عملٍ تقليدي كانت ثقيلة جدًا على قلبي.

ولم أخرج من هذه العُزلة السوداء إلا يوم فتحت الكاميرا الأمامية لهاتفي، وسجلتُ مَقطعًا مُصوَّرًا تافهًا عن أنواع الرجال في بداية علاقة الحب، كنت قد نقلتُ معظمه من أحد الفيديوهات الأجنبية التي شاهدتها على يوتيوب.. لم أعرف حينها لماذا فعلتُ هذا بالضبط، هل كنتُ أرغب في أن أُرى؟ هل كنتُ أختبر قُدرتي في الانتشار لو أردتُ هذا حتى لو من خلال محتوى تافه لا يُشبهني؟

صدقًا، لا أعرف..

هل كنت أبحث عن الشهرة، أم عن الانتقام من نفسي ومن الناس؟

لم أكن أفكر، ولم أرتب للأمر بدقة.. وضعتُ المقطع على صفحتي الشخصية، ونزلت للقاء «سامي» في أحد المقاهي.. وعند عودتي وجدتُ المقطع وقد اقترب من ربع مليون مشاهدة في عدة ساعات.. حالة انقلاب كامل أصابتْ حسابي الذي اكتسب آلافًا من المتابعين في عدة ساعات.. طالعتُ ما يحدث مذهولًا في صدمة وصمت، وبدأت الفكرة تعتمل في ذهني.. ربما هذا هو الطريق المرسوم لي، الذي أستطيع تحقيق نفسي من خلاله.. فشلتُ في تغيير الواقع من حولي، وفشلتُ في محاولات التمثيل الجاد بعد أن انهارتْ الأماني على بوّابة الواقع الذي تحكمه دوائر المصالح والشللية.

t.me/qurssan

من هند بدأ كل شيء، وبدأت روحي تتسرب بالتدريج لدوائر العالم الافتراضي.. في شهور حققتُ انتشارًا مُدويًا لم يسبق له مثيل، وأغلقتُ حسابي الشخصي بعد أن روجتُ لصفحة عامة تحمل اسم شُهرتي الجديد «يحيى الحاوي».. وبدأت الامبراطورية الافتراضية تتشكل سريعًا، كألسنة النار امتدت شُهرتي لكل مكان، آلاف من المتابعين ورسائل المديح وتعليقات يتمنى أصحابها لو يلتقطوا معي صورة فقط.. وعروض العمل والإعلانات الترويجية تنهال عليَّ دون سعي مني.

وفي شهور كنتُ أنزح للقاهرة، مكان إقامتي وحياتي الجديدة، إليها رحلتُ شخصًا جديدًا عن الذي كُنته، شخص لا أحبه لكني أحترم قوته وقسوته وقت اللزوم وقدرته على الوصول لأهدافه.. دفنتُ «يحيى مصطفى» للأبد، وحان دور «يحيى الحاوي» كي يقود الدفَّة، لعلَّه يمحو آثار هزيمة مَن سبقه.

انتهيتُ من حكايتي، وصمتُّ طويلًا منتظرًا تعقيب «فيروز».. لم تنطق إلا بسؤالٍ فاض الحنان من صوتها وهي تنطقه: «كل دا شايله في قلبك يا حبيبي؟».

وكانتْ المرة الأولى التي تدعوني فيها بهذا اللقب، وفي صدري تمايل قلبي طربًا.

هل هذا هو الحب حقًّا؟

t.me/qurssan

(١٩) التئام

مثل كل الأحلام التي مهما بلغ جمالها في مداه، فإنها تنتهي عند لحظةٍ ما، في ذروتها.

لم ينقطع إحساسي بأن تجربتي مع «فيروز» بمثابة الحُلم، بل أكده ما جرى بعد انتهاء الأسبوع الحالم الأول، والذي اختتمناه باتفاقٍ على لقاءٍ أول في أحد المطاعم الهادئة خلال يومين.. وافقتْ في خجلٍ متردد، كانت خائفة مِثل خوفي، خوف من ألمٍ جديد يُضاف لرصيد الآلام التي سبقته.

لكن الكابوس الجديد كان ينتظرني، بعد أن تشكَّل ببطءٍ في الخلفية، وسُرعان ما بدأ في فرض نفسه على حياتي.

بدأ الأمر بمكالمة من رقم سري.. كان الوقت عصرًا، ولم نمضِ دقائق على استيقاظي.. أجَبتُ على الاتصال فجاءني صوت «زاهر» يقول في سخريةٍ: «دا انت ما بتردش على رقمي أنا بالذات

t.me/qurssan

يا يحيى باشا بقى!».

اعتذرتُ منه بانشغالي ببعض الأشياء خلال الأسبوع الماضي.. بالفعل تهربتُ طوال الأسبوع من اتصالاته ورسائله التي لاحقني بها، يطالبني فيها بتحديد موقفي من عرض «الهانم».. تهرَّبتُ منتظرًا أية معلومة من «نعمة» تدعمني في هذه الحرب التي لا أعرف كيف يمكنني الهروب منها، فلم أعد أحلم بأي انتصارٍ بعد ما رأيته خلال الحفل المخيف الذي حضرته.

سألني عن قراري بنبرةٍ حاسمة يبدو أنها لن تقبل أي تأجيل. استجمعتُ ثباتي الانفعالي، عددتُ سرًا بداخلي من واحد لخمسة كما أفعل قبل لحظة فتح الستار وبداية كل عرض، ذكَّرت نفسي أنني «يحيى الحاوي»، بكل ما أملك من سُلطة معنوية على ملايين المتابعين المخلصين، لا بُدَّ أن أظهر ثابتًا في مواجهة هذا القوَّاد كي لا يستخف بي.. حانتْ لحظة المواجهة التي لا مفر منها.

أخبرته باختصار أنني لا أجد نفسي متشجعًا لقبول عرضهم، لأنني لا أجد لديَّ من الأفكار ما يمكن أن يفيدهم.

ضحكة سُخرية مفاجئة منه هزَّتني، ارتبكتُ خلال لحظات صمتٍ لم تطل، قبل أن يقول بصوتٍ متهكم: «بترفض يعني؟! شايف إنك كدا كويس ونضيف وما ينفعش بقى تعمل دعاية للناس الوحشين اللي بيتاجروا في البشر وعاملين نوادي صحية بيحصل فيها حاجات من الوحشة دي؟ أنا من الأول كُنت شايف إنك مجرد عيل تافه، وما خيبتش وجهة نظري فيك.. الأيام الجاية

t.me/qurssan

مثبت لك إن فيه ناس ما ينفعش يتقال لهم لأ!».

وأغلق الهاتف قبل أن يسمع مني ردًا.

نبرته الواثقة ألقتْ الفزع في قلبي، مما ضاعف إحساسي بالضيق من نفسي، كأني أخذلني في موضع لا يصح فيه الضعف أبدًا.

أتعجب من نفسي، من تفاوت قدرة قلبي على التحمُّل، في بعض الأحيان أبدو قويًا لا يقهرني أي شيء، حتى يتهمني بعض من حولي بالشدَّة التي تصل للقسوة، ويحسدوني على ثباتي، وفي أحيان أخرى تهزمني لمحة خذلان عابرة، تؤلمني وتزعزع ثقتي في نفسي، حتى تكاد تعصف بي.. أتأرجح بين شدة القوة، وشدة الضعف، كأن بداخلي شخصان، واحد لا يبالي بأفعال البشر واثقًا من نفسه، وآخر تهزمه كلمة قاسية في موقف عابر أو سند انتظره ولم يجده.. بداخلي اثنان يتنازعان، وبينهما أتمزق أنا في المنتصف.

أمسكتُ بالهاتف وأحسستُ تجاهه بمُقتٍ شديد لكل ما يُمثله هذا الجهاز في حياتي، آلة الاستعباد الصغيرة ذات الإطار اللامع والشاشة الزجاجية التي أصبحتْ تؤطر حياتي بكل تفاصيلها، سعادتي وحُزني وعملي ومصدر رزقي، كله مُرتبط بهذه الآلة الملعونة.. لم أعد أطيق النظر إلي التطبيقات التي صنعتُ من خلالها مجدي وشُهرتي، كل هذا الادعاء يخنقني كأنني روح محبوسة في زجاجةٍ ضيقة.. مللتُ كل شيء، ملايين المشاهدات حققتها، آلاف الإعجابات والمشاركات، رسائل المديح التي تصل

t.me/qurssan

للتقديس من البعض، كل هذا جرَّبته ولم يعد يبهرني فيه أي شي.

خلال آخر أسبوع، منذ بداية علاقتي بـ «فيروز»، وأنا لا أستخدم صفحاتي على المنصات المختلفة إلا كأداء واجب، وتنفيذًا لاتفاقات تجارية متعلقة بإعلانات قبضتُ ثمنها بالفعل، لكن حتى ردود الأفعال على ما أنشر لم أعد أتابعها كأن بداخلي اثنان، واحد متمسك بما حققه من مجدٍ في عالم لا يحكمه إلا الرغبة في الظهور، والمحافظة على هذا الظهور بعد تحقيقه بأي ثمن، وآخر لا يبالي بكل هذا، بل يكرهه وينفر منه كأنه الجحيم، ولا يرغب إلا في الرحيل بعيدًا عنه، يهرب من كل ما صنعته يداه.

لولا هذه النجومية الافتراضية ما دخلتُ هذا العالم الذي ترغب إحدى سيداته باستعبادي لديها، وعندما أرفض يصيبني تهديدها بالفزع، تهديد يحمله رسولها القوَّاد.

لم أكره في حياتي شيئًا مثل إحساسي بالإجبار على فعل شيء ما، والإجبار يأتي الآن مصحوبًا بتهديد، تهديد غير محدد المعالم، وهذا ما يُضاعف خوفي.

انتزعني من خواطري السوداء رنين الهاتف، نظرتُ مفزوعًا لشاشته فوجدتُ رقم «نعمة»، فأجبتها وقلبي ينتفض في صدري، لعلَّها تقول لي ما يدعمني في ما أنا مُقبِل عليه ولو قليلًا.

لكن ما قالته ضاعف مخاوفي حتى تزعزع ما تبقى لديَّ من تماسك.

t.me/qurssan

أخبرتني أن «ورد» شخصية نافذة ولها علاقات بأكبر الرؤوس المتحكمة، علاقات لا يمكن تخيُّل مدى نفوذها، بنتها خلال سنين عملها مع كبار السادة، حتى أصبحتْ المتحكمة في أكبر مجموعة استثمارية تتاجر في كل شيء، من البشر حتى استيراد طعام الكلاب والقطط.. تزوجتْ وهي ابنة عشرين سنة من ثري سبعيني توفى بعد عامين من زواجهما، تزوجته برضاها برغم أنها ابنة أسرة ثرية بالأساس، لكنها كانتْ تحلم بسلطة الملايين اللا محدودة التي امتلكها العجوز الوحيد الذي وقع في أسر جمالها عندما كانت في قمة أنوثتها.. باردة القلب لا تعرف الرحمة، ومتعتها الوحيدة في اصطياد مَن يعجبها من الرجال اللامعين على الساحة الفنية أو الرياضية أو الإعلامية.. كل عامين أو ثلاثة تنتقي واحدًا، تستمتع بصحبته عدة شهور، حتى تمل منه وتبدأ رحلة البحث عن غيره، لكنه يكون قد استفاد بصلاتها الواسعة التي تبدو بلا حدود.

جاء صوت نعمة يقول بنبرةٍ خائفة:

«خُد حذرك يا يحيى.. إنت بتقول لي إنك رفضت، يعني توقع إنهم هياخدوا رد فعل سريع عشان يردوا على رفضك ده.. سيبك من «زاهر»، دا طلع أو نزل حتة خدَّام عندها، المشكلة في «ورد» نفسها، واللي حكيتهولي عن معاملتها ليك يوم الحفلة بيقول إنك عاجبها أوي وداخل دماغها، ومش هتقبل إنك تقولها «لأ».. الست دي خطر، ومجرد التدوير وراها يخوِّف.. خلي بالك على نفسك وحرِّص يا حبيبي».

t.me/qurssan

أغلقتُ المكالمة، ولم يمنحني الزمن فُرصة الشعور بالخوف هذه المرة، فالمكالمة التالية جاءتْ بعد أقل من دقيقة، من رئيس تحرير البرنامج التليفزيوني الشهير الذي كان من المُفترض أن أظهر في إحدى فقراته ضيفًا خلال أيام، أخبرني بإلغاء فقرتي، وأنه لم يتم تحديد موعدٍ غير الذي تم إلغاءه.. بدت نبرة صوته نافرة من الحديث معي، وهو الذي كان يتودد لي بشدة منذ أسابيع ونحن ننسق ميعاد ظهوري خلال برنامجهم.. أغلق الهاتف بمجرد أن لفظتُ «تمام»، كأنه يزيح عن صدره مهمة ثقيلة تم إيكالها له.

وكانت هذه قطرة الغيث الأولى فقط..

في مساء نفس اليوم، وبينما كُنت أجلس وحيدًا أفكر فيما يمكن أن أفعل في أحد الكافيهات الهادئة التي اعتدتُ ارتيادها وحيدًا، جاءني اتصال من «فيروز»، بدا لي صوتها متوترًا وهي تسألني عن مكان تواجدي، أجبتها واستفهمتُ منها عن سبب توتر صوتها وطريقة سؤالها الغريبة نوعًا ما.. جاءني صوتها يقول بحذر: «لو تقدر خلي اللي في الكافيه يجيبوا قناة «الشعب» دلوقتي، البرنامج اللي شغَّال دلوقتي بيتكلموا فيه عنك وأنا مش فاهمة اللي بيعرضوه ده».

طلبتُ من النادل الذي كان يعرفني جيدًا أن يأتي بالقناة إياها على شاشة تليفزيون الكافيه شبه الخالي من الرواد، لأجد مقطعًا مُصوَّرًا، يبدو أنه اُلتقط من خلال إحدى كاميرات المراقبة بالمستشفى الذي صورتُ فيه الفيديو الدعائي، يظهر خلاله «كامل

t.me/qurssan

العطار» و«محمد رشيد» يسيران بشكلٍ عادي في إحدى ممرات المستشفى الفخمة.. «كامل» الذي نفذنا الفيديو على أساس أنه لا يستطيع السير بشكلٍ طبيعي، يظهر خلال الفيديو وهو يسير بشكلٍ اعتيادي تمامًا، يضحك وهو يتبادل المزاح مع «رشيد» الذي سار بجواره.. انقسمت الشاشة نصفين، نصف تُعاد ذات اللقطة فيه مرارًا وتكرارًا، والنصف الآخر ظهر فيه المذيع يقول كلامًا عن زيف الحقائق الذي أصبح يملأ الواقع الافتراضي، وكيف أن كل شيءٍ قابل للتزييف الآن، وأن هذا المقطع وصل للبرنامج من خلال أحد «أبناء الحلال» لفضح ألاعيب نجوم السوشيال ميديا وتضليلهم للوعي العام؛ لجني المكاسب والمزيد من المتابعين.. وختم وصلة هجومه بجملة رتيبة مُكررة: «وما خفيَ كان أعظم.»

ردَّدتُ الجملة في سري، بالفعل، ما خفيَ كان أعظم.. يبدو أن حرب كسري وملاعبتي قد بدأت، فهذا المقطع لا يمكن تسريبه إلا من خلال إدارة المستشفى التي تمتلكها مجموعة «الهانم»، والتي يبدو أنها قررتْ محاربتي بكل طرق، حتى لو كان هذا سيلحق بعض الضرر القليل بإحدى ممتلكاتها.

خرجتُ من الكافيه بسرعة.. خلف مقود القيادة في السيارة جلستُ، وصدري يضيق كأن أحدهم يضغط بشدة على عنقي ويمنع الهواء عني، أختنقٍ، أتصبب عرقًا، فقدتُ السيطرة على جسدي، لم أعد أستطيع التحكم في هذه الانتفاضة العنيفة التي تهز جسدي..

t.me/qurssan

آه! الرؤيا، الرؤيا اللعينة تعود من جديد، كابوس الصحو الذي كدتُ أنساه، ها هو وجهي المُشوَّه يخرج لي من العدم، يطالعني في إغماضي وإبصاري، لكنه يبكي هذه المرة، يبكي بمرارة، يبكي ويضحك في آن واحد في هيستريا وملامحه تتساقط، لكنه غير مبالٍ بجمع نُتف اللحم الساقطة.

وأظلم العالم من حولي.

t.me/qurssan

(٢٠) التمام

جلس أمامي «سلمان»، في مكتبه الذي صار يمنحني التواجد فيه إحساسًا صادقًا بالسكون، وناولني كوبًا من الماء وهو يتأملني من خلف عدسات عويناته الغامقة.. ربت برفقٍ على كتفي، فرفعتُ رأسي تجاهه وأنا أحاول التحكم في النفضة العصبية التي أصابتْ جسدي كُلَه.

سألني بهدوء: «ناوي تعمل إيه؟».

كان الفزع يشق قلبي بنصله الحاد بلا رحمة..

ماذا سأفعل؟ تعلمتُ من سنين العمل على السوشيال ميديا أن هذه الأوقات العاصفة تحتاج الهدوء أكثر من أي شيءٍ آخر، وغالبًا ما يكون الحل في تجاهل ما يحدث تمامًا، وأن تكمل ما كنتَ تفعله.. هذا التماسك له ثمن في وقتها بالطبع؛ قد تتلقى مئات الشتائم، وربما الآلاف، لكن أجمل ما في ذلك العالم

t.me/qurssan

الوهمي أن وهميته وهشاشته تتجلى في ذاكرته، حيث كل شيء فيه قابل للنسيان، الخير والشر، أكثر الأفعال الإنسانية جمالًا وقبحًا، كل شيء بلا استثناء مهما بدا لكَ غير قابل للتجاوز، سيُنسى كأن لم يكن، سيتطاير بمرور الأيام كذرات لا مرئية في الفضاء الإلكتروني.. فضائح الغد ستحل مكان فضائح أمس، والعجلة تدور، والكل يسابق أوهامه ولا يملك وقتًا كافيًا للتأمل أو اتخاذ موقفٍ صادق من شخص ما أو فكرة محددة.. اليوم هو من أشد دراويشك تعلُّقًا بك، غدًا سيكون في الصفوف الأولى لشاتميك، وربما بعد بُرهة يعود لصفوف محبيك والمدافعين عنك والمبررين لذلاتك.

سأتمسك بالهدوء، والصبر، سأواصل التواجد على المنصات المختلفة بنفس المعدلات الطبيعية التي عودتُ الناس عليها.. سأمر بفترة صعبة غالبًا لكن فرص نجاتي تظل قائمة.. المهم فيما سيحدث لا ما حدث.

كيف ستكون الضربة القادمة، ومن أين ستأتي؟

الأفكار تنهش عقلي نهشًا، أريد الانهيار لكنه يظل ـ كما كان دومًا ـ ترفًا بعيد المنال، الدور الذي اخترته لنفسي في حياتي الجديدة يفرض عليَّ التماسك الظاهري، وكياني تعصف به الأفكار السوداء.

قرر «سلمان» تغيير دفة الحديث وطلب مني أن أحكي له عن «فيروز» وتجربتي معها حتى الآن.. حكيتُ له كل شيء، عن

t.me/qurssan

إحساسي الشديد بالراحة، وعلى جهة أخرى القلق الذي يغرس مخلبه في راحتي هذه، يُخيفني بكل الاحتمالات الممكنة، يهمس لي أن هذا الارتياح ما هو إلا شعور مؤقت سيزول حتمًا، تاركًا لي فراغًا جديدًا في قلبي الذي أكاد أشعر به في بعض الليالي يتجمد في وحدته في صدري، بين كل ذلك الزحام من حولي أتجمد.. حكيتُ لـ «سلمان» عن أنني أرتجف أحيانًا تحت الأغطية من هاجس يُلح عليَّ أن الموت قد يزورني في أيةِ لحظة، فيجدني وحيدًا دون أنيسٍ يُناولني كوب ماءٍ أخير، يلقنني الشهادتين، يَربتُ على كفي برقة، رقة قد تخفف عليَّ آلام الفُراق الأخير.

لا أعرف إلى ماذا ستؤول الأمور معها، لا أملك يقينًا إلا بإحساسي العميق بصدقها، وأنها لا تشبه الزيف الذي تعاملت معه بداخل معظم مَن قابلتهم بعد تفتُّح وعيي.. لكن الخوف قاتل متسلسل صبور، يجيد التسلل لأدق نقاط ضعف صاحبه حتى يدهسها بقدمه الغليظة، يفاجئني في عز اطمئناني، فيزلزل كياني كله، في الأسبوع الحالم الذي عشته معها، وعندما أكون مندمجًا في محادثة طويلة معها، أكاد أسمعه يهمس في مؤخرة وعيي: لا تصدق كل هذا، ما تعيشه ليس سوى خُدعة جديدة! وما هي إلا طعنة جديدة ستصل مباشرة لمقتلك، لا تُعطها الأمان، لا تصدقها، أتصدق أنك تُحَب بكل ما اقترفتَ من أخطاء وخطايا؟ ولو صدقنا أنها صادقة، هل ستحكي لها عن أسرارك؟ هل ستطلعها على جوانبك المظلمة؟ أتأتمن إنسانًا مرة أخرى؟ يا لك من غبي لا

t.me/qurssan

يتعلم من أخطائه!

جلس «سلمان» أمامي مستمعًا في صمت لما أقول، قبل أن يضيف مبتسمًا: «بس أنا أول مرة أشوفك بتتكلم بالانفعال دا عن أي إنسان، دا دليل إنها لمستْ جواك جزء ما حدش شافه من زمان يا يحيى».

ثم انتفض كمَن تذكر شيئًا نساه، وقال لي وهو يرفع إصبعه مهددًا في وجهي، وهو يفتعل غضبًا طفوليًا في نبرات صوته: «ثواني كدا ثواني! بقى حكيت لها عن والدتك الله يرحمها وظروف وفاتها، ومحكيتليش أنا! أنا سلمان ما تحكيليش وتحكي لها! ياه ع الرجالة! أنا صبرت عليك كتير، اتفضل احكي لي عن التجربة العاطفية اللي كل مرة تلمح ليها وتهرب».

لمح ترددًا في قسمات وجهي، فأضاف بجدية: «مهم إنك تحكي لي يا يحيى، محتاج أفهم منك.. إحنا قربنا نفهم مع بعض حاجات كتير وأظن إنت لامس التقدم في شخصيتك.. صحيح إنت ابتديت تقرا وتتفرج على أفلام زي ما اتفقنا من فترة؟».

أجبته بنعم، نعم عدتُ للقراءة ومشاهدة بعض الأفلام الجادة التي تجاهلتها لسنين، حاصرتُ نفسي فيها بالزيف كي أنجح في إعادة تدويره وإنتاج المزيد منه.. عدتُ لبعض ممارسات حياتي القديمة، والأمر مربك لي، كأني أحيا حياتين في جسدٍ واحد، لكن لا أنكر أن أشياء في روحي استيقظت مع أول روايةٍ أنهيتها، ومع الدمعة التي انداحت على خدي في مشهد النهاية من ذلك الفيلم

t.me/qurssan

العذب الذي ذكَّرني بحبي القديم للسينما، الحب الأول الذي زرع حلم التمثيل بداخلي.

ابتسم وقال باقتضاب: «كويس كويس، طيب اتفضل احكي، أنا سامعك».

قلتُ متهربًا: «يعني لازم يا سلمان؟ الموضوع دا بالذات تقيل على قلبي جدًا.. أنا ما افتكرش إني حكيته لأي مخلوق».

فقال مصممًا: «يبقى جه الوقت إنك تحكيه».

بزهو الشباب امتلأت روحي أيامها.. السنة الجامعية الأولى، واكتشاف الحياة بمنظورٍ أكثر اتساعًا وزخمًا.. تموج البلد بأحداث ما بعد ثورة يناير، تغلي في أتون من المتغيرات والأحداث والصراعات، والدماء والمظالم المتناثرة في كل شِبر.. تغلي البلد ومعها تغلي نفوسنا وتتضخم أحلامنا، تُحبطني الدراسة في قسم المسرح بعالمها الضيق بالنسبة لأحلامي، لكني أتمسك بحُلم التمثيل الاحترافي خارج أسوار الجامعة، أجرب وأحاول، هنا وهناك، وفي كل مرة تصدمني الحقيقة العتيدة: الموهبة وحدها لا تكفي.

لا بُدَّ من أشياءٍ كثيرة بجوارها، كامتلاكك لعلاقات اجتماعية واسعة، ودخولك ضمن دوائر المصالح المتحكمة في اللعبة، حتى الوسامة لا تكفي إذا لم تكن تنوي استخدامها بالطريقة المناسبة.

t.me/qurssan

إحباطات يهزمها مناخ عام اكتنفنا جميعًا أشعرنا بأننا نقدر، في مجموعنا نقدر على التغيير، وكأفراد يقدر كل مِنَّا على أن يشق طريقه نحو حُلمه.. لكني كنتُ وحيدًا، وحدة عاطفية ضاعفتْ إحساسي الأصيل بالوحدة الذي لازمني منذ طفولتي، لكني الآن في مرحلة مختلفة، أهفو للحب وإن لم أعترف بهذا لنفسي بصوتٍ عالٍ، لكني مفتقد للحب بكل ما كنتُ أعرفه عنه من الكتب والسينما والمسرح وحكايات الأصدقاء، أفتقد أن أعود للمنزل في نهاية يوم حافل، فأدخل في حديثٍ طويل مع مَن أعرف أنني رجلها، نحكيَ عن أتفه الأشياء ربما، ولا أمانع حتى في أن نتشاجر، بشرط أن نتصالح في النهاية، وربما في الغد صباحًا، لا تهم التفاصيل، لكن قلبي في حاجةٍ ماسة للدفء، دفء لا توفره صُحبة الأصدقاء، ولا الكتب، ولا التمثيل، دفء لم أعرفه في حياتي بعد.. وأفتقده، ولا أجد حلًا لافتقادي له سوى المزيد من الانتظار لحدوث شيءٍ ما، شيء لا أدركه بالضبط لكني أظن أنني سأعرفه عندما أصادفه.

وفي صباحٍ بارد صادفته، وقابلتها..

بكفٍ رقيقة باردة صافحتني، وعرَّفني عليها «محمود بدري»، رفيقي الدائم في تلك الأيام البعيدة، قائلًا بصوته المعدني قوي النبرة: «ولاء فوزي.. زميلتنا من كلية آداب سنة أولى، زيك يا يحيى».

ابتسمتُ وفي صدري إحساس غريب لم أعرفه من قبل، راحة غريبة تكتنفني كأنني بلغتُ أجمل أحلامي للتو، سكون وهدوء

t.me/qurssan

تمكنا من روحي، كأنني أرتاح أخيرًا بعد سيرٍ طويل.

القصة التي ستحدث بعد هذا معروفة، ومحفوظة، ومن فرط تكرارها أشعر بالخجل من نفسي وأنا أتذكرها.

ستحبها بكل طاقة المحبة التي اختزنتها داخلك لسنين، حتى ما كبتَّهُ تجاه أبيك من حب ستعطيه إياها، ستمنحها نَفْسك في أجمل صورها وأكثرها تألقًا، ستحبها كأنها كل ما انتظرتَ وأنت تشعر أن الحياة تمنحك فجأة، وأخيرًا، ما تريد.

ستسير معها في كل الطُرقات والشوارع التي تحبها، ستُعرِّفها على المقاهي التي اعتدتَ ارتيادها وحدك عندما تهرب من العالم، ستخبرها أنك لم تعد ترغب في الهروب من العالم وحيدًا، تريدها معك في هروبك ولو للأبد..

ودعوت الله في سرك: «ويا رب للأبد».

لكنها لم تمنحك هذا الأمان الأبدي أبدًا، ستعترف لكَ بحبها، نعم هذا سيحدث في صباح ربيعي جميل، أنت الذي لم تحب الربيع يومًا ستحبه يومها، وستحب النسكافيه الذي كُنت تعشق ملامح وجهها ودخانه يتصاعد بينما تحتسيه بفمها الدقيق.

ستعترف لك بالحب، لكنها في كل مرةٍ تخبرك أنها خائفة، خائفة مما يخبئه القدر، وخائفة من تبدُّل أحوال القلوب، ستبكي أمامك كثيرًا وهي تحكي لكَ عن خوفها، وستحب ملامحها في البكاء أكثر، كل شيءٍ فيها دقيق مرسوم بعناية كأنها لوحة رسمها فنان موهوب قبل رحيله فوضع فيها كل موهبته، فمها دقيق ولها

t.me/qurssan

أنف مسحوب برقة في استطالة تتلائم مع عينيها اللتين لهما لون البحر، زرقاوان تجيدان خطف قلبك متى لمحتهما.

«ولاء» تحبك لكنها خائفة، فتتعهد بينك وبين نفسك أن تطمئنها بكل ما تملك.

لكن ما تملكه قليل، هذه هي الحقيقة، و«ولاء» ثرية بنت أثرياء، وهذه حقيقة ثقيلة أُخرى، صحيح أنها لا تميل لاستعراض ما تحت تصرفها من أموال، لكنها حقيقة ظاهرة في ملابسها ونظاراتها الشمسية العديدة وإكسسواراتها الرقيقة التي لا يكفي راتب أبيك خلال سنة كي تقدر على شراء نصفها.. هداياها لك ثمينة للدرجة التي تجعل هداياك تبدو مضحكة.. لكنها تفرح بها، تضحك، وتمسك بيدك وتُقبِّلها وتخبرك أنها تحبك..

وبعد قليل ستخبرك أنها ـ أيضًا ـ خائفة.

لم تكن عميقة الثقافة لكنها تقرأ، لكن قراءاتها لم تمنعها من الانزواء سريعًا عن نشاطكم الطُلابي ذا الصبغة السياسية بعد أن تغيَّرت قواعد اللُعبة، وبدأت المضايقات تتصاعد ضد أعضاء التيار الثوري.

ومع ابتعادها التدريجي عن التيار واجتماعاته ونشاطاته، تقل لقاءاتكما بالتدريج.. لم تعد تجيب على اتصالاتك في وقتها، وأصبحتْ رسالتك على هاتفها تنتظر لساعتين أو أكثر حتى تُقرأ، يخالجك الخوف والقلق، لكنها تعود وتظهر وتخبرك أنها تحبك.

t.me/qurssan

ثم تكثر مرات الاختفاء، وكل مرة تظهر وتبرر، تخبرك أنها حزينة وتعاني من اكتئاب ضاعف إحساسها المُعتاد بالخوف.. نحسدك الجامعة كُلها تقريبًا عليها، ترى نظرات الحسد والغيرة في العيون، وتتجاهلها في سعادة، فـ «سندريلا» الجامعة اختارتك أنت دون الجميع.

والخوف هذه المرة داخلك أنتَ، أنتَ وحدك تدرك جيدًا عن أشياءٍ تتغير ولا تملك لها إيقافًا.

ثم تبدأ نبرة جديدة في الظهور، حديث جديد بدأ حذرًا ثم تعالى صوته عن متى تخطبها، وكيف ستقنع أباها بكَ، وهو تاجر السيارات المعروف الذي لن يقتنع بحدوتة ممثل هذه.. تخبرها أنك ستنجح قريبًا في الالتحاق بدور احترافي يبرز موهبتك، بالتأكيد قبل نهاية دراستك في الجماعة ستنجح إحدى مساعيك العديدة التي تذهب من أجلها للقاهرة التي تكرهها، تسمعك وتهز رأسها موافقة، لكنك تلمح في العينين الزرقاوين تجاهلًا وعدم اقتناع.

والخوف يزداد داخلك، ومعه تزداد نوبات اختفائها ورجوعها إليك.

وأنت ضعيف معها، ضعيف بعكس طبيعتك القوية التي لا تقبل مثل هذه الممارسات أبدًا، ضعيف لا تملك من نفسك شيئًا في حضورها، كأنك تتبدل معها لشخصٍ آخر.. في البدء كُنت تحب هذا الضعف، في الوقت التي كانتْ تَمنحك إحساسًا عميقًا بتقديرها لهذا الضعف من خلال تصرفاتها معك.. لكن الآن..

t.me/qurssan

تهجرك وتعود، تتجاهل مئات الاتصالات والرسائل منك على مدار أسابيع، وتعود بتبريرات مُعادة، وأنت تستمتع وتغفر، لكن ثُقبًا في قلبك بدأ في التكوُّن، ثقب سيصبح بمرور الأيام جُرحًا عميقًا يستحيل رتقه.

وفي صباح ربيعيّ آخر، مختلف تمامًا عما قبله، ستتلاقيان، لكن أشياء كثيرة تغيَّرت بينكما، بالتحديد فيها هي، تحدق في عينيها، تبحث عن أي شيءٍ مما اعتدتَ أن تجده فيهما، فلا تجد فيهما مما تعرف.. لمَ يتغير الناس بهذه الحدّة دون أن نرتكب ذنبًا تجاههم؟

لا تجزع، ستمتلك وقتًا كبيرًا فيما بعد لتسأل نفسك كل هذه الأسئلة، عليك الآن أن تركز في صوتها، وهي تخبرك أنها تشعر أنها ترغب في الابتعاد وإنهاء العلاقة، وأنها لم تعد تجد في نفسها ما تقدمه لك، وأن علاقتكما تحكم عليها ظروفكما بالفشل قبل أن تولد حتى.. سيجف ريقك، وتعتمل مرارة من نوع مختلف عليك في حلقك، مرارة لا تشبه ما ذُقته في حياتك القَصيرة من مرارات مختلفة، ستحاول التماسك واستجماع التركيز في كلماتها، ستسألها عن قصدها بحكم الظروف، وستجيبك بالفروق بينكما والتي تدركها كل يوم أكثر، وأنها لم تعد فتاة السنة الجامعية الأولى، التي كانت ترىً أن هذه الظروف واهية لا تقف أمام حبها، وأنها تنضج ومعها رؤيتها للعالم تتغير، وأنها لا ترى أفقًا يمكن لعلاقتكما أن تستمر من خلاله.. ثم ختمت حديثها بجملة ساخرة

t.me/qurssan

أعادتك بكامل وعيك للواقع:

- مش عايزه أحطك في موقف شبه بتوع الأفلام العربي الرخيصة، تيجي بقى تتقدم لي وترفض وأبويا يقعد يقلل منك وانا أبقى بسمع الكلام ومقهورة ومش عارفة أعمل حاجة.. أنا مش هقدر أتحدى أهلي يا يحيى، حتى لو بحبك، مش هقدر أتحداهم.

ستصمت، ستهز رأسك كأنك تتفهم وتصمت، ستدفع الحساب، لا تذكر كم دفعت بالضبط، غالبًا أكثر من المطلوب بكثير، لكنك ترغب في الرحيل سريعًا من هنا.. لماذا أصبحتْ الرؤية بهذه الصعوبة؟ ما هذه الغمامة التي تعيق الرؤية عن عينيك؟

لا أعتقد أبدًا أنها دموع، ربما هو إحساسك فقط بأنه تم الاستغناء عنك بهذه السهولة، أم هي دموع حقًا؟

قال لي «سلمان» وهو يُحدِّق في عينيَّ بتركيزٍ كأنه يبحث عن شيءٍ ما: «وبعدين؟ أكيد مش دي نهاية القصة، مش دا اللي يخليك تفقد الثقة في الستات كلهم بالشكل اللي أنا بشوفه فيك دايمًا».

لم تنته القصة عند هذه النُقطة، وليتها انتهتْ.

بعد عشرة أيام من انفصالنا، عشرة أيام قضيتها منعزلًا في غُرفتي لا أخرج منها إلا لدخول الحمام وتناول بعض فُتات الطعام،

t.me/qurssan

فتحتُ فيسبوك لأجد صور عقد خطبتها على «محمد عصام»، طالب الفرقة الرابعة بكلية تجارة، الذي تعرفه الكلية كلها بسبب سيارته الفارهة التي يسد بها البوابة وهو داخل إلى حرم الجامعة.

بدتْ سعيدة للغاية في الصور، تضحك، تنظر لعينيه كما كانت تنظر لي.

لا يمكن أن يكون قد تمَّ هذا كله في عشرة أيام، بالتأكيد لا، القصة بدأت مُبكرًا، بدأت ونحن ما نزال سويًا، هل اقتسمتِ نفسك بيني وبينه؟!

تلميحات «سامي» لم تكن خافية عني، لم يطمئن لها أبدًا كما لم يطمئن لـ «محمود بدري»، نظرات مَن حولي كانت تحمل أحيانًا شفقة تجاهي، ولم أكن أفهم لماذا؟ فسَرتها حسدًا، لم أرد تفسيرها إلا بهذا.. و«سامي» هل كان يعلم؟ هل عرف عنها ما لم أكن أعرفه في حينها؟

تُرى كم كانت فترة خيانتها لي؟ وهل كان كل ما بيننا كذبًا؟

الإجابات لن تُغيِّر من الواقع شيئًا، لكن الحيرة تحفر في قلبي بمسمارٍ صدئ.

عرفتُ أيامها الحُزن كما لم أعرفه من قبل، لمست الألم الذي يُعد تشبيهه بأي شيءٍ مُجرد ادعاء ليس إلا، الحزن الحقيقي لا يمكن وصفه، ولا يحتاج لتوصيفٍ من الأساس، هذه الطاقة السوداء التي تحيطك من كل اتجاه، هذا الثقل الذي يضغط على روحك وأعصابك حتى تكاد لا تتحمل نظرات البشر، لماذا يسعون

t.me/qurssan

دومًا لتوصيف الألم؟ مَن عاشه بصدقٍ يعرف أن وصفه مستحيل تقريبًا، هل يمكن أن تصف إحساسك بأنك تتفتت من الداخل؟

سكتُّ طويلًا، وسكتَ «سلمان» بُرهة، ثم قال وهو ينظر في اتجاهٍ غير اتجاهي:

«في الجامعة حصلت لي قصة شبه اللي حصلت لك شوية، مش بالظبط بس شبهها.. ما انكرش إن ليها تأثير عليا لغاية النهاردة، بس إنت أخدت أسوأ رد فعل ممكن، إنت بتوجع نفسك يا يحيى.. اللي بتعمله خلاك تمشي حياتك كلها كأنك بتنتقم منها، وانت في الحقيقة بتنتقم من نفسك.. عايش حياة مش شبهك ومش مبسوط فيها، وبتعمل مع بنات حاجات بردو مش شبهك وبتتعبك أكتر.. أعتقد يا صديقي إننا الفترة الجاية لازم نحاول بالتدريج نشوف إنت عايز إيه من جواك وتبدأ تعمله، مش تعمل اللي بتثبت لنفسك بيه إنك قادر تعمل اللي بتعمله.. الإنسان مش محتاج يثبت لنفسه ولا للناس حاجة يا يحيى، كل واحد بيبقى محتاج يقرَّب من حقيقته مش من اللي عايز يكونه، من اللي بيرتاح له وبيكون حقيقي وهو بيعمله».

قلتُ دون إدراكٍ مني: «عندك حق».

وتعجبتُ من نفسي، خرج الرد مني دون أن أشعر! هل هذا صوتي الداخلي فعلًا؟

قررتُ تغيير الموضوع لتقليل إحساسي بالتوتُّر وقلت له:

t.me/qurssan

- على فكرة البوَّاب اللي في العمارة بتاعتك دي قليل الذوق جدًا.. كل مرة وأنا طالع يقعد يُبص لي بشكل مريب كدا كأني فتاة ليل.

ضحك «سلمان» وعدَّل من وضع نظاراته وهو يقول: «إنت شُفت البواب تحت؟».

فأجبته: «كذا مرة يا عم، راجل دمه تقيل ومش مريح».

هزَّ رأسه مُبتسمًا ثم سألني: «هتقابل «فيروز» قريب؟».

أجبته بأنني سأقابلها خلال يومين، فطلب مني أنه يريد أن يحضر ليقابلها يومها.. استغربتُ قليلًا من الطلب، ثم أجبته بأنني لا أمانع بالطبع، لكن ليس يومها بالتحديد، أريد أن أتحدث معها وحدنا.

وافقني على كلامي قبل أن أودِّعه على وعدٍ بلقاءٍ قريب جدًا وأرحل، وفي نَفْسي كثير من الارتياح برغم كل ما يحدث.

t.me/qurssan

(٢١) التمام

جَرتْ الأمور بسُرعةٍ غريبة.

في اليوم التالي ظهرت على فيسبوك صفحة تحمل اسمًا جذابًا: «فضايح يحيى الحاوي»، وكان أول منشورٍ عليها يتمثل في تفريغ صوتي لمكالمةٍ تجمعني بأحد وكلاء شركات الدعاية، بخصوص تلك الحملة التي قُمت بها منذ عام لصالح إحدى الشركات الغذائية، والتي كانت تتعرض أيامها لحَملةٍ إعلامية ضخمة تُشكك في مدى صلاحية منتجاتها.. قمتُ أيامها بحملةٍ دعائية مَخفية بدأتُ خلالها بالهجوم عليهم، ثم قُلت أنهم راسلوني، ليؤكدوا لي أن ما يُروج ضدهم محض إشاعات، وقُمت بتسجيل عدة مقاطع مصورة من داخل مصنع الشركة الرئيسي ومقرها الإداري الضخم، وجعلتُ الأمر يبدو تلقائيًا تمامًا.. كانتْ المكالمة تُبرِز تفاصيل الاتفاق المادي، كل شيءٍ تقريبًا في اللعبة التي صممتها معهم، وأتت ثمارها مع الجمهور بالفعل، صدقوها كأنها محض تلقائية.

t.me/qurssan

انتشرتْ المكالمة كالنار في الهشيم.. وانهالتْ آلاف من الرسائل والتعليقات المصحوبة بالتساؤلات والسُباب على صفحاتي.. تابعتُ ما يجري وبداخلي شعور عميق باللا مبالاة.

فاجأني هذا؟

ربما.. لكنه أكَّد لي ما كنتُ أعرفه من خلال الأيام الماضية.. لم أعد حقًا مهتم بما يجري لي في هذا العالم، لم يعد مُغريًا لي كما كان.. لم أعد أخاف بنفس القدر أن أفقد فيه وجودي، ربما تكون نجاتي في هذا ولا شيء غيره.. ربما لو خرجتُ من كل هذا الزيف لأحسستُ بشعورٍ أفضل تجاه نفسي والعالم، رُبما تنجح قصتي مع «فيروز»، ربما تكون إنسانة جيدة بالفعل، ربما ـ برغم صعوبة هذا ـ تتقبل أن تظلَّ بجواري بعد أن أعترف لها بكل خطاياي.

لم أعد مُهتَمًا، مللتُ كل هذا، ليفعلوا ما يشاءون.. ليحترق كل شيء، لم أعد مُهتمًا، لا أريد المزيد من نوبات الفزع، لا أريد هذه الوحدة.

في نفس المساء تلقيتُ اتصالًا من «محمد رشيد»، شريكي في حملة الدعاية اللعينة للمستشفى الاستشماري التي انفضح أمرها.. كنتُ أعرف أن جوهره طيب برغم أي شيءٍ يفعله، كان مجرد طفلٍ منبهر بلعبة الشُهرة التي وضعها القدر بين يديه، اطمأن عليَّ بشكلٍ مقتضب ثم أخبرني مُحذرًا أنه علم من أكثر من شخص أن هناك تعليمات لا يُعرف مصدرها باستبعادي من أيةِ احتفالات ضخمة تضم الفاعلين على السوشيال ميديا.. حتى المؤتمر العالمي

t.me/qurssan

الذي كُنت مدعوًا له خلال أسبوعين والذي سيقيمه «يوتيوب» هنا في القاهرة سيتم منعي من حضوره، فالجميع خائف مما يحدث لي ويرون أن بداية نهايتي بدأت.. لكنه ختم كلامه بما هو أكثر:

«بس أنا حاسس إن الموضوع أكبر من كدا يا يحيى.. مين اللي عامل الصفحة اللي بتفضحك دي؟ وليه حاسس إن فيه أوامر جاية من حد مش ظاهر لنا بإنك تتعزل وتقعد في البيت؟ إنت عارف إني بحبك، يمكن إحنا مش صحاب بس أنا ما شُفتش منك إلا كل خير، وعمرك ما غدرت ولا خُنت زي ما الكل بيعمل.. خُد بالك من روحك».

شكرته على كلامه الطيب.. وأغلقتُ المكالمة وبداخلي إحساس بالسكينة.

فلتدق الطبول، لينهار كل شيء.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(٢٢) التمام

لم أنم طوال الليل؛ ظللتُ أقرأ وأفكر، قرأت نصف رواية «الفقراء» لـ «ديستويفسكي»، واستعدتُ ذكرياتي في القراءة معه خلال مرحلة الثانوية وما بعدها، مع كل سطرٍ في الرواية كنتُ أتذكر شيئًا ما يخص حياتي الماضية التي هجرتها، هل كانت حياتي الماضية سيئة إلى هذا الحد؟

تعرضتُ للكثير من الصدمات، نعم، وخذلني معظم الأقربين في مواضع الثقة.. لكن هل الحياة التي دفعتُ بنفسي إليها فيما بعد أراحتني؟

لا أجد في نفسي الآن رغبة ولو حتى ضعيفة لخوض المعركة التي تدفعني «ورد» ومَن معها لخوضها.. منذ مساء الأمس وهاتفي لم تتوقف المكالمات المتوالية عليه، والمتصلون كلهم بين شامت، ومنتفع، وفضولي يرغب في الاستزادة من المعلومات.. لم أجب

t.me/qurssan

عن أيةِ مكالمة، وانتظرتُ في صبرِ الساعة السابعة والنصف لتأتي.. أعرف أنه لم يُغيِّر ميعاد استيقاظه حتى بعد إحالته إلى المعاش.

أمسكتُ الهاتف، وتنفستُ بعمق، أعترف أنني متردد قليلًا بحيال ما سأفعل، لكني أرغب بشدة في الاتصال به، أحس بشيءٍ داخلي سيهدأ عندما أفعل هذا.. وربما أخجل من الاعتراف لنفسي أنني ظللتُ أفكر طوال الليل أنني أفتقده، بكل تفاصيله، صوته وطريقة حديثه الجذابة المميزة وحضوره الآسر كأنه «رشدي أباظة» متألقًا في عز زمانه.. أفتقد أمانًا طالما أحسستُ به في حضوره.

لم تكتمل رنَّة الاتصال الأولى، حتى أجابني بصوتٍ متحشرج لا تخفى في نبراته اللهفة:

- يحيى! عامل إيه يا ابني؟ إنت بخير؟ فيك حاجة؟

تلعثمتُ قليلًا وأنا أخبره أنني بخير، بدا قلقًا لأنه لم يعتد اتصالي به في مثل هذه الساعة المُبكِرة، في الواقع لا أذكر أنني اتصلتُ به منذ أربع سنوات، فحتى المرات القليلة التي تحدثنا فيها كان هو المتصل دائمًا.

سِعل بشدة، فارتج قلبي، وسألته بفزعٍ إن كان بخير، فأجابني ضاحكًا بسعادة:

- أنا بخير يا حبيبي، زي القرد والله، بس قدر عجوز بقى عنده دور برد شديد شوية، بس الحمد لله بخير، كفاية إنك اتصلت بيا عشان أبقى بخير.

t.me/qurssan

صمتٌ متبادل استمر بيننا قرابة دقيقة، لم اكن أعرف خلالها ما أقول، لكن صوت تنفُّس أبي على الجهة الأخرى كان كافيًا ليُشعِرني ببعض الطمأنينة، طمأنينة طفولية، كأني عدتُ ابن سبعة أعوام يجلس قرابة أبيه وهو يقرأ الجريدة، ويراقب ملامح وجهه وصوت تنفسه الهادئ.

قطع الصمتُ بطريقته المميزة المسترسلة في الحكي دومًا، كأنه يكمل قصة بدأها من قبل:

ـ صحيح، إنت عارف إني امبارح وأنا قاعد مع العواجيز صحابي ع القهوة، لقيت واحد منهم بيوريني شاشة موبايله وبيقول لي: «مش دا يحيى ابنك؟»، كان مشغل فيديو ليك على النت ده، وقالي إن الفيديو متشاف كتير أوي، اتنين مليون قال لي تقريبًا.

ثم سكتْ هُنيهة وأضاف بصوتٍ سعيد النبرات:

ـ من امبارح بفكر أشتري موبايل من الجُداد دول عشان أعرف أشوفك.. ربنا يكرمك يا ابني، يحيى إنت ساكت ليه؟ إنت فيك حاجة يا حبيبي؟

نطقها بخوفٍ صادق زعزعني، بحنانٍ نطقها فدحر سنينًا من البعاد بيني وبينه، ارتج عليّ، وطفقت دموعًا في عينيَّ لا أعرف من أينٍ أتت، فحاولت التماسك وقلت له بصوتٍ حاولت أن يكون متماسكًا على قدر استطاعتي:

ـ مفيش حاجة يا بابا، وحشتني بس.

t.me/qurssan

فقال متحمسًا كأنه عاد عشرين سنة في عمره:

ـ طيب ما تيجي تشوفني، إنت كمان وحشتني أوي يا واد.. ولا أقول لك، ماتعطلش نفسك، أكيد وراك شغلك، أنا هاجي لك.. أنا بقالي سنين ما نزلتش القاهرة والله، هاجي لك بكرة يا حبيبي، هكلمك ها، ابقى رُد عليا، هقول لك حجزت في قطر كام.

أغلقت الخط، وانسابت الدموع رُغمًا عني، لكني لم أكن منزعجًا من هذا البكاء.. لماذا يكره الإنسان بكاء يصاحبه إحساس غامر بالسكينة؟

جلستُ أفكر، ثم اتصلت بـ «سامي»، رفيق روحي الذي تركته في «الإسكندرية»، ردَّ عليَّ مُهللًا في سعادة، كأنه غير مصدقٍ أنني مَن يتصل، وبعد أن اطمأن ـ مثل أبي ـ أنني بخير ولا توجد مصيبة دفعتني للاتصال به على عكس عادتي في السنين الأخيرة.. وانهمكنا في حديثٍ طويل، بلا بداية ولا نهاية، تكلمنا في كل شيء، وسار الحديث بيننا في سلاسة، بلا هدفٍ سوى الحديث نفسه، في الحديث مع بعض الأصدقاء مُتعة في حد ذاته، في الحديث نفسه راحة وبراح يتسع ويمتد، وهموم تنزاح من تلقاء نفسها، من إحساسنا بالأمان وأننا على طبيعتنا المُجرَّدة، حتى تلك الأشياء التي نخجل من إظهارها فينا أمام الآخرين.

أغلقتُ المكالمة مع «سامي» على وعدٍ قريب باللقاء في الإسكندرية، وجلستُ مُبتسمًا أتابع سيل الشتائم اللاذعة المتزايد

t.me/qurssan

على صفحاتي، من خلال التعليقات والرسائل، غير شاعرٍ بالأسى كأنها تخص شخصًا آخر غيري.. ثم وجدتُ أحد المشاهير الصاعدين في فضاء الإنترنت ذي الزيف البديع، يتحدث عما أسماه «فضائح يحيى الحاوي»، مقطع مُصوَّر بإمكانيات متوسطة نم إنتاجه على عجل، ليلحق بـ»الترينـد» الجديد في بدايته.. شغلتُ المقطع المُصوَّر وجلستُ أتابعه، لم أنفعل كأن الكلام لا يخصني، وحملتُ داخلي شفقة تجاه هذا الشاب الصاعد حديثًا في عالم الشُهرة، تلمع عيناه وهو يتهمني بالتزييف والتربُّح واستغلال المتابعين، تلمع عيناه بشهوة الانتشار المجنونة، أعرف هذه اللمعة يا عزيزي، أعرفها، كم هي آسرة، لها لذة تضاهي أكثر الشهوات قُربًا للنفس الإنسانية.. المقطع يحقق انتشارًا سريعًا، ها نحن نشهد ميلاد صاعد جديد للهاوية.

اتصلتُ بـ»فيروز» وأكدت عليها ميعاد لقائنا في المساء، وأغلقتُ معها المكالمة السريعة، وقبل أن أترك الهاتف من يدي، وجدت رقم «نعمة» الشخصي على شاشة هاتفي، لابد أنها رأتْ ما يحدث واتصلتْ لتطمئن.. جاءني صوتها ملهوفًا بشدة وهي تطمئن عليّ، ثم أخذت تسب «ورد» وكل مَن يعمل معها، وتدعو الله عليها أن تحترق في موضع جلوسها.. ضحكتُ رُغمًا عني لعصبيتها الصادقة، وأخبرتها أنني غير مهتم لكل ما يجري، فقالت باستغراب:

t.me/qurssan

- مش مهتم إزاي يا يحيى؟ واسمك اللي عملته في السنين اللي فاتت يا حبيبي؟ أنا لسه عارفة باللي بيحصل دلوقتي، أنا في الإمارات كنت بظبط كام حاجة في فرع شركتي هنا في دبي.. بقول لك إيه، أنا عايزاك تشتغل معايا، تعالى امسك فرع الشركة هنا في «دبي»، براحتك، سنة سنتين، لغاية ما تزهق، ولا يهمك منهم يا ابن الأصول، ويوم ما تحب ترجع مصر ارجع بس تكون الموجة هدت عليك شوية.. لو وافقت هبعت لك تذكرة طيارة في ساعتين مع واحد تبعي لغاية البيت عندك.

شكرتها على كل شيء، أعرف صدق نواياها وطيبة قلبها، وأعرف أنها تحبني بصدق.. لكني أسكتُ حيرتها قائلًا بثباتٍ:

- يعملوا اللي يعملوه يا «نعمة»، صدقيني ما بقيتش مهتم، أنا ناوي أبعد عن العالم دا كله.. أنا قررت أبطّل.

t.me/qurssan

(٢٣) التمام

عند حلول المساء، كنتُ قد أتممت استعدادي للقاء «فيروز» في الكافيه القريب من شقتي، والذي يعرفني جيدًا العاملون به.. وفي اللحظة التي اتجهتُ فيها للباب كي أفتحه وأنزل، فوجئت بصوت الجرس يدق.. تأهَّبت وفتحتُ الباب حذرًا، لا أعرف من سيأتي لزيارتي هكذا دون موعدٍ وفي هذه الظروف العصيبة بالتحديد.

وفوجئت بـ «ورد» تقف أمامي.

ارتدت ملابسًا تميل للرسمية، لكنها لم تتخل عن إبراز أنوثتها حتى وقد ارتدت هذا «التايير» الأسود الأنيق.. تراجعتُ للخلف، وأفسحت لها الطريق، بينما خلعتْ نظاراتها الشمسية التي كانتْ تضعها، وخطتْ إلى داخل شقتي.

t.me/qurssan

جلستْ إلى أحد كراسي الصالون، كأنها من أهل البيت لا تحتاج لدعوة، ووضعت ساقًا فوق ساق، ونظرتْ لي في ثبات وقالت بصوتٍ ناعم:

- وحشتني!

ضحكتُ مستهزئًا وجلستُ على الكرسي المقابل لها، والذي يبعد مسافة متوسطة عن موضع جلوسها.. وقلتُ لها وأنا أنظر لساعتي:

- زيارة غالية جدًا يا ورد هانم، بس للأسف أنا مرتبط بميعاد مهم.. ممكن أتشرف بمعرفة سبب زيارتك العزيزة ليا؟

ضحكتْ بدلالٍ وقالت:

- مالك بتتكلم شبه نجيب الريحاني في أفلامه ليه كده؟ عمومًا أنا معنديش وقت، أنا جاية أجدد عَرضي اللي قلته لك يوم الحفلة، إننا نبقى حبايب، حتى لو من غير شغل يا يحيى.. أنا جاية أعرض عليك نتجوز.

صمتُّ من وقع الصدمة على عقلي، بينما واصلتْ هي حديثها في ثقة:

- أنا لسه عايزاك جنبي، ولسه براهن على ذكائك وإنك هتعرف تختار الصح ليك.. في اليومين اللي فاتوا إنت جَربت زعلي بيبقى وحش إزاي، بس لما نبقى

t.me/qurssan

حبايب وتحت سقف واحد، أنا أقدر أخلي مفاتيح البلد دي كلها تحت جزمتك.

أفقتُ وبدأتُ استجماع أفكاري سريعًا، فرددتُ عليها في بهكم:

- زعلك وحش أوي بصراحة.. تسريبات في التليفزيون من المستشفى بتاعتك، وصفحة فضايح على فيسبوك، وكمان من شوية ألاقي الإعلامي القدير بتاعكوا «محمود بدري» كاتب فيا مقال يشتمني، صحيح يا ورد هانم ابقي قولي له يحسن أسلوبه شوية عن كده، أيام الجامعة كان بيعرف يكتب أحسن من كده، إيه اللي جراله؟!

ثم أكملتُ حديثي، وقد أدركتُ أنني ملكتُ ناصية الحوار بقول ما لم تكن تتوقعه:

- بالنسبة لعرضك فهو مرفوض يا ورد هانم.. أنا مش هقدر أكون الإكسسوار اللي نِفسك فيه في حياتك.. بالنسبة لحربك ضدي فكملي فيها، أنا كدا كدا ناوي أبعد وأسيب كل حاجة.. هرجع «يحيى مصطفى» تاني، «يحيى الحاوي» ممكن تؤذيه زي ما يرضيكِ.

ابتسمتْ وهي تنظر لي بعينيها الميتتين، الخاليتين من أي تعبير، هذه النظرة التي صارتْ علامة تُميِّز شخصيتها في ذهني، ثم قالت بنبرةٍ محايدة تحاول أن تحتفظ بهدوئها:

t.me/qurssan

- جريء أوي يا يحيى، وجرأتك دي هي اللي عجباني فيك.. أنا أصلي بحب الرجالة الصعبين الشُداد اللي زي كده.. ماشي يا عم، ما بقيتش عايز يحيى الحاوي خلاص وشبعت منه.. بس هتعمل إيه لما نفتح في تاريخ «يحيى مصطفى» السياسي اللي اتنسى؟! الملف القديم اللي اتقفل في وقتها عشان القضية ما اتعملتش، ممكن يتفتح تاني، ونشوف بقى مين أشهر واحد في مصر وبيوجه الشباب، وهو قناعاته السياسية ضد البلد!

قمتُ وجلستُ على الكرسي المجاور لها، وملتُ تجاهها وقلتُ مُبتسمًا:

- يوم ما جيت لك الحفلة كنت لابس بدلة لطيفة كده، وفي عِروة الجاكيت بتاعها كان مشبوك دبوس صغير، لمحت عينك يومها بصَّاله، شكله كان عاجبك زي ما أنا كنت عاجبك.. الدبوس دا بقى يا ستي عبارة عن كاميرا، لعبة من الألعاب الغالية أوي اللي أنا غاوي أجيبها من بره وبتكلفني كتير، طبعًا إنتِ عارفة الأدوات دي، دي لعبتكم! كل حاجة عدت قُصادها في الحفلة متسجلة، والفيديو عندي، وكل حاجة باينة فيه.. من جسمك الجميل وانتِ قاعدة

t.me/qurssan

قدامي بالفستان التحفة المفتوح اللي كنتِ لابساه، لمزاد الجواري اللي كنتوا عاملينه.

لمحتُ تغيُّر لون وجهها للأحمر بالتدريج؛ فاعتدلتُ في جلستي وأكملتُ حديثي بنبرةٍ جادة هادئة:

ـ الفيديو مش معايا على موبايلي ولا موجود هنا في الشقة.. يوم ما يتقبض عليا أو أموت، هيظهر للناس.. طبعًا أنا عارف إنه ممكن يظهر وعادي ما يحصلكيش ولا اللي معاكِ أي حاجة، بس هتبقى فضيحة ودوشة كبيرة إنتِ بالذات في غنى عنها، إنتِ راس مالك الرئيسي إنك تفضلي في الضل وما حدش يعرفك.. ولو اتعرفتِ هتبقي كارت محروق بالنسبة للي مشغلينك.

لم تنطق، فقط قامت من مكان جلوسها، واتجهتْ لباب الشقة، وقبل أن تفتحه، قالتْ دون أن تلتفت:

ـ أنا ما حدش يتحداني زي ما انت بتعمل كده.. هتخسر يا يحيى، هتخسر كُل حاجة.

وصفعتْ الباب خلفها بعنف، بينما جلستُ مُسترخيًا في مكاني، مستمتعًا بلذة انتصار قد لا يدوم للأبد، لكن يكفيني الآن الغضب والرعشة التي سمعتها في صوتها، لهذا مُتعة تستحق الاسترخاء ولو مؤقتًا.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

(٢٤) التمام

ضغطتْ على يدي برقة، وتألقت عيناها الواسعتان في الإضاءة الخفيفة المُوزعة بعناية، هنا في الكافيه الهادئ الذي جلسنا فيه، نظرتُ في عينيها مُطوَّلًا.

تهدأ ضوضاء الكون داخل عقلي حينها، تتوقف الأفكار السلبية عن نهش بعضها البعض؛ كأن أحدهم أعادني للنُقطةِ التي بدأتُ منها مراهقًا بريئًا منذ سنين.

تسألني بدهشةٍ طفولية تأسرني:

ـ هو إنت بجد صوَّرت اللي كان بيحصل في الحفلة؟

ابتسمتُ وهززتُ رأسي نافيًا، وقلتُ:

ـ لا مصورتش حاجة.. أنا كنت رايح يومها مرعوب، وما كنتش أقدر أغامر بإني آخد معايا كاميرا لمكان زي دا ما كُنتش أعرف إيه اللي مستنيني فيه، ولا

t.me/qurssan

كنت أقدر أتوقع رد فعلهم لو اكتشفوا إن معايا كاميرا.. ما كانش في إيدي حاجة تانية ألاعبها بيها، وأعتقد هتخاف وهتسيبني في حالي ولو شوية.

تحولتْ ملامحها للجدية وهي تسألني:

- إنت بجد ناوي ترمي كل دا وراك وتسيبه؟ خلاص هتبطل تبقى «يحيى الحاوي» يا حبيبي؟ أنا مش بشكك في نواياك، أنا مصدقاك، بس دي خطوة كبيرة، وخوفي إنك تكون بتعمل دا عشاني وتنظلم بعد كده.. ما انكرش إني حبيتك إنت، حبيت يحيى مصطفى اللي كان بيسهر معايا على التليفون للصبح، وشُفت فيك طيبة وبراءة مش شبه الصورة اللي بتظهر بيها للناس.. بس دا قرار لازم تفكر فيه كويس، وتعزل تفكيرك عني شوية.

لم يكن الأمر خاصًا بعلاقتي بـ«فيروز» بشكلٍ منفصل عما سواه، لقد مللتُ! ملتت كل هذا ولم تعد روحي تطيق كل هذه الأجواء المسمومة التي أحطتُ نفسي بها لسنوات.. لا أنكر لـ«سلمان» مهارته في جعلي أعيد اكتشاف نَفسي من جديد، دون أن يفعل الكثير سوى جعلي أستمع لصوتي الداخلي الذي كنتُ أسحقه وأسجنه خلف أبواب حديدية باردة لا يتسرب من خلفها صوت.

جمعتُ المال، في حساباتي في البنوك منه ما لا أعرف فيما أنفقه حتى.. لكني لم أعد أريد الاستيقاظ لأبحث عن هاتفي في

t.me/qurssan

لهفة، لأبدأ في مطالعة عدة عوالم مصطنعة، صنعتها بيدي من الوهم على أكثر من منصة إلكترونية.. لا أريد لحياتي أن تظل سجينة لدى هذه الإلكترونات اللعينة! أريد حياة حقيقية، أريد زواجًا حقيقيًا، ومن قبله أريد حُبًا، وأحلم أن أكون جديرًا بمكانة «الأب» لطفلٍ آتي به للعالم وأنا غير خجولٍ مما أمارسه فيه.

لا أريد أن أصير ملاكًا، أبحث فقط عن بعضٍ من فطرتي الإنسانية العادية التي فقدتها كُلها تقريبًا في رحلتي.

لا أنكر أن لظهور «فيروز» في حياتي دور كبير في تأصيل الفكرة التي بدأتْ كهاجسٍ بعد زياراتي المتتالية لـ «سلمان»، ومع كل نوبةِ فزعٍ أصابتني في صحوي، كُنت أشعر أنني في موضعٍ لا يناسبني.

التفتُ فجأة للخلف، مما جعل «فيروز» تنتفض وتسألني:

ـ فيه حاجة يا حبيبي؟!

أخبرتها ألا تقلق، وفي داخلي ضغط عليَّ هاجس يعتمل في ذهني منذ جلسنا بأن أحد الجالسين قرب باب الخروج يراقبنا، ويركز بصره بالتحديد على ظهري.

حاولتُ تجاهل الهاجس، أريد الخروج من عالم الهواجس اللعين هذا للأبد يا الله!

التفتُ لـ «فيروز» من جديد، وسألتها بترددٍ لخوف أخذ يحوم في صدري منذ حكيت لها مُختصرًا عما لم تكن تعلمه من حياتي، وعن «ورد» وعرضها الذي قدمته لي، والحقيقة الواقعة

t.me/qurssan

لعملي القائم على صناعة الوهم وترويجه، وعن حبي القديم الذي أصبح حاجزًا بيني وبين الثقة في البشر من جديد، وعن «سلمان» وعيادته الغريبة وجلساتي المُطوّلة معه.. حتى مغامراتي النسائية البائسة التي لا أجد لها أي معنى إلا المزيد من إيذاء النَفْس، والرغبة في الإحساس بالسيطرة، والانتقام ربما، حكيتُ عنها بصوتٍ متلعثم خجول كطفلٍ يحكي لأمه عن خطاياه السِرية التي لا يعرفها أحد سواه.

حكيتُ كل شيءٍ كي لا أخدعها، وأنا أعلم أنني ربما أخسرها للأبد، من حقها أن تبحث لنفسها عن حياة مع إنسان عادي له حياة تخلو من كل هذه الممارسات المريضة.

قالت وهي تنظر لي مباشرة، نظرة طفقت بالمحبة، كأن للنظراتِ لُغة لا تدركها إلا عندما تحب، وفيما عدا هذا قد تجد الأمر مصدرًا للسخرية:

- أنا مصدقاك.. مفيش أي حاجة تجبرك تكدب عليا، ولا تحكي لي كل اللي حكيته.. وقلبي بيقول لي أصدقك.. وعقلي بيقول لي أحذرك يا يحيى، اوعى تغدر بيا، أنا مصدقاك وماشية وراك وشايفة فيك فعلًا إنسان كويس، كُله إلا الخيانة.. مش هسامحك، وهمشي ومش هرجع تاني.

ثم أضافت وهي تبتسم برقة وتنظر بعيدًا، كعادتها عندما يغلب طبعها الخجول رُغم شخصيتها القوية:

t.me/qurssan

- أنا عارفة إننا لسه في الأول، ولسه هنكتشف بعض أكتر ونقرَّب، بس أنا واثقة فيك، وواثقك كمان إنك موهوب، والموهبة اللي جواك أكبر بكتير من اللي كنت بتقدمه.

التفتُ للخلف فجأة، قاطعًا حديثها الذي كانتْ تسترسل فيه، هذه المرة رأيته، الشخص الذي جلس على الطاولة المجاورة لباب الخروج مُعطيًا ظهره لنا، لكني لمحته وهو يلتفت تجاهنا ويركز بصره علينا، لم ألمح إلا جانبًا سريعًا من وجهه، الذي أخفى ملامحه بنظارة شمسية تخفي عينيه وسُترة لها ياقة عالية نوعًا ما.. هممتُ بالقيام والسير تجاهه متجاهلًا تساؤلات «فيروز» عما يحدث، واتجهتُ ناحيته في تصميم، أرسلته «ورد» ليتتبعني بالتأكيد!

انتفض وقام خارجًا من الباب بسرعة، فبدأت أعدو في تجاهه، أحاول اللحاق به.

خارج الكافيه رأيته يجري في الشارع الضيق المجاور له، والذي يصل بين الشارع الرئيسي الذي يُطل الكافيه عليه والشارع الخلفي له، ممر ضيق معتم، رأيته فيه يركض بتصميم وخفة، استدعيتُ ذكريات المشاركة في المظاهرات، وركضتُ خلفه بكل ما أملك من قوة، أريد الإمساك به، أريد أن أعرف هويته ولماذا أرسلوه خلفي.. يندفع الهواء لصدري بأقصى قوته، ألهث، لكني أزيد من سُرعتي بقدر ما أملك من قوة، بقدر كُرهي لكل ما يخص «ورد» وعالمها ركضتُ خلفه، وأخيرًا لحقت به، ألقيت بجسدي

t.me/qurssan

فوق ظهره، لكنه كان متين البُنيان، استطاع التملُّص من تشبثي به سريعًا، ولطمني بشدة على وجهي ليبعدني.. لم ألمح من وجهه، في لحظة التحامنا عندما انزاحت النظارة الشمسية عن عينيه لأسفل قليلًا، إلا عينين كحيلتين عميقتا السواد، تظللهما حواجب ثقيلة مميزة، وهالات سوداء، عينان كل ما فيهما أسود بشكلٍ لا يمكن نسيانه.

لمحته يخرج من الشارع الضيق ركضًا في الاتجاه الآخر.. وفي نَفسي أقسمتُ أنني لن أتركه، حتى لو عشتُ عُمري كله أبحث عنه.

t.me/qurssan

(٢٥) التمام

وضع «سلمان» صينية عليها كوبين من عصير الليمون فوق المنضدة، وجلس بالقُرب مِنا، حيث جلسنا متقاربين ـ أنا وفيروز ـ على الكنبة الكبيرة الموجودة في صالة منزله.. كانت تضغط على يدي برقةٍ في يدها، لتسكِت ارتعاشة أصابتْ جسدي رُغمًا عني.. كانت هي نفسها متوترة مما يحدث، خاصةً أنها كذبت على والدتها وأخبرتها أنها ستبيت عند صديقة لها، ولم تكن تحب أن تكذب، خصوصًا على أمها التي منحتها ثقة مُطلقة لِما تراه في «فيروز» من رجاحة عقل.

قُلت لـ «سلمان» متوترًا: «قول لي أعمل إيه عشان يبعدوا عني؟ أنا ما بقيتش عايز حاجة من العالم دا كله يا سلمان، خلاص أنا زهقت وما بقيتش عايز أكمل.. بس هما مصممين يشدوني غصب عني تاني، أنا عايز أعيش حياة هادية وأحاول أرجع أعمل اللي كنت بحبه تاني».

t.me/qurssan

ثم أكملتُ حديثي بنبرةٍ أكثر هدوءًا: «أنا آسف إني جيت لك في وقت متأخر زي كده، بس معرفتش أروح لمين غيرك».

تجاهل «سلمان» اعتذاري له قائلًا في جِدية: «سيبك من كلامك العبيط ده، أظن إنت عارف كويس إن علاقتنا ما بقيتش علاقة دكتور بشخص بيزوره عشان يساعده، إحنا بقينا أصدقاء حتى لو في ظروف غريبة شوية.. أنا شايف إن موضوع «وردة» هيتحل بعد تهديدك ليها.. صحيح هي كبيرة، بس حتى الكُبار اللي زيها عندهم اللي يخافوا منهم، وانت بصراحة لعبت معاها على الحتة اللي بتوجعها، واللي هي عارفة كويس إنها لو حصلت هتفقدها قيمتها.. خلينا فيك إنت، إنت بجد عايز تبطل الشغل والحياة اللي كنت عايشها؟ مش مجرد اندفاع لحظي بسبب ظهور «فيروز» في حياتك؟

ثم وجَّه حديثه لـ «فيروز» وقال: «متأسف لو كلامي بايخ، أنا مش بقلل من قيمتك في حياة «يحيى»، بس إحنا لازم نتأكد من جِدية الخطوة اللي هو عايز يعملها».

في داخلي كان الأمر محسومًا، لم أعد أطيق حياتي، وما حدث لي خلال الشهور الأخيرة كان علامة لا تقبل الاختلاف بالنسبة لي، هذه الحياة لا تناسبني، لن أعيش متصالحًا مع نفسي وأنا أعلم أن مركز حياتي يتمثل في أن أحيا بصورةٍ مُزيَّفة لا تشبهني، لا تشبه ما أحس به.. في مراهقتي حلمتُ باحتراف التمثيل كمهنة، لكن أن أعيش حياتي أمثل في الواقع حياة لا تشبهني، فهذا مصير

t.me/qurssan

كرهته، ربما حلمتُ به في لحظةٍ ما عند خروجي ـأو هروبيـ من الإسكندرية، لكن الوقت أثبت أنها تجربة أجهزتْ على ما تبقى داخلي من تماسك نفسي، وحب للحياة.. لا أريد «يحيى» الذي يطارده في صحوه شبح مُشوَّه يشبهه، لا أريد نهاية تتمثل في الانتحار أو الجنون، وهما المصيران اللذان باتا أقرب إليَّ من أي وقتٍ مضى.

استمع «سلمان» لحديثي وشبح ابتسامةٍ يتشكل على شفتيه، وهزَّ رأسه في رضا ولم يُعقِّب.. ثم قال بصوتٍ به توتُّر يحاول إخفائه: «طيب بخصوص اللي كان بيراقبك ده، وشوية حاجات تانية، أستسمح «فيروز» إننا ندخل نتكلم جوَّه في مكتبي لوحدنا شوية يا يحيى».

كانت «فيروز» على وشك إجابته بالموافقة، فأسكتها بإشارةٍ من يدي، ونظرتُ مباشرة لـ «سلمان» وأخبرته أنني حكيتُ كل تفاصيل حياتي، كل شيء، لا أمتلك أمامها ما أخجل منه، فقد سمعت أبشع تفاصيل حياتي حتى تلاعبي البائس بالفتيات.

سألني «سلمان» بصوتٍ حذر:

«متأكد يا يحيى؟».

أجبته متوترًا بالموافقة، لم أكن أعلم لماذا يتحدث بهذا الغموض.. قلت بعصبيةٍ لم أستطع كتمانها:

«اتكلم يا سلمان لو سمحت أنا والله ما ناقص أي ضغط نفسي».

t.me/qurssan

سحب «سلمان» كُرسيًا غير الذي كان يجلس عليه، ووضعه وجلس بالقُرب مني، أمامي مباشرة.. ولأول مرة منذ تعرَّفتُ عليه، خلع العوينات ذات العدسات الغامقة التي يرتديها دائمًا، ونظر لي بعينين كحيلتين عميقتي السواد، تظللهما حواجب ثقيلة، وهالات سوداء، عينان كل ما فيهما أسود بشكلٍ لا يمكن نسيانه.

وكيف أنساهما وقد طالعتهما من ساعتين في اللمحةِ التي اختطفتها من وجه مَن كان يراقبني في الكافيه؟

وقال «سلمان» بابتسامةٍ معتذرة بخجل: «آسف على القلم اللي ضربتهولك، بس خُفت من رد فعلك لو عرفت إنه أنا في وقتها».

t.me/qurssan

(٢٦) التمام

صمتُ للحظات، توقف عقلي عن استيعاب ما يجري، ظللتُ أنظر لـ «سلمان» ولا أدرك بوضوح معنى ما يجري، وكان أول ما نطقتُ به بعدها بلحظاتٍ: «إنت اللي كنت بتراقبني؟!».

وقمتُ من مكاني وأمسكتُ بملابسه بشدة وقربتُ وجهي منه، وفي قيامي اصطدمتُ بالمنضدة التي وضع فوقها الصينية، وسقطت الأكواب محدثة ضجيجًا عاليًا.

لم يحرك ساكنًا، وظل ينظر لي بعينين هادئتين لا ذنب فيهما، وتعلَّقتْ «فيروز» بذراعي وهي تطلب مني بتصميم أن أهدأ وأسمع ما سيقوله، وأنه لو كان يعمل مع «ورد» كما أظنّ، فلماذا يكشف لي نَفْسه؟

t.me/qurssan

لم يسمح هدوؤه لثورتي أن تكتمل، فتركتُه وابتعدتُ ووقفت في ركنٍ بعيد من الصالة.. وجاءت «فيروز» لتقف بجواري، وعاد «سلمان» ليجلس على نفس الكرسي الذي كان جالسًا عليه، وتجاهل الفوضى التي أحدثها سقوط أكواب العصير وتحطمها، وبدأ يتكلم بنبرةٍ جادة:

«أنا مش هلومك على رد فعلك، يمكن لو أنا مكانك هعمل كدا وأكتر شوية، بس زي ما «فيروز» قالت، لو أنا شغال مع «ورد» هكشف لك نفسي ليه؟ ما انت ما عرفتنيش وجيت وقعدت وكنت بتحكي لي كل حاجة، وما فكرتش إن أنا نفس الشخص اللي كنت بتجري وراه من شوية.. البالطو اللي كُنت لابسه كان معرِّض جسمي ومغير شكله، والباروكة اللي كنت حاططها، ليك حق ما تعرفنيش.. بس أنا كنت عارف إني أول ما أقلع النضارة قدامك هتعرف، وهتغضب».

ثم قام وبدأ يسير ببطءٍ حتى اقترب من موضع وقوفي وقال وهو ينظر لي:

«من أول لحظة قررت فيها إنك تجيلي العيادة وانت عارف كويس إني دكتور مش تقليدي، لأني بشتغل مع ناس مش تقليديين زيك يا يحيى.. أنا بشتغل مع بشر اللي ظاهر من حياتهم قليل أوي، وأحيانًا ما بيحكوش غير كدب، حتى وهما قاعدين مع دكتور نفسي.. طبيعة شغلي دي هي اللي خليتك تحول لي قبل أول زيارة مبلغ ما بياخدش رُبعه حتى أي دكتور غيري».

t.me/qurssan

ثم أكمل حديثه وهو يبتسم، ربما يرغب في تخفيف وقع كلامه على نفسي:

« لما وصل لي الإيميل بتاعك وعِرفت إنك سألت كذا حد عني، ابتديت أعمل عنك شوية تحريات بسيطة كده، ولما جِيت لي أول مرة العيادة أكيد إنت لاحظت إني ما كُنتش مرتاح لك أوي، اللي سمعته عنك قبل ما أشوفك ما كانش حلو أبدًا يا يحيى، شخصية غريبة ونرجسية وحياته الشخصية غامضة، ما حدش يعرف أهله ولا أصحاب له قبل نجوميته، بس لما جيت لي وقعدت معاك لقيتك إنسان غلبان.. ما تزعلش من كلمة «غلبان» دي مش بقصد بيها تقليل منك، بس حتى مع أول جلسة، واللي انت ما كُنتش موافق تحكي فيها حتى بصراحة، شُفت فيك جوهر إنسان غلبان وطيب.. ودا كان أول خيط فهمي لشخصيتك».

ثم أكمل حديثه وهو يرفع إصبع سبابته لأعلى:

«بس عارف إيه أغرب حاجة اتقالت لي عنك؟ إنك أحيانًا بتتصرف بغرابة كأنك بتتكلم عن أحداث أو مواقف ما حدش يعرفها غيرك، يمكن دا متقاليش غير من شخص واحد اشتغل معاك مرَّة واعفيني من ذكر اسمه، بس لقيت نفسي ابتديت أركز مع النُقطة دي وأنا بسمعك وبنشتغل على ذكرياتك».

ثم استأذن لثوانٍ ودخل غرفة مكتبه، قبل أن يعود حاملًا «تابلت» لوحي ذا شاشة كبيرة نسبيًا، وجلس أمامي، حيث عدتُ للجلوس أنا وفيروز على الكنبة من جديد.

t.me/qurssan

شغّل مقطعًا مصورًا يُظهِر باب شقتي! وقبل أن أسأل عن معنى ما أشاهد، بدأ يشرح من تلقاء نفسه:

«دا فيديو من كاميرا المراقبة اللي محطوطة على باب الشقة اللي قُصاد شقتك.. أيوه المكتب الهندسي اللي فاتح قُصادك، طبعًا إنت أكتر واحد عارف إن الفلوس بتحل أي مشكلة دلوقتي، فمفيش داعي أشرح إزاي جبت الفيديو.. المهم، دا تسجيل من نفس اليوم اللي جيت لي فيه وحكيت لي عن البنت اللي جبتها شقتك في نفس اليوم قبل ما تجيلي، وهددتها قبل ما تطردها.. الفيديو ما بيظهرش أي حد بيدخل أو يخرج من شقتك غيرك يا يحيى، ودا معناه إن موضوع زيارة البنت دا مش موجود غير في دماغك».

ثم أكمل حديثه وهو يتنهد:

«اللي خلاني أشتري تسجيل الكاميرا دا إني ما كنتش مصدق إن شخصيتك الطيبة الخجولة في حقيقتها تقدر تعمل كده.. أنا عارف إنك عملت حاجات غلط كتير، بس كُلها كانت في إطار الشغل ورغبتك في إنك تثبت لنفسك إنك قادر تنجح، وتبقى رقم واحد، وتعمل فلوس كتير، الفلوس اللي اتزرع جواك فكرتها بسبب حاجات كتير عيشتها زي مرض والدتك وموتها وبعدين حدوتة الحب القديمة، فكرة إن عدم وجودها معاك بكثرة هو سبب ضعفك قصاد الدُنيا والناس.. بس إنك تعمل كدا وتجيب واحدة بيتك؟ حاجة جوايا قالت لي ما اصدقش، وبعدها بيومين كُنت

t.me/qurssan

عندك في العمارة وبشتري تسجيل الكاميرا اللي قُدَّامك ده».

طوقتني «فيروز» بذراعيها، أمسكتُ ساقيَّ بذراعي كي تتوقفان عن ارتعاشةٍ ينتفض لها جسدي كله رُغمًا عني، وقلت لـ «سلمان» بصوتٍ مختنق:

«يعني أنا اتجننت؟ بعيش وبشوف حاجات مش موجودة؟».

انحنى «سلمان» تجاهي، وربت على كتفي برفقٍ وقد أحنيتُ رأسي ووضعته بين كفوفي، أضغط على جُمجمتي أتذكر تفاصيل لقاء الفتاة الذي يحكي أنه كان وهمًا، هل كانت وهمًا فعلًا؟ واللائي قبلها كُنَّ وهمًا أيضًا؟

ردَّ عليَّ «سلمان» بنبرةٍ هادئة:

«إنت مش مجنون ولا حاجة يا يحيى.. إنت تعبان شوية بس مش أكتر، لكن إنت عاقل وذكي وموهوب، وإنسان كويس بس مثي في سكة غلط مش شبهه.. وعشان مش شبهك معرفتش تتأقلم يا ابني.. موضوع البنات دا هلاوس بصرية وسمعية عقلك كان بيعيشها لك، غالبًا عشان يرضي رغبتك في الانتصار على اللي خذلتك زمان.. عقلك كان بيعيشك اللي انت ما تقدرش تعيشه ولا تعمله، عشان إنت من جواك لسه نضيف، بس ما كنتش متقبل نضافتك دي، الشبح اللي بيطلع لك وانت صاحي هو انت يا يحيى، نَفْسَك القديمة الحقيقية اللي اتشوهت واتكسرت، فقررت تسيبها في إسكندرية، وتيجي هنا تعيش بشخصية جديدة.»

t.me/qurssan

رفعتُ رأسي ببطءٍ تجاهه، ودموع غزيرة تسيل على وجهي رُغمًا عني، وسألته بصوتٍ مختنق تمامًا:

«إيه كمان مش حقيقي في حياتي؟ إنت مش أول مرة تراقبني النهاردة صح؟».

نظر في عينيّ بحزنٍ وهز رأسه موافقًا، وقال:

«أيوه مش أول مرة، من يوم ما وصلني الفيديو دا وأنا تقريبًا يوميًا براقبك، ولو ما كنتش فاضي ببعت وراك حد تَبعي.. ودا بعد ما قررت تأجيل مواجهتك باللي اكتشفته، خُفت ما تصدقنيش وتمشي، وكنت محتاج أسمع منك أكتر».

هززتُ رأسي بشدة نافيًا، وقلت له بغلٍ مكتوم:

«أنا مش مصدقك، دي لعبة! لعبة كبيرة أوي بتلعبها مع «ورد».. اتفقت معاك إنك تقنعني إني مجنون يا دكتور صح؟!».

نظر «سلمان» إلى يساره وضغط على أسنانه بشدَّة، والتفتَ وقال لي بهدوءٍ حاول التمسك به:

«إنت ليه مصمم تقول على نفسك مجنون؟ هو التعب النفسي شرط يخليك مجنون؟ حياتك اللي أجبرت نفسك تعيشها خلت عقلك أحيانًا يتسبب في هلاوس، دا غير الوحدة اللي طول عُمرك عايش فيها، لغاية ما اتحولت لعُزلة وسجن مِحاوط نفسك بيه.. إنت كنت متوقع إن عقلك هيستحمل كل الضغوط دي وما يتعبش؟ لو مصمم متصدقنيش انزل دلوقتي بنفسك ودوِّر على البوَّاب اللي كنت بتشتكي لي إنه بيضايقك وانت طالع لي.. العِمارة

t.me/qurssan

هنا مفيهاش بوّاب من ٤ شهور يا يحيى».

تزعزع وجودي كُله، خارتْ قواي تحت وقع كلماته، هل كل هذا وهم فعلًا؟ هل كل ما يحكي عنه من هلاوس من إنتاج عقلي؟ أليس توهُّم ما ليس موجودًا في الواقع درجة من درجات الجنون؟

حاولتُ التماسك، وفشلت، حاولت التكلُّم، فخرج الكلام مني نحيبًا طفوليًا انطلقتْ فيه رُغمًا عني.

أحاطتني «فيروز» بذراعيها واحتضنتني بقوة، ضمتني لصدرها وهي تطلب مني الهدوء، وتخبرني أنها بجانبي ولن تتخلى عني أبدًا، وأن كل شيءٍ سيصبح بخير.

نزل «سلمان» على ركبتيه، وقرَّب وجهه مني وقال وقد اكتسى وجهه بابتسامةٍ عريضة، تألقتْ فيها عيناه المميزتان:

«يحيى إنت إنسان جميل.. دي حقيقة روحك اللي كنت بتحاول تدفنها وراك بس مقدرتش.. إنت عارف إنك كنت بتحارب نفسك من غير ما تحس؟ عارف الصفحة اللي بتنشر مكالمات «يحيى الحاوي» وفضايح شغله وتزييفه لكل حاجة مين اللي عملها؟ إنت! دا اللي اكتشفته لما خليت واحد دوَّر لغاية ما وصل للراوتر اللي بتتفتح الصفحة دي منه، ولقينا المكان في عنوان شقتك.. عقلك كان رافض اللي بتعمله وعايز يطلعك منه حتى لو هيساهم في قتل «يحيى الحاوي» للأبد.. «ورد» آه هي اللي نشرت الفيديو بتاع المستشفى، بس الباقي كله إنت اللي طلعته للنور.. إنت من جواك رافض «يحيى الحاوي»، العالم بتاعه مش

t.me/qurssan

شبهك يا يحيى، «يحيى مصطفى» مش عايزه وقرر خلاص إنه يرجع للنور تاني».

هدأ بكائي، وأحسستُ بصداعٍ يتصاعد في رأسي كأن جمجمتي ستنفجر وتتطاير كالشظايا.. أحضر لي «سلمان» بعض الماء، أمسكتُ الكوب بيد مرتعشة وشربت، بينما «فيروز» تمسد شعري برفقٍ وتبكي بلا صوتٍ على ما يحدث لي، وما تسمع عني، حاولتُ التماسك وقلت لـ «سلمان» الذي جلس بجواري من الجهة الأخرى:

«أنا حاسس إني في كابوس، طب أعرف إزاي إيه اللي في حياتي كان وهم وإيه ما كانش؟ أنا خايف قعدتي معاكم دلوقتي نفسها تبقى وهم، أنا ما بقيتش متأكد من حاجة، أنا عايز أخف طيب أعمل إيه؟».

أجابني «سلمان» وقد أحاط كتفي بذراعه في تودد:

«أنا حقيقي وفيروز حقيقية وكل اللي أنت عايشه دلوقتي حقيقي يا يحيى.. ما انكرش إني خُفت تكون «فيروز» مش موجودة غير في خيالك، عشان كدا جيت قعدت بعيد عنكم في الكافيه النهاردة، وبصراحة اطمنت لما شُفتها وشُفتك.. حالتك مش متقدمة في نقطة الهلاوس، كل اللي حكيتهولي انا اتأكدت منه بطريقتي، حتى يوم الحفلة كنت ماشي وراك بنفسي لغاية ما دخلت القصر بتاع «ورد»».

t.me/qurssan

سألته وإحساسي بالصداع يزداد، حتى أصبحتْ مُجرَّد محاولة فتح عينيَّ مؤلمة: «طيب أنا عايز أبدأ علاج.. أنا عايز أخف، عايز أرجع طبيعي».

فأجابني بصوتٍ به لمسة حُزنٍ يحاول مداراتها:

«أنا هرشحك لمركز صحة نفسية بيديره دكتور بثق فيه.. أنا مش مؤهَّل لعلاجك للأسف، أنا فشلت معاك، اللحظة اللي الدكتور والمريض بيتحولوا لأصدقاء بتبقى لحظة إعلان فشل للطبيب، أنا ما اتعودتش على نَفسي إني دكتور فاشل، بس مفيش إنسان مش وارد إنه يغلط، أنا غلطتي إني حبيتك يا يحيى، ودا ما ينفعش؛ أنا حبيتك من ذكرياتك وبقيت أعتبرك صاحبي، وبقيت أستنى زياراتك ليا وكلامنا سوا كأني مستني واحد صاحبي مش مريض.. صحيح أنا معنديش صُحاب من زمان، بس حصل بقى واتعلقت بيك بشكل إنساني، ودا ممكن يخليني أضرك مفيدكش لو حاولت أبقى الدكتور بتاعك.. على فكرة الفلوس اللي حولتها لي على حسابي، موجودة في حسابك من ٣ أيام، بس أكيد ما أخدتش بالك في اللي كنت فيه».

وفي رأسي تصاعد الصُداع، ويد «سلمان» تطبطب برفقٍ على ظهري، وهو يسألني إن كنتُ بخير وبماذا أشعر.. تصاعد الأنين من بين أسناني رُغمًا عني، صار الألم في رأسي لا يُحتَمل، أسمع صوت «فيروز» تنصحني بالذهاب للحمام وغسل رأسي، حاولتُ القِيام، فخذلتني قدماي.

t.me/qurssan

حاولت الارتكاز على أي شيء، فلم أجد غير السقوط. ارتطمتُ بشدة بالأرض، وقبل أن يتلاشى العالم مِن حولي، كان وجه «سلمان» و«فيروز» المفزوعين آخر ما تعلَّق بذاكرتي.

t.me/qurssan

خاتمة

تسعة شهور مضتْ على دخولي المصحة.

كانتْ الفترة الأولى، بالتحديد الشهر الأول، أصعب ما مرَّ عليَّ هنا، وبمرور الوقت بدأت أعتاد الجو هنا، خصوصًا أن المعالج الذي بدأ رحلة العلاج معي كان شابًا شديد اللُطف وله حضور خفيف على روحي.

بعد شهرين من الجلسات المُكثفة، تم تشخيصي بأنني مُصاب بدرجة متوسطة من «الفُصام»، نتج عنه أعراض اكتئابية حادة، بالإضافة للمعاناة من أعراض «ما بعد الصدمة» مما جرى معي في الإسكندرية قبل مغادرتي للقاهرة، من صدمات متتالية تمثَّلت في الخيانة العميقة التي تعرَّضتُ لها من مقربين لي، بالإضافة لوفاة أمي.

t.me/qurssan

بدأت العلاج منفردًا في البداية، مع تناول الأدوية اللازمة تحت إشراف طبي كامل، وبعدها بدأت تدريجيًا جلسات العلاج الجماعي، مع مَن يعانون من أعراض مشابهة لما كان عندي.

أقول «كان» لأنهم أخبروني أنني تقريبًا شُفيت بشكل كامل.

خلال الشهر الأخير أصبح مسموحًا لي مغادرة المصحة ليومين أقضيهما بصُحبة أبي، و«محمد سامي» صديقي في الإسكندرية، ومن ثمَّ أعود للمصحة في القاهرة.

أحيانًا يفاجئني أبي بزيارات مُبهجة في منتصف الأسبوع، يحمل لي معه الكتب، وأقراص «المشبك» الذي يعلم منذ طفولتي أنني أحبه.. في الشهور الأخيرة أعدتُ اكتشاف أبي من جديد، اعتذرنا لبعضنا البعض، وتحدثنا كثيرًا في كل شيء، كصديقين قديمين خانهما سوء التقدير لفترةٍ زمنية طالتْ قليلًا.

تعرَّف أبي على «فيروز» وأحبا بعضهما كثيرًا.. حتى أنها أصبحت تلومني على خِصامي القديم معه بشِدَّة كأنه يخصها أكثر مني.

علاقتي بـ «فيروز» تتشكل بإيقاع هادئ، بعيدًا عن ضوضاء العالم الذي كنتُ أحيا فيه.. نخطو خُطواتنا الأولى، بهدوء، لا نجد في أنفسنا حاجة للتسرُّع، خصوصًا بعد أن تقدَّمتُ لخُطبتها من أمها ووافقتْ مبدأيًا، بالرغم من عدم تحمُّسها إلا أن تمسُّك «فيروز» بي حسم الأمر، وأجَّلنا الخُطوة إلى أن يكتمل علاجي. معها أشعر أن الحُب شرنقة تُحيطني من كل جانب، نظراتها لي

t.me/qurssan

تحكي دون صوت، تروي كيف تراني جميلًا.

لا أعرف ماذا سأفعل في حياتي القادمة بالتحديد؟ ربما أعود للمحاولة في مجال التمثيل الاحترافي، ربما أتجه لعملٍ آخر يوفر لي مصدر رزق وأؤجل حلم التمثيل، لا أعرف، وعندما أتناقش مع «سلمان» في لقاءاتنا وزياراته لي في المصحة بخصوص هذا الأمر، يُخبرني أنه يجب تأجيل التفكير في هذه الأمور فيما بعد.

لستُ فخورًا بكل شيءٍ في رحلتي، لكني الآن أدرك أن كل ما مررتُ به كان حتميًا كي أصل للنقطة التي أنا فيها الآن.. تدريجيًا بدأتُ أشعر بزوال سحابة الألم السوداء التي أحاطتني لسنوات ظننتُ فيها ـ بالخطأ ـ أن أهم ما يمكن أن أعيش من أجله هو فهم العالم مِن حولي والاستغراق فيه، ونسيتُ أن أفهم نفسي وأتقرب منها، ولو قليلًا.. الآن أدرك أن تصالحي مع ضعفي كان بداية التعافي، وأنني لم أكن محتاجًا لرفقة تراني مُبهرًا، بقدر حاجتي لصُحبةٍ تراني جميلًا مُستحِقًا للحب، بكل ما يملأ روحي من ندوب.. بهذا الحب استكان الألم الذي عِشتُ حياتي كلها وهو يحيطني من كل جانب، حتى ظننتُ أنني لن أعرف حياة خارج قبضة الحُزن التي اعتصرتني زمنًا، الآن فقط ترتخي قبضته، ولو قليلًا، كأن روحي تلتئم من جديد.

طلب مني المعالج أن أكتب عن نفسي بالشكل الذي أريده وأرتاح له، مُعتبرًا أنها خطوة مهمة في إعادة اكتشافي لنَفْسي من جديد.

t.me/qurssan

كتبتُ دون حذر، دون كذب، وبالكتابة تعمَّق إحساسي أنني أكتب حياة لم تعد تخصني، فحياة «يحيى الحاوي» لم تعد تنتمي لي في شيء، وإن كنتُ متصالحًا مع كل ما عُشته فيها.

لم أعد منشغلًا بالماضي، بقدر انشغالي بما هو قادم.. اكتفيتُ من سجن الألم الذي أسر روحي لسنواتٍ.

أريد أن أحيا.

يحيى مصطفى

كُتبتْ داخل مصحة «الشفاء والأمل» للعلاج النفسي، بإحدى ضواحي القاهرة.

t.me/qurssan

شكر خاص إلى

- آية محمد عفيفي.
- تامر عبده أمين.

لولاكما ما خرجتْ هذه الرواية إلى النور.

t.me/qurssan

التئام

أتعجب من نفسي، من تفاوت قدرة قلبي على التحمُّل، في بعض الأحيان أبدو قويًا لا يقهرني أي شيء، حتى يتهمني بعض مَن حولي بالشدّة التي تصل للقسوة، ويحسدوني على ثباتي، وفي أحيان أخرى تهزمني لمحة خذلان عابرة، تؤلمني وتزعزع ثقتي في نفسي، تكاد تعصف بي.. أتأرجح بين شدة القوة، وشدة الضعف، كأن بداخلي شخصين؛ واحد لا يبالي بأفعال البشر واثقًا من نفسه، وآخر تهزمه كلمة قاسية في موقف عابر أو سند انتظره ولم يجده.. بداخلي اثنان يتنازعان، وبينهما أتمزق أنا في المنتصف.

أحمد مدحت

كاتب مصري مهتم بمجال العلاقات الإنسانية، من مواليد ١٩٩٤ بمدينة الإسكندرية.. كتب مقالات في عدة صحف ومواقع مصرية وعربية.. وصدر له كتاب مقالات أدبية بعنوان "بسكاليا: حكايات الحب والشقا" عام ٢٠١٦.

تصميم الغلاف كريم آدم

المصري للنشر والتوزيع

t.me/qurssan